هشام شرابي

الجمر والرماد

ذكريات مثقف عربي

دار الطليعة - بيروت

ص.ب ١١١٨١٣
بيروت ــ لبنان

الطبعة الاولى
تموز (يوليو) ١٩٧٨

« لا يعيش الفرد حياته الشخصية فحسب ،
بـــــل ايضا حيـــاة عصره وحياة جيلـه »

توماس مان «الجبل السحري»

للمؤلف

★ **مقدمات لدراسة المجتمع العربي** (بيروت ١٩٧٥ ، ١٩٧٧) .
★ **الدبلوماسية والاستراتيجية في الصراع العربي الاسرائيلي** (بيروت ، ١٩٧٥) .
★ **المثقفون العرب والغرب** (بيروت ، ١٩٧١) .
★ **الفدائيون الفلسطينيون : صدقهم وفاعليتهم** (بيروت ، ١٩٧٠) .
★ **المقاومة الفلسطينية في وجه اسرائيل واميركا** (بيروت ، ١٩٧٠) .

★ **A Handbook on the Contemporary Middle East** (Washington, 1957).
★ **Government and Politics of the Middle East in the Twentieth Century** (Princeton, 1962, 1963, 1968) .
★ **Nationalism and Revolution in the Arab World** (Princeton, 1969) .
★ **The Lethal Dilemma: Palestine and Israel** (New York, 1969) .
★ **Palestine Guerrillas: Their Credibility and Effectiveness** (Washington, 1970, 1971) .
★ **Arab Intellectuals and the West** (Baltimore, 1970) .

مقدمة

سنة ١٩٧٤ قررت أن اعود نهائيا الى الوطن العربي ...

في صيف تلك السنة غادرت واشنطن مع زوجتي وابنتي ، واقمنا في شقة صغيرة في رأس بيروت يملكها صديق لي ، استاذ في الجامعة الامريكية . وبعد مدة قصيرة استدنت مبلغا من المال ، واشتريت قطعة ارض في «المشرف» جنوبي بيروت ، حيث كانت مدرسة ابنتي ليلى (كان عمرها آنذاك خمس سنوات) وبدأت ببناء بيت صغير ليكون مسكننا الدائم .

وفي مطلع شتاء ١٩٧٥ ، عندما قاربت تأشيرة السفر اللبنانية على الانتهاء قدمت طلبا الى دائرة الامن العام اللبنانية لاستبدال التأشيرة بتصريح «اقامة» لي ولعائلتي . ذهبت الى الامن العام برفقة زوجتي وقدمت الطلب الى الموظف المسؤول بعد ساعات من الانتظار والانتقال من مكتب الى آخر . وانتظرنا

اسابيع ، ولم يأت الرد ، فقدمنا طلبا آخرا لتجديد تأشيرة الدخول ريثما يأتي طلب الاقامة .. وانتظرنا ، وراجعنا ، الى ان جاء الرد .. ورُفض طلب الاقامة ...

اذكر ذلك اليوم جيدا ، كان يوما عاطرا من ايام اول الربيع. بعد انتظار طويل في قاعة تعج بالعرب «الاجانب» جاء الموظف واخبرني ان طلبي قد رُفض . فسألته عن السبب فقال :

ـ لا استطيع ان اقول لك شيئا . الاوامر جاءت من فوق .

عدتُ الى المكتب ، وكنت أعمل رئيسا لتحرير «مجلة الدراسات الفلسطينية» التي تصدر باللغة الانكليزية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية وجامعة الكويت ، وقد غمرني حزن عميق . بعد كل هذا .. لا استطيع الحصول على اذن اقامة في لبنان ؟ امن اجل هذا تركت العيش الآمن والمركز الثابت ورضيت بالمستقبل الغامض والحياة القلقة ؟ لقد عدت لكي اعمل من اجل هذا الشعب ومن اجل هذا الوطن .. واكتشفت ، كما يفعل كل مثقف عائد لخدمة وطنه ، ان الشعب والوطن لا يأبها به وبأحلامه ، وان الواقع يناقض الرؤيا ..

ذهبت الى صديقي الدكتور منير شماعة ، واخبرته بما جرى . فاتصل بصديقنا الدكتور نجيب ابو حيدر ، وكان وزيرا سابقا للتربية ، فقام لتوه بالاتصال بمدير الامن العام وطلب مقابلته . وفي اليوم التالي حصل لي على الاقامة لمدة سنة .

في هذه الاثناء أعلمنا المهندس ان بيتنا في المشرف سيصبح جاهزا في نهاية الصيف . فعدنا في بدء فرصة الصيف الى واشنطن لترتيب أمور انتقالنا النهائي ، ولتقديم استقالتي من جامعة جورجتاون ، حيث كنت أعمل استاذا منذ عام ١٩٥٣ .

وعندما حان موعد عودتنا الى بيروت كانت الاوضاع في لبنان قد ساءت الى حد اننا اضطررنا الى تأجيل السفر . وفي كانون الاول ١٩٧٥ ، بعد ان بقيت الاوضاع على ما هي عليه ،

قررت الاطلاع على الاحوال في لبنان بنفسي . ذهبت عن طريق عمان . وجدت المدينة تعج بالنازحين عن بيروت ، ولم يبق بيت او شقة او غرفة لم تؤجر . وفي اليوم السابق لليوم الذي كنت مزمعا فيه على السفر الى بيروت ، وقعت احداث «السبت الاسود» * .

عدت الى واشنطن كالجندي المهزوم . عدلت عن الاستقالة، وجددت عقدي مع جامعة جورجتاون ، وسجلت ابنتي الكبرى ناديا في الجامعة وابنتي الصغرى ليلى في المدرسة الابتدائية في الحي الذي نقيم فيه . وبقينا في واشنطن ، حيث لا ازال حتى كتابة هذه السطور .

هذا الكتاب حصيلة تلك الفترة القلقة . بدات في كتابته صيف ١٩٧٥ لأسجل فيه نهاية مرحلة من حياتي ظننتها انتهت، وبداية مرحلة جديدة ظننتها بدات او على وشك ان تبدأ . الا ان المرحلة الجديدة لم تتحقق والمرحلة السابقة ما زالت مستمرة . ويغمرني احساس في هذه اللحظة ان الفرصة قد فاتتني وانني لن اعود ابدا الى وطني ، بل سأمضي ما تبقى لي من العمر هنا في هذه البلاد الغريبة ، واني سأموت فيها . لكن لا ... هذا لن يحدث . شعبي هو جزء من حياتي لم اتركه يوما ، ووطني احمله في قلبي لا اقدر ان اتخلى عنه . سأعود يوما ...

ثلاثة اصدقاء اعزاء رافقوا هذا الكتاب منذ البداية ، وغمروني في مراحله الصعبة بعطفهم ومحبتهم ، هم ادونيس وحسن الابراهيم وحليم بركات ، لهم حبي الدائم .

واخص بالشكر ادونيس لما ادخله في الكتاب من اصلاح في

---

* حين قتل عشرات من المدنيين الابرياء في بيروت «على الهوية» .

اللغة دون ان يغير قيد أنملة من أسلوب الكتابة ، فبقي بسيطا لا تكلف فيه كما اردته ان يكون .

واشنطن ٢٠ ايار ١٩٧٨ — **هشام شرابي**

الفصل الأول

- ١ -

وصلنا الى مطار اللد عند المغيب . كان يوما شديد البرودة في منتصف شهر كانون الاول ١٩٤٧ . الطرق خالية الا من المصفحات البريطانية ، وسيارة يوسف صايغ «الهمبر» ، السيارة المدنية الوحيدة في الطريق بين القدس واللد . كان يوسف يوصلنا ، اخاه فايز وأنا ، الى المطار لركوب الطائرة في طريقنا الى اميركا للدراسة ، فايز الى جامعة جورجتاون في واشنطن وأنا الى جامعة شيكاغو .

أمس ، كنا في القدس ، في اوتيل كلاريدج بالقطمون الذي يديره فريد عطايا . بعد الظهر ذهبنا جوزيف سلامه وأنا لمشاهدة فيلم «حبيب العمر» لفريد الاطرش وسامية جمال في سينما ركس . كانت القاعة ملأى بالمشاهدين ، والحياة تسير كعادتها كأن شيئا لم يحدث في فلسطين .

في المطار الصغير المقفر يقول لنا الموظف في مكتب شركة الـ TWA بأن طائرتنا قد تأخرت وان موعد الاقلاع قد تأجل الى صباح اليوم التالي . نعود الى اللد ونمضي الليلة في فندق صغير بعد ان يودعنا يوسف ويعود الى القدس . هذه آخر ليلة امضيها في فلسطين .

وفي صباح اليوم التالي نستقل الطائرة . من نافذتها القي آخر نظرة على بلدتي يافا . ارى يافا من ناحية البحر ، من فوق الميناء ، واتبين العجمي والكنيسة الارثوذكسية البيضاء الى جوار بيتنا . يخيل الي اني ألمح بيتنا في قمة تل العرقتنجي .. ما هي الا لحظات حتى تغيب يافا عن ناظري ، ولا اعود ارى الا الشاطىء الابيض الطويل ، تمتد وراءه بيارات البرتقال الى الافق البعيد .

- ٢ -

أسأل نفسي الان ، وانا اخط هذه الكلمات بعد مرور سنين عديدة ، كيف غادرنا بلادنا ، والحرب قائمة فيها ، واليهود يستعدون لابتلاعها ..

لم يدر هذا السؤال في بالي حينئذ ، ولا اظنه دار في بال صديقي فايز ان يكون اليهود في مثل سننا ، وبينهم الفتيات ، جميعا مجندين ، فأمر لم يكن يخطر على بالنا ، كذلك لم يكن يخطر على بالنا تأجيل دراستنا والبقاء في وطننا لنقاتل . كان هناك من يقاتل عوضا عنا . أولئك الذين قاتلوا في ثورة ١٩٣٦ ، والذين سيقاتلون في المستقبل . انهم فلاحون ، وليسوا بحاجة الى التخصص في الغرب . موقعهم الطبيعي هنا ، فوق هذه الارض . اما نحن — نحن المثقفين — فموقعنا في مستوى

آخر . .نحن نصارع على جبهة الفكر ونقاتل قتال العقل المرير ...

- ٣ -

أتذكر الان حادثة وقعت في الفترة التي غادرت فيها بلادي.

في أواخر سنة ١٩٤٧ عمّت البلاد موجة حماسية عارمة بسبب قرار التقسيم ، فقام طلاب الجامعة الاميركية في بيروت بمظاهرات في الشوارع يطالبون بالتطوع في صفوف « جيش الانقاذ» . قبلت طلباتهم وسجل عدد كبير منهم اسماءهم في مراكز التطوع وأعطيت لهم التعليمات ان يحضروا الى ساحة البرج في اليوم التالي لنقلهم الى حمص للتدريب . ومن المئات الذين سجلوا اسماءهم ، لم يحضر في اليوم التالي الا عدد ضئيل يعدّ على اصابع اليد .

واخبرني صديقي يوسف أيبش عن حادثة اخرى وقعت له ولاحد زملائه ، في الفترة نفسها . كان يوسف احد اولئك الذين اشتعلت فيهم الحماسة ، فقرر وصديق له الالتحاق بجيش الانقاذ ، فسافرا الى دمشق مباشرة ــ عائلة يوسف العريقة معروفة هناك ــ وتوجها رأسا الى مكتب طه باشا الهاشمي القائد الاعلى لجيش الانقاذ وطلبا مقابلته . وبعد انتظار قصير قابلهما طه باشا بلطف وبشاشة وقدم لهما القهوة لكنه رفض قبولهما في جيش الانقاذ قائلا :

ــ يا ابنائي ، القتال ليس لشبان مثلكم ، نصيحتي اليكم العودة الى مقاعد دراستكم. انتم ابناء عائلات ومثقفين وخدمتكم لوطنكم تكون عن طريق العلم والمعرفة لا عن طريق الحرب والبندقية . البندقية يستطيع غيركم حملها .

- ٤ -

والغريب في الامر هو اننا ، فايز وأنا، كنا ملتزمين سياسيا (كنا عضوين عاملين في الحزب السوري القومي الاجتماعي) وعلى درجة كبيرة من الوعي الاجتماعي . ومع ذلك فقد غادرنا بلادنا في وقت محنتها دون اي تردد او شعور بالذنب . كأن الامـــر طبيعي لا يدعو الى تأمل او اعادة نظر . في محاولتي الان تفسير هذا السلوك (لا تبريره) اجدني عاجزا كل العجز . ربما كوننـــا مثقفين ساعد على ذر الرماد في اعيننا ، فصرنا نرى الاشياء من زاوية الفكر المجرد وحده ، وهكذا بدت الدنيا لنا موضوعا لكلامنا وفكرنا ، لا مجالا لتحقيق أفعالنا وأعمالنا . كأنما يكفي ان نحب وطننا بقلوبنا كلها ، وأن نحلم بمستقبل عظيم لأمتنا ، دون أن يُلزمنا ذلك بشيء سوى صدق العاطفة !

- ٥ -

عندما غاب الشاطىء الفلسطيني عن ناظري فتحت الطاولة الصغيرة امام مقعدي وجعلت اخط الرسالة التي يخطها كـــل مسافر عند الفراق – احيانا على الورق وأحيانا في قلبه .

عند وصولنا الى اميركا كانت البلاد في قبضة عاصفة ثلجية لم تر لها مثيلا منذ زمن طويل . تراكمت الثلوج في نيويـــورك وشيكاغو وانقطعت المواصلات ، وبدا لي انه سيتعذر علـــيّ الوصول الى شيكاغو من واشنطن حيث حطت بنا الطائرة بعـــد منتصف الليل في مطار اندروز العسكري . الا ان القطارات ما فتئت ان عادت الى السير كالمعتاد . فركبت القطار الى شيكاغو – بعد زيارة لريتشموند ورونوك ونيويورك – ووصلتها بعـد اربع عشرة ساعة اخترقنا خلالها مئات الاميال تحيط بنا تـلال الثلوج من الجانبين .

انزلتني السيارة عند مدخل الانترناشونال هاوس (النـزل الدولي) في شارع رقم ٥٩ في جنوبي شيكاغو حيث تقع الجامعة على مقربة من بحيرة مشيغن . وما كدت اترجـل حتى سمعت صوتا يقول بالعربية :

ــ اهلا اهلا . نوّرت شيكاغو .

فالتفت الى مصدر الصوت فرأيت راشد فخري واقفا امام المدخل وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، فهرعت اليه وقبلته بفرح عميق ثم دخلنا النزل سويا حاملين أمتعتي . وأخذت مفاتيـح غرفتي ، وتركني راشد على ان نلتقي بعد ان أستريح قليلا .

- ٦ -

ادخل غرفتي واغلق الباب ورائي . للمرة الاولى منـذ مغادرتي مطار اللد استطيع التفكير بهدوء . ها انا اخيرا فـي اميركا .. تحققت احلامي ووصلت الى جامعة شيكاغو وأنا الان في غرفتي الخاصة في الانترناشونـال هاوس .. أحسست بالوحشة تغمرني .. قلبي يكاد ينفجر .. اني على وشك البكاء. أريد العودة . اريد العودة الى وطني واهلي والى الحزب الذي تركته ورائي .

الحلم اذا تحقق ، كالرغبة اذا اشبعت ، يترك وراءه فراغـا موحشا . في تلك اللحظة اخذت قرارا بالعودة في اقرب وقت ممكن . سأدرس للحصول على شهادة الماجستير فقط ، وأعود بعد سنة . وشعرت بشيء من الراحة . ولم يدر في خلـدي حينذاك انني سأمضي الجزء الاكبر من حياتي في اميركـا وأن عودتي الى وطني لن تكون الا لفترة قصيرة مفجعة ..

- ٧ -

استيقظت باكرا على صوت قرقعة انابيب التدفئة . قمت الى النافذة حافي القدمين فلسعني البرد ، ولم أتمكن من رؤية شيء بسبب الثلج والضباب . ثم استحممت وحلقت ذقني ونزلت الى الكافيتريا لتناول طعام الافطار فوجدتها خالية الا من بعض الطلبة . وبعد الافطار لبست معطفي وجلست في قاعة الجلوس بانتظار راشد ليأخذني الى مكتب التسجيل .

ما ان خطونا خارج النزل حتى صفعنا الهواء الجليدي وشعرت ببرد لم أعهده في حياتي . سرنا في الطريق المؤدي الى الجامعة بين الثلوج المتراكمة وأحسست ان رأسي يكاد ان ينفجر من شدة البرد .

اول ما لفت نظري عند وصولنا الى حرم الجامعة طراز بنائها القوطي (Gothic) الجميل ، والسكون المخيم على كل شيء . كان الثلج المتراكم يمتص الاصوات كلها ويجعلها خافتة ، حتى رنين الاجراس الذي كان آتيا من بعيد . وعادت بي الذكرى الى بيروت ، ووصل الى سمعي صوت اجراس كولدج هول تعلن بدء صفوف الصباح، ونحن نسرع متأخرين الى قاعة الدرس..

الفصل الثاني

- ١ -

كان جميع الذين يدرسون في الجامعة الاميركية في بيروت من طبقة غنية او متوسطة الحال على الاقل . كنا قلة بين عشرات الآلاف من شبان شعبنا أتيح لها ان تحصل على العلم والثقافة العالية . ولم نكن ، مع ذلك ، نشعر بأننا نتمتــــع بامتيازات خاصة حرم منها الباقون . تعودنا ان نسكن البيوت الواسعــة ونتمتع بالحياة كما نريد ، لا نعرف للحرمان معنى ، كأن السعادة حقا طبيعيا لنا . تعلمنا منذ الصغر ان ننظر الى الفقراء بمنظار خاص . كان الفقر جزءا من حياتنا ، لكنه كان خارجها ، بعيدا عنها ، كالاكواخ المتناثرة حول أحيائنا الفخمة . كان الفقــــراء بشرا مساكين نراف بهم ونتألم لفقرهم لكنهم كانوا ينتمون الى عالم آخر . وكان منظر المتسولين الذين يملأون شوارع مدننـــا منظرا طبيعيا بالنسبة الينا ، فلم يزعجنا او يدفعنا الى تأنيب

الضمير ، ولم يدر بخلدنا ان هناك علاقة بين ثرائنا وبؤسهم . كنا نشعر بالشفقة نحو هذه المخلوقات التعسة ، وكان شعورنا هذا يسبغ علينا ارتياحا معنويا عميقا . كلما تكرمنا على متسول بقطعة نقود صغيرة ، وراح يدعو الى الله ان يوفقنا ويحفظ شبابنا ويخلينا لآبائنا وأمهاتنا ، أحسسنا بأن الله انما يكافؤنا على أعمالنا الطيبة فيغمرنا الرضى على انفسنا وتكبر فضائلنا بنظرنا .

كانت جدتي من عائلة ارستقراطية متدينة ، وكانت كل يوم جمعة توزع الصدقة على الفقراء بعد صلاة الظهر ، وكانت تدير الراديو الى اقصى علوه لسماع تلاوة القرآن الكريم ، فيمتلىء البيت بصوت المقرىء وبالبخور الذي كانت تحمله وتدور به في غرف البيت تردد الصلوات والدعاء . وبعد خطبة الجمعة كان الفقراء يأتون بالعشرات ويجلسون في الحديقة امام مدخل البيت الشرقي القريب من المطبخ . فيقدم لهم الطعام ويأكلونه بصمت وهم وقوف في الشمس او جلوس على درج المدخل . وكانت جدتي بعد ذلك توزع عليهم الملابس القديمة وقليلا من النقود وعددا من الارغفة التي كانت قد «كبستني» بها وقرأت على رأسي بها سورة الكرسي ثلاث مرات . وكنت بالرغم من تأففي من «التكبيس» وتمتمات جدتي ، أتقبل هذه الطقوس دون تساؤل . فلم أشعر بالغضب او الخجل لما كانت تمثله اعمال التقوى والاحسان هذه الا بعد سنوات عديدة ، بعد ان توفيت جدتي واصبحت ارى الحياة بضوء آخر .

كانت اهم القيم في حياة الطبقة الاجتماعية التي انتميت اليها هي المكانة الاجتماعية واسم العائلة والكرم التظاهري تجاه الضيف . كان للكرامة معنى خاص عند هذه الطبقة ، فأقل شيء يثير شعورها بالكرامة . من هنا ، في فترة الاحتلال اتخذ الشعور الوطني عند هذه الطبقة ، شكل كرامة أهينت اكثر منه

شكل حق قومي او حرية ديست فكأن كرامة العائلة والحق القومي والحرية اشياء متساوية . اما ان الشعب كان يعيش حياة ذل وقهر ، وتهان كرامته كل يوم ، فأمر لم يكن يدخل في مفهوم هذه الطبقة . من هنا لم يكن في مضمون الوعي القومي الذي ترعرعنا عليه ما يربط حياتنا وعملنا بواقع شعبنا وحياته. كان الاستقلال يعني التخلص من اجانب يحتلون مراكز السلطة في بلادنا ، ويحرموننا من التمتع بها . اما تحرير الشعب وتحرير المجتمع ، بمعنى ان يستعيد الانسان انسانيته والمجتمع وحدته وحريته ، فأمر لم يدخل في تصورنا ابدا .

اما قادة هذه الطبقة ومفكروها الذين تكونت عقولنا على ايديهم ، فكانوا يرون المجتمع والتاريخ من خلال معاني موقعهم الطبقي وقيمه ومصالحه . كان الماضي بالنسبة اليهم هو العصر الذهبي ، عصر العز والمجد . وكانت مقارنة الماضي بالحاضر عملية مؤلمة ، لانها كانت تبرز الفارق بينهما . وكان قادتنا ومعلمونا يكرهون الغربي ويعشقونه في الوقت نفسه . كان الغرب بالنسبة اليهم مصدر كل ما تشتهيه انفسهم ، في الوقت ذاته مصدر ذلهم وتعاستهم . هكذا غرسوا فينا مركب النقص من الغرب وعقدة تقديسه معا ، وغدت مفهوماتنا القومية تعصبية بعيدة البعد كله عن المفهومات الاجتماعية والتاريخية الصحيحة.

- ٢ -

ما ان بدأت الدرس حتى انفجرت اول ازمة في عهد الاستقلال — كان ذلك في تشرين الثاني ١٩٤٣ وكنت التحقت بصف الفرشمن . اتخذ المندوب الفرنسي موقفا منفعلا ، فبعث بالسنغاليين الى البرلمان وأغلقه بالقوة ، ثم أمر بالقاء القبض على عدد من الزعماء ، بينهم بشارة الخوري رئيس الجمهورية

ورياض الصلح رئيس الوزارة ، ونصّب اميل اده رئيسا لحكومة موقتة موالية لحكومة ديجول . فاضطربت البلاد ، وأعلنت الاحزاب الاضراب العام وأغلقت المدارس وانفجرت المظاهرات الى ان رضخ الفرنسيون اخيرا للمطالب الوطنية ، وأطلقوا سراح الزعماء الموقوفين ، وسحبوا قواتهم من الشوارع ، وعاد البرلمان الى الانعقاد رافعا العلم اللبناني الجديد .

كانت تلك اول حركة شعبية تقوم ضد الاستعمار الفرنسي منذ الثورة السورية في العشرينات . ولم يكن آنذاك في الجامعة الاميركية عملاء وجواسيس يعملون في صفوف الطلبة والاساتذة بوحي الادارة ورئيس الجامعة . فكان الطلبة والاساتذة يدا واحدة في مساندة الاضراب ومناهضة المستعمر. وكانت المظاهرات تقوم صباحا ، فتسير أفواج الطلبة من انحاء بيروت جميعها وتتجه الى المعرض والبرج ومركز سبيرز في شارع فينيقيا ، وتلتقي في طريقها بدوريات الشرطة اللبنانية التي كثيرا ما كان يقف أفرادها جانبا ولا يتعرضون الى المتظاهرين . وكنا نعود الى الجامعة بعد الظهر ، عندما تنتهي المظاهرات ، متعبين جائعين ، فنستريح ونستعد لمظاهرة اليوم التالي . وكانت ادارة وست هول تسهم في الترفيه عنا بعرض فيلم سينمائي كل مساء . ولم يكن لديها في ذلك الحين الا فيلم واحد هو «دماء ورمال» ، تمثيل ريتا هيوارث وتيرون باور . فكنا نشاهد هذا الفيلم مساء كل يوم ، طيلة مدة الاضراب ، حتى حفظنا كل مشهد فيه عن ظهر قلب .

كانت تلك الفترة مملوءة بالحماسة والوطنية . وكان اللبنانيون يعملون يدا واحدة ولمصلحة واحدة علت فوق جميع المصالح الفئوية والطائفية . أذكر صور المسلحين في بشامون ، حيث التجأ اعضاء الحكومة الذين لم يلق عليهم القبض ، وعلى رأسهم المير مجيد ارسلان في ملابس الصيد ، على كتفه بارودة صيد ومسدس مغروس في وسطه . أذكر ايضا الجريدة السرية

التي كانت توزع بلا مقابل في شوارع بيروت فتنقل الينا اخبار الانتصارات في كل مكان. كان طلبة الجامعة العرب - الفلسطيني والسوري والعراقي والسعودي - يشتركون في المظاهرات مع زملائهم اللبنانيين وكأن البلاد بلادهم والعدو الفرنسي عدوهم . لم يكن هناك بعد دول وسيادات تفرق بين العرب ، فكنا نشعر بالفعل ان لبنان وطننا واننا جميعا شعب واحد . ما أسعدها من ايام. من كان يحلم آنذاك انه بعد خمسة عشر عاما ، سنة ١٩٥٨ ، سيتحول لبنان مسرحا لحرب اهلية ، او انه في سنة ١٩٧٥ سيصبح مسرحا لمجازر لم ير مثلها القرن العشرين ...

عند انتهاء الاحداث وانسحاب القوات الفرنسية من بيروت قام رياض الصلح بزيارة الجامعة ، فاستقبلناه استقبال الفاتحين ، وحملناه على الاكتاف الى وست هول حيث القى خطابا قاطعنا كل جملة منه بالتصفيق والهتاف . كانت تلك بداية الاستقلال وبداية عهد جديد في حياتنا . وكان ذلك اول عهدي بالممارسة السياسية .

- ٣ -

كان الاستعمار بالنسبة الي شيئا حقيقيا محسوسا . كنت اكره الاستعمار كما كان يكرهه جميع رفقائي ، الا ان كراهيتي كان لها بالاضافة الى ذلك بعد مباشر ينبع من تجربتي الشخصية كفلسطيني .

في صيف ١٩٤١ كانت حكومة فرنسا الحرة قد استولت على لبنان بمساعدة الجيش البريطاني. وحدث في السنة التالية اني ارسلت رسالة الى عائلتي في يافا بوساطة احد سائقي السيارات التي كانت تنقل الركاب بين بيروت وحيفا ويافا . وفي رسالة لاحقة أرسلتها بالبريد سألت والدي اذا كان قد

استلم الرسالة التي ارسلتها مع السائق . ويظهر ان رسالتي وقعت في يد المراقبة فأحالتها الى دائرة الاستخبارات في الجيش الفرنسي . واستدعيت الى التحقيق ، الذي استمر عدة اسابيع . كنت أستدعي كل اسبوع تقريبا الى مكتب الامن العام في الصنائع ، حيث كان يجلس الى ثلاثة مكاتب قديمة ، ثلاثة رجال في لباسٍ مدني يحتسون القهوة ويدخنون .

كنت أنتظر حتى ينتهوا من قهوتهم وأحاديثهم فأجيب عن الاسئلة التي كانوا قد طرحوها عليّ في الاسبوع السابق والذي سبقه ، ثم أوقع الاوراق التي تقدم الي . واستمر التحقيق على هذا المنوال حوالي السنة ، وكنت في هذه الاثناء قد انتقلت من الاستعدادية الى صف الفرشمن . وعند بدء الدراسة وبعد ازمة تشرين الثاني والمظاهرات دعيت الى المثول امام المحكمة العسكرية . كان المكان الذي دعيت اليه في السراي ، في غرفة تقع الى يمين الدرج المواجه لكنيسة الكبوشية . وصلت قبل الموعد بنصف ساعة ، فجلست على الدرج أنتظر . ولما حان الوقت اشار الي الحاجب ان ادخل ، فدخلت غرفة طويلة مظلمة تقوم في طرف منها منصة يحيط بها حاجز خشبي له ثلاثة جوانب . وكان يجلس في الطرف الآخر من الغرفة ضابط فرنسي يطالع اوراقا امامه . ولدى دخولي قادني شاب لبناني يقوم بدور المترجم الى المنصة ، ووقف جانبا على بعد متساو بيني وبين الضابط الذي استمر بتفحص اوراقه دون ان يرفع راسه او يبدي اية اشارة بأنه يشعر بوجودي . فوقفت على المنصة واضعا ذراعي على الحاجز وساقا خلف ساق ، كما يفعل المرء عندما يقف في شرفة يراقب ما يجري في الشارع .

وفجأة سمعت الضابط يصرخ بالفرنسية :

ــ قف منتصبا ايها القذر (Salaud) . في اي مكان تظن انك الان ؟

وجفلت ، وانتصبت تلقائيا كما يفعل الجندي عندما يلقى اليه أمر . وكان قلبي يدق بسرعة ، وبلل العـــرق جبيني . شعرت برهبة ما لبثت ان تحولت الى شعور باحتقار الـــذات امام هذا الاجنبي . استغرقت الجلسة أقل من خمس دقائق ، اعلن الضابط في نهايتها براءتي من التهمة الموجهة الي (تهمـــة التجســس !) وانذرني بعدم ارسال رســائـــــل خارج لبنان الا بواسطة البريد الرسمي . وخرجت منكّس الرأس تكاد الدمعة تطفر من عيني خجلا مغضبا . لقد أهانني ذلك الفرنسي .

ولم أرد عليه بكلمة واحدة ! ما الفائدة من الثقافة والعلم اذا كان الفرد يحقَّر في وطنه ولا يستطيع الرد حتى ولـــو بكلمة !

وحدث لي اختبار مماثل في الصيف التالي في يافا . فقد ذهبت في اثناء عطلة الصيف الى مركـــز المخابرات (CID) للحصول على تصريح للعودة الى بيروت لمتابعة دراستي . وكان عليّ ان أقدم رسالة قبول تثبت اني طالب مسجل .

اخذت اوراقي الى المكتب المختص ، وكان يقع في شارع المستقيم المؤدي الى تل ابيب ، وانتظرت دوري في الصف .

ـ اسمك .

واعطيت الضابط البريطاني اسمي .

ـ لماذا تريد السفر الى لبنان ؟

ـ لمتابعة دراستي .

ـ اي دراسة هذه ؟

ـ سأنهي دراستي الثانوية هذه السنة .

ثم تناول الاوراق وتفحصها قليلا ثم قال :

ـ هذه الاوراق غير مكتملة .

فقلت بحدة :

ـ مش ممكن . لقد فعلت كل ما طلبته دائرة الجوازات .

فأجاب بصوت مرتفع وبلهجة آمرة :

ـ قلت لك ان هذه الاوراق غير مكتملة .

فحاولت ان أنبهه الى نص القانون لكنه لم يكترث بكلامي ونادى :

ـ Next .

ولم أدر ما أفعل . خطوت خارج الصف تتنازعني عواطف متباينة : الخوف والغضب والشعور بالمهانة . بعد انتظار حوالي الساعة ، عندما انتهى الضابط من اعطاء آخر تصريح ، قمت اليه ثانية ، هذه المرة بتأدب ورجوته بصوت الذي لا حيلة له ان يعيد النظر في طلبي . عرف انه أذلني ، فأخذ الاوراق وختم التأشيرة على جواز سفري دون ان ينبث ببنت شفة . ولم يسلمني الجواز بيده بل رماه في اتجاهي . شعرت انه لطمني . خرجت وأنا اكاد أنفجر من الحنق عليه وعلى نفسي وعلى العالم كله ، ولم أتكلم مع احد طيلة ذلك اليوم .

ووقعت لصديق لي حادثة مماثلة اخبرني عنها لدى عودتي الى عكا ، حيث كان يقيم جدي ، وحيث كنت امضي عطلة الصيف . كان صديقي كامل ارناؤوط يعمل في شركة تكرير البترول قرب حيفا . فدعا مرة عددا من زملائه الاميركيين في الشركة لزيارة الاماكن الاثرية في عكا . وبعد ان قاموا بزيارة البلدة القديمة ذهبوا الى القلعة التي كان يستعملها البريطانيون في ذلك الحين سجنا . وكان مدير السجن ضابطا بريطانيا متزوجا من امرأة يهودية معروفا بحقده على العرب وكان من عادته عندما يأتي الزوار الاجانب الى القلعة ان يريهم معالمها ويشرح لهم تاريخها بنفسه . واستقبل هذا الضابط الاميركيين اصدقاء كامل بكثير من الترحاب ثم سار معهم يروي لهم تاريخ القلعة ويشير الى معالمها الخاصة . وفيما هو يتكلم انتبه لوجود كامل بين الزوار . فتوقف عن الكلام وقد احمر وجهه غضبا

وقال بصوت سمعه كل من بالقاعة :
ــ أنا لست دليلا للمحليين (Natives) . الرجاء مغادرة القاعة والانتظار في الخارج .

وعندما أخبرني كامل هذه الحادثة غمرني الشعور نفسه بالكره والغضب والنقمة على الاجنبي الذي كان يحقرنا في ارض وطننا بسبب او دون سبب .

- ٤ -

كان الجو الفكري في الجامعة الاميركية هو المسيطر في الطبقات المتوسطة والعليا ، اي جو «المتعلمين» و«المثقفين» . فالجامعة قد اصبحت جزءا من هذا الجو ، تمثل ، في تكوينها، القوى المسيطرة فيه وتخدم مصالحه وقيمه .

هكذا ، ليس مستغربا اننا لم نتغير كثيرا على الصعيد الفكري . تعلمنا في دراستنا هناك كيف نربط الاسباب بمسبباتها ، واكتسبنا فكرة عامة عن «المنهج العلمي» ، الا ان هذا كله لم يكن يكفي لاحداث تغيير جذري في عقليتنا او في اسلوب تفكيرنا . ويرجعني هذا الموضوع لاول ممارسة «علمية» اختبرتها في دراستي الثانوية حين كان الاستاذ اسعد يقوم امامنا بالتجارب المختلفة لنرى بأنفسنا كيف يمكن تطبيق النظريات استنادا الى التجربة العلمية . فكان يأخذ الانابيب الزجاجية ويسكب فيها الماء الملون ثم يضعها فوق النار الى ان تغلي فيتغير لونها ثم يسكبها في انبوب آخر فيتغير لونها مرة اخرى . وكان احيانا يرتكب خطأ في احدى المراحل فيصل الى المرحلة الاخيرة متوقعا نتيجة معينة فلا تحصل ، بل يحدث شيء آخر لم يتوقعه ، كأن لا يتبدل لون السائل او ان ينفجر الانبوب ، فيضج الطلبة بالضحك . وكانت تلك أحب النتائج

لدينا . لكننا دائما نعود الى محاولات علمية اخرى فننتظر ان ينفجر انبوب او ان تحترق اداة كي نرفه عن انفسنا من الضجر الذي كان يسود دراستنا للعلم التجريبي .

وكان المنهج العلمي ، من حيث هو أسلوب في التحليل العملي ، سهل الاستيعاب وقد استوعبه بالفعل عبر السنين العديد من الذين درسوا الفيزياء والكيمياء والصيدلة والطب في الجامعة الاميركية . ولكن بالنسبة الينا ، نحن الذين تخصصنا في العلوم الانسانية والاجتماعية ، فقد كان **الفهم** ، بمعنى التركيبات النظرية وربط المفاهيم بالواقع التاريخي والاجتماعي، مشكلة في غاية الصعوبة . وقد عانيت نتائج هذه المشكلة مباشرة بعد التحاقي بجامعة شيكاغو ، حين اكتشفت اني غير قادر على تفهم ما كنت أتعرض اليه من افكار وصيغ في المحاضرات والمناقشات . ولم تكن اللغة هي السبب ، فلغتي الانكليزية كانت جيدة ، أتكلمها وأكتبها بطلاقة . ومما زاد في حيرتي في شيكاغو هو ان معظم المحاضرات والدروس التي اخترتها في الفصل الاول تناولت موضوعات كنت على اطلاع جيد عليها فقد درست معظمها في الجامعة الاميركية .

من ناحية اخرى كانت الحرية التي مارسناها في الجامعة الاميركية أقل بكثير مما كان يعتقد الناس . فقد خضعت حياتنا في الجامعة لسلطتين كان لا قدرة لنا على مغالبتهما : سلطة الادارة وسلطة الاستاذ . كانت سلطة الادارة بالنسبة الينا كسلطة الدولة بالنسبة الى المواطن ، شاملة متكاملة لا نعرف اين تبدأ واين تنتهي . اما سلطة الاستاذ فكانت كسلطة الاب بالنسبة الى ابنائه ، تفرض من فوق ، ولا تقبل المعارضة او النقض .

لا أذكر ان استاذا من اساتذتي في الجامعة اعترف مرة انه كان على خطأ او أقر بجهل او عبَّر عن شك فامتنع عن اتخاذ

موقف حاسم وآثر التروي ومراجعة الفكر . كان اساتذتي جميعا مصادر ثقة لا يعرف الشك مدخلا الى قلوبهم . كانوا يدخلون قاعة الدرس بثقة الضابط عندما يدخل الثكنة .. كانت تلك القاعة ثكنتهم .. هنا سلطتهم مطلقة وكلمتهم نهائية . وكانوا يعتقدون ان حسن سلوكنا قبول بسلطتهم واستسلام لها ، وان سكوتنا دلالة تقدير للمحاضرات التي كانوا يرتجلونها وهم يتمشون ذهابا وايابا واعينهم مثبتة الى سقف القاعة في تفكير عميق .

كان جميع اساتذتي ، بلا استثناء تقريبا ، يتبعون الاسلوب نفسه في محاضراتهم ، أسلوب الوصف والخطابة والوعظ . كانوا ينظرون الى الامور من وجهة نظرهم الخاصة ولا يجدون حرجا في تقديم افكارهم الذاتية وكأنها حقائق موضوعية ثابتة. وكانوا ، اذا طرحنا عليهم اسئلة تتضمن بعض النقد او الاحراج، يتخذون موقفا دفاعيا ، ويجيبون عن اسئلتنا بروح عدائية تدفعنا الى الصمت فالتراجع .

لا اذكر ان استاذا من اساتذتنا العرب كان يهدف في محاضراته الى مساعدتنا على الفهم والتفكير المستقل (ربما باستثناء شارل عيساوي) . كان شاغلهم الرئيسي ابراز انفسهم وتعزيز وجهة نظرهم او تسويغها . وكانوا يعتبرون اي اختلاف مع وجهة نظرهم اهانة شخصية لهم ، فتعلمنا ان لا نخالفهم بالراي وأن نقبل ما يقولونه برضوخ .

هكذا كان الهدف الاساسي لعملية تثقيفنا في الجامعة ، كما كان في العائلة والمدرسة ، يقوم على تطويعنا واخضاعنا نفسيا. فلا عجب اذا بقيت مقدرتنا النقدية والتحليلية ، ضعيفة (كما اكتشفت في شيكاغو) بينما تعززت في نفوسنا نزعة الخضوع لآراء من هم أفهم منا ، الاساتذة والدكاترة الذين كنا نحلم بالانضمام الى صفوفهم يوما ما .

كانت حصيلة دراستنا الجامعية ان خضعنا لسلطة الكلمة المطبوعة كما خضعنا لسلطة الكلمة المسموعة . فأصبحنا مشلولي الفكر تجاه ما نقرأ ، وبخاصة اذا كان مصدره اجنبيا ، وتعودنا في القراءة ان لا نتوقف عند المعنى والمضمون بل ان نركز على الوقع والصورة ، فكانت العاطفة ، لا العقل ، هي المحرك الاقوى لما كنا نستوعبه ونستسيغه. وتعودنا القراءة السطحية السريعة. وكان الشعر هو القراءة المفضلة لدى الكثيرين منا .

- ٥ -

في خريف ١٩٧٠ دعيت لتمضية سنة دراسية استاذا زائرا في الجامعة الاميركية . وفي مطلع تلك السنة عقدت ندوة في فندق «البستان» ببيت مري برعاية «فورد فاونديشن» شاركت فيها مع عدد من اساتذة الجامعة ، بينهم الدكتور شارل مالك والدكتور قسطنطين زريق وصديقي ابراهيم ابراهيم ورئيس الجامعة آنذاك الدكتور صموئيل كيركوود . واذكر هذه الندوة الان لانها اعادت الى ذهني الجو الفكري الذي ساد الجامعة في ايام دراستي ، وخاصة بالنسبة الى الدكتور شارل مالك .

لعب الدكتور مالك في هذه الندوة الدور نفسه الذي كان يلعبه في ايام دراستنا دون زيادة او نقصان . بعد افتتاح الندوة ـ وكنا جلوسا حول مائدة كبيرة مستديرة ـ القى الدكتور مالك محاضرة طويلة ، باللهجة نفسها ، وبالطريقة ذاتها اللتين كان يلقي بهما علينا محاضراته في قاعة الدراسة . وانتقلنا بعد المحاضرة الى النقاش والاسئلة . فكان السائل ما ان يبدأ كلامه حتى يقاطعه مالك بجواب طويل ، «فيسكته» ويردعه عن الكلام .

ولم ألذ انا بالصمت كما كنت أفعل ايام التلمذة . فوقفت وقلت له ان الاطار الذي افترضه في محاضرته ينقصه الوضوح،

واشرت الى العوامل التاريخية والاجتماعية التي يتوجب اخذها بعين الاعتبار . وفي مجرى التعليق استعملت تعبير «المرحلة اللاحقة بالمسيحية» (Post Christian era) وقصدت به المرحلة الصناعية في اوروبا التي زالت خلالها سيطرة الكنيسة على المجتمع الاوروبي وأصبحت الايديولوجية المسيطرة فيه ايديولوجية علمانية لا دينية .

ورد مالك على تعليقي بحنق وقال : «ان ما قلته لا يستحق التعليق ، وان هذا التعبير هو تعبير صحفي سخيف استخرجته من مجلة «تايم» او «مجلة مماثلة» .

وتذكرت وأنا أستمع اليه انواع الفطرسة وأساليب التهكم الفكري التي اخضعنا اليها خلال دراستنا في الجامعة . انه لم يعد يخيفني الآن ، بل يثير في نفسي الملل . اقواله وأفكاره دفاعية خالصة هدفها فرض نفسه على مستمعيه . ووردت في خاطري كلمات ميرلوبونتي عن الذين يتكلمون «باسم الحق والقيم العليا» : «تكمن في الشخص الذي ينادي دائما بالقيم العليا والاخلاق السامية وداخلية الانسان نزعة خفية للعنف والحقد والتعصب» .

ولن انسى حادثة ، صغيرة بحد ذاتها لكنها في غاية الاهمية بمدلولها ، في تلك السنة . كان مكتبي في بلس هول مواجها لمكتبه ، فجاء مرة وقال لي انه يود ان يحدثني بأمر مهم . فذهبت الى مكتبه وأغلق الباب خلفي وأجلسني في مقعد مقابل لمقعده وقال :

— سمعت ان مجلة «الصياد» تقول انك ماركسي ، صحيح هذا الكلام ؟

ثم قال :

— انا يهمني امرك . يجب ان نتكلم في الموضوع بصراحة . الماركسية شيء غير معقول . وانا لا أصدق انك يمكن ان تسير في

هذا الطريق .

وحتى ذلك الحين ، ولسنوات طويلة ، كنت اقنع نفسي بأنه من الممكن المحافظة على صداقاتي القديمة رغم اني تباينت عنهم فكريا ، وكنت أمتدح نفسي لان معظم اصدقاء الجامعة ما زالوا اصدقائي وان الزمن وتجارب الحياة لم يقضيا على الاواصر التي جمعتنا . لكني في تلك اللحظة ادركت ان الصداقات تذوي وتموت ولكننا نرفض الاعتراف بذلك ونتظاهر بأنها حية فنحملها في أضلعنا جثثا لا حياة فيها .

ولم يزعجني تساؤله بقدر ما آلمني الاحتقار الذي انطوى عليه باثارة الموضوع بهذا الشكل الابوي المتعالي . كنت أعتقد ان علاقتنا تقوم على المساواة والاحترام المتبادل ، فتكشف لي ان العلاقة كانت وحيدة الجانب ، تقوم من جانبه على الاخضاع والسيطرة ، ويتوقع ان تقوم من جانبي على التسليم والتبعية .

ولم يخطر ببالي يوما ان اسأله عن سبب نزعة تفكيره الغيبية او ان اقول له : «ان ايديولوجيتك رجعية والافضل لك ان تتخلى عنها» .

منذ ذلك الحين انقطع الرباط الذي جمعني بشارل مالك ، ولم يعد بالامكان تسويغ علاقتي به .

- ٦ -

كان التدريس في الجامعة باللغة الانكليزية . وكان بعض اساتذتنا يتكلم الانكليزية بطلاقة (كشارل عيساوي) وبعضهم الآخر يتكلمها بشيء من الصعوبة . وكان معظمهم ، كما ذكرت ، يأتي الى قاعة الدراسة دون تحضير ، ويلقي علينا ما تيسر من افكاره وآرائه في موضوع درس اليوم بشكل ارتجالي .

وكان أسلوب الدكتور مالك في التدريس يتميز عن أسلوب غيره في بعض النواحي . فكان من عادته ان يفتتح الدرس بالطلب

الى احد الطلاب ان يقرأ مقطعا معينا من النص المقرر لذلك اليوم . وما ان يقرأ الطالب بضعة أسطر حتى يقاطعه الدكتور مالك ويسأله تفسير ما قرأ ، وعندما يفشل في الاجابة يسأل طالبا آخر ثم ثالثا ورابعا الى ان يشعر أفراد الصف جميعا انهم لا يعرفون الجواب ، ويقتنعون بجهلهم المطبق . وعندئذ يأخذ الدكتور مالك في الاجابة عن السؤال ، الذي لا يعرف الاجابة عليه الا هو . ثم ينتقل بعد ذلك الى موضوع آخر ومنه الى موضوع آخر على النمط ذاته . وكانت محاضراته ، رغم ارتجالها ، ممتعة بالفعل ، وكان يحضرها عدد كبير من الطلبة والزائرين . وكان الطلبة يهابون الدكتور مالك لعمق افكاره وصعوبة فهمها ، الامر الذي عزز سمعته الفكرية على مر السنين .

- ٧ -

عند التحاقي في جامعة شيكاغو اكتشفت ان هناك تعابير في اللغة الانكليزية كنت اعرف معناها لكني لم أستعملها الا نادرا ، مثل Probably (على الارجح) Somewhat (نوعا ما) to some extent (الى حد ما) الخ . وهذه التعابير تستعمل للتخفيف من حدة الجزم ، فتسبغ على الكلام اتزانا واعتدالا . غير ان اساتذتنا لم يستعملوا هذه التعابير في محاضراتهم الا نادرا . وبالواقع لم أنتبه الى هذا الامر الا بعد مرور عدة اسابيع بعد التحاقي بجامعة شيكاغو . لاحظت ان اساتذتي وزملائي كانوا لا يتكلمون دون استعمال هذه التعابير . لفت نظري مثلا اني كلما شاركت في حوار وجدتني أتكلم بالمطلقات وبتعابير قاطعة نهائية . وسرعان ما تبين لي ان السبب في ذلك لم يكن اللغة وحسب ، بل يرتبط بالفكر وأسلوب التعبير . كانت الفكرة

في ذهني اما ان تكون صحيحة او تكون خاطئــــة ، فاذا كانت صحيحة شعرت انه كان عليّ ان أدافع عنها دفاعا كليا . ربما لاننا كنا نعتقد ، مثل اساتذتنا وآبائنا ، اننا دائما على صواب وان الآخرين دائما على خطأ ، فقد كان موقفي في اغلب الاحيان دفاعيا يرفض كل انواع النقد . ولاحظت بعد مدة ان زملائــي الاميركيين بدأوا يستغربون تصرفي هذا وخصوصا تمسكــــي الشديد بوجهة نظري ، فتوقفوا عن الدخول في مناقشات معي.

كنت فـــي النقاش كمـــن يلعب لعبة « الصفـــــر » (Zero - Sum Game) التي لا تنتهي الا بربح كلي للطـــرف الواحد وخسارة كلية للطرف الثاني ، اي بغالب ومغلوب .

ولا انسى مرة كنت أتحدث فيها الى استاذي تشارلـــــز موريس في ظل شجرة في باحة الجامعة حول محاضرته صباح ذلك اليوم . وقلت له :

— ومهما يكن من أمر فان الحقيقة لا يمكن الا ان تفـــرض نفسها .

وصمت موريس برهة ، ثم قال بهدوء :

— لنضع الحقيقة جانبا ، فالحقيقة ليست موضع بحثنــا الآن (١) .

صعقني قوله . كانت «الحقيقة» بالنسبة الي شيئا مقدسا وموضوع كل بحث . ولم أفهم ما عناه موريس بقولـــه هذا الا بعد مضي وقت طويل . ظهرت لي «الحقيقـــة» على حقيقتها ، مقولة فكرية بين المقولات الفكرية الاخرى . منذ ذلـــك الحين بدأت بالتخلص من عبودية «الحقيقة» الغيبية التي زرعتها في نفسي دراستي في الجامعة الاميركية في بيروت ، وأخذت ارى

---

1 — Forget about the truth. It is not our problem now.

الامور في ضوء جديد يختلف كل الاختلاف عما تعودت عليه حتى ذلك الحين .

غير ان العملية استغرقت وقتا طويلا قبل ان تكتمل .

كان اساتذتنا في الجامعة الاميركية لا يهتمون بالتأليف والبحث العلمي فلا أذكر ان احدهم ألّف كتابا واحدا ذا قيمة . كان ينعكس كسلهم الفكري هذا فيأسلوب معالجتهم للموضوعات التي كنا نكتب فيها ونقدمها اليهم في مواد دروسنا المختلفة . وأستطيع القول بصدق انه خلال سنواتي الجامعية في الجامعة لم يرشدني احد من اساتذتي حول أسلوب البحث الصحيح ولم أتلق مرة نقدا او تحليلا في اي بحث قدمته . وتخرجت من الجامعة وانا اكاد لا اعرف معنى المنهجية او البحث بمعناه الصحيح . كانت المصادر والمراجع بالنسبة الي كلها على مستوى واحد ، لا اعرف كيف أفرق بينها او كيف أقيّمها . كان اساتذتنا ، في كثير من الاحيان ، لا يقرأون ابحاثنا ويعيدونها لنا بلا ملاحظة واحدة عليها .

كان تقاعسهم هذا يؤدي الى تعزيز كسلنا ويسوغه ، ومن جهة اخرى ، يقوي فينا الطابع الانشائي الادبي ، وكراهية الارقام والاحصاءات ، فنشأ عندنا الشعور بأن العامل الكمي في البحث هو عامل ثانوي ، وان الفكر الصحيح انما هو الفكر المدعوم بقوة الحس وحسن اللغة لا بقوة النقد والتحليل . لا عجب اذا انتهى بنا الامر الى احتقار طريقة البحث السائدة في العلوم الاجتماعية والقائمة على الاحصاءات والتقويم الكمي . لقد أبعدنا هذا الاتجاه عن الاخذ بالمصطلحات العلمية الدقيقة ، واكتشفت جهلي بعد اسابيع قليلة في جامعة شيكاغو ، فوجدت اني لا أفهم معنى مصطلحات اساسية concept او hypothesis او theory او critique ، واني لا استطيع استعمالها استعمالا صحيحا في الكلام والكتابة . وحتى بعد

مرور عدة سنوات عندما اصبحت استاذا لتاريخ الفكر الاوروبي في جامعة جورجتاون ، وجدت ان الطلبة العرب (ومنهم الكثيرون من خريجي الجامعة الاميركية) يعانون المشكل نفسه . فكنت اسأل الطالب العربي ان يحدد لي معنى بعض المصطلحات الاساسية ، كالتي اوردتها اعلاه . كان معنى concept ، مثلا، بالنسبة اليه (كما كان بالنسبة الي) مجرد «فكرة» وحسب (كما ترد في قاموس المورد) لا فرق بينها وبين idea او notion او thought مرادفات لتعبير واحد . وكان من الصعب عليه (كما كان من الصعب علي) فهم الفارق بين hypothesis (افتراض) و theory (نظرية) وفهم العلاقة بينهما . وكان التعبير critique يعني له شيئا واحد فقط وهو النقد او الانتقاد (كما كان يعني لي) . هذه كانت حالتي الذهنية عند التحاقي بجامعة شيكاغو بعد تخرجي بشهادة بكلوريوس علوم في الفلسفة من جامعة بيروت الاميركية .

لا شك انه كان لشخصية اساتذتي وأسلوبهم اثر كبير في تطور نمط تفكيري وفي العادات الذهنية التي اكتسبتها في ذلك الحين والتي لازمتني زمنا طويلا . كان الاستاذ اذا تهكم على فكرة أو استصغر مفكرا قضى على الفكرة وعلى الكاتب بنظر الطلبة . كان التهكم هو السلاح الفكري الاشد فتكا في يد اساتذتنا ، وكانوا لا يتورعون عن استعماله في جميع المناسبات . وما أسهل ان يحطم الاستاذ في قاعة الدراسة كل ما يتعارض مع اعتقاداته وميوله . لقد مارس جميع اساتذتي في الجامعة أسلوب التهكم والهزء في جميع المواد التي درستها . منهم من مارسها مباشرة وبشكل واضح ، ومنهم من مارسها بلباقة وبشكل غير مباشر . لكني لا أحقد على احد منهم . فقد وجدت نفسي أمارس الاسلوب نفسه بعد ان اصبحت استاذا . وأعرف الان ان الدافع وراء هذه الممارسة ، انما هو في الغالب دافع لاشعوري ، مصدره

الرئيسي الخَوف وعدم الثقة بالنفس .

- ٨ -

في تلك الايام كان كل منا يعتقد انه «فلتة» يمتاز عن بقية الناس بذكائه وفطنته . كنا على احر من الجمر لان ننهي دراستنا ونبدأ حياة غنية حافلة بالمغامرات والاعمال الكبيرة. ولم أكتشف خطأي وأدرك بأني لست «فلتة» الا بعد مرور أعوام طويلة من الجهل والغرور .

الان بعد ان اضعت سنوات ثمينة من حياتي بت أدرك ــ ودون ما حسرة ــ اني لست عبقريا ولا «فلتة» بل انسان كسائر الناس ، لا أختلف عن زملائي ذكاء او فطنة . واني لقانع ان اكون هكذا ، قادرا فقط على تسيير حياتي بنفسي والتغلب على القسر والتشويه اللذين تعرضت اليهما في صغري . واذا كنت لا ألوم احدا لفقدان العبقرية التي اعتقدت انني أمتلكتها يوما فانني لا أتمالك احيانا عن التساؤل : لو ان اساتذتي ومن أسهم في تثقيفي كانوا أقل سطوة في معاملتهم لي وأقل خوفا على مراكزهم ومصادر عيشهم ومكانتهم الاجتماعية ، فهل كانت حياتي وشخصيتي تكونان على ما هما عليه الان ؟

قد أغفر للذين أدين لهم «بثقافتي» جهلهم وغباءهم ، لكني لن اغفر لهم غطرستهم ، والقساوة المعنوية التي مارسوها في تثقيفي .

- ٩ -

كانت النزعة الطاغية في حياتي ، في اثناء دراستي الجامعية ، هي نزعة «التفلسف» . لم يكن بامكاني آنذاك التفرقة

بين الفلسفة والتفلسف، وكنا في دائرة الفلسفة، اساتذة وطلبة، جميعا متفلسفين. وكنت بطبيعتي اميل الى «فلسفة» الاشياء، اي ان اراها من خلال حجب كثيفة من التأمل والتفكير، وليس بشكل مباشر وعفوي. ولعل هذا هو السبب في ان الحياة كانت تبدو لي غامضة مشوشة لا أقدر على تلمسها او تذويقها ببساطة ومرح، كما كان يفعل معظم زملائي. فكان كل يوم يمر في حياتي معقدا مليئا بالأحاجي والاحداث المؤلمة نفسيا. ولا شك ان نوعية الفكر الذي تعرضت اليه في الجامعة الاميركية عزز اغترابي عن نفسي وزاد من ابتعادي عن واقع الحياة الذي كنت أتوق لتفهمه وامتلاكه.

قال سقراط: ان رأس المعرفة هي معرفة الذات. وهذا بالضبط ما كنا نحن طلبة الفلسفة نظن اننا قطعنا شوطا بعيدا في تحقيقه. ولم يخطر ببالنا ان ما كنا نعتقده معرفة الذات انما كان مجرد اوهام وتخيلات لا صلة بينه وبين الواقع.

كنا نرى هذا الواقع ونعبر عنه بتجريدات مثالية نستمدها من ديكارت وهيجل وكيركيجارد وغيرهم من الفلاسفة. مكنتنا ثنائية ديكارت، مثلا، من وضع العقل فوق الجسد، ومثالية هيجل من اسباغ قيمة نهائية على العقل، وذاتية كيركيجارد من ارساء الحقيقة في «داخلية» الوجود الفردي. (امس قرات في كتاب لنورمان براون، «الحياة والموت»، الجملة التالية، التي لو كنت قرأتها في ذلك الحين لاستسخفتها ورميتها جانبا: «ان ما يعرفه الطفل عن وعي كامل يعرفه الراشد باطنيا باللاشعور، الا وهو اننا لسنا الا أجسادا» (١).

---

1 — «What the child knows consciously, the adult unconsciously, is that we are nothing but body» .

في الاطار الديني المثالي الذي اخذ به مالك واساتذتنا الآخرون ، لم يكن هناك متسع لنمط آخر من التفكير . وطوال دراستي في الجامعة الاميركية لم أسمع اسم كارل ماركس يذكر مرة واحدة كما اني لم أقرأ كلمة واحدة لفرويد . طبعا لو اننا قرأنا ماركس ، لكان في ذلك نقض كامل لكل ما كنا نتعلمه ونقول به : بأن الانسان ليس مجرد روح او عقل او ذات باطنية ، بل هو كائن اجتماعي يحدده واقع مادي معين وتاريخ محسوس معين . ولو قرأنا فرويد لاكتشفنا بأن ما يدفع الانسان ويسيره في سلوكه وتفكيره ليست القيم والمثل العليا ، التي كان يتحدث عنها اساتذتنا ويبشرون بها ، بل قوى ودوافع داخلية تنزرع في اعمال النفس وتستخدم العقل الواعي وسيلة من وسائلها .

وكنت في تلك الفترة اعاني ما كان يعانيه كل شاب في مطلع شبابه : نهما الى المعرفة يرافقه توق للبروز ، وعطش للتفوق . وكان اختياري الفلسفة موضوعا لدراستي نتيجة رغبتي الملحة في ان أتخلص من حالة القلق النفسي والضياع الفكري التي كنت فيها . وفي مذكراتي ، التي اخذت بكتابتها في تلك الفترة، بتاريخ ١٥ تشرين ثاني ١٩٤٤ ، ترد هذه العبارة : «أحاول تحقيق امرين : ان أتفهم نفسي الداخلية من خلال علم النفس وأن أستعمل عقلي بشكل منظم» .

استغرب هذا القول .. فلا أذكر اني اهتممت بدراسة علم النفس في تلك الفترة ، ولا أذكر اني قرأت كتابا واحدا في الموضوع ، ويا ليتني فعلت ! كنت أعتقد ان أنجع وسيلة للتوصل الى الوضوح الذهني ومعرفة الامور على حقيقتها هو في دراسة علم المنطق لا علم النفس . وكان اول كتاب قرأته في المنطق لجاك ماريتان ، وقد استنزفت قراءته الكثير من وقتي وجهدي ، وثابرت على قراءته بالرغم من الملل والنعاس اللذين كانا يهاجماني عند قراءته . ومع هذا كله ، لم أفد منه شيئا . ثم وقعت بعد ذلك على كتاب لجون ديوي بعنوان «طلب

اليقين» (١) . واعجبني العنوان ، فقد كان هذا مطلبي بالذات ! ولكني وجدته مملاً ايضا ، الا انه لم يكن في صعوبة كتاب ماريتان . والذي نفّرني من ديوي ، هو أسلوبه الذرائعي المتشدد ، فوضعته جانبا قبل ان آتي الى نهايته .

ونشأ في نفسي نفور من الكتب التي كانت تفرض علينا قراءتها كجزء من المتطلبات الدراسية . هناك عدد من هذه الكتب لم استطع العودة اليها الا بعد مرور سنوات عديدة ، منها مسرحية شكسبير الشهيرة «ماكبث» و«الامير» لمكيافلي و«جمهورية افلاطون» .

- ١٠ -

كان أحب الاشياء عند اساتذتنا ان نرفع ايدينا لنطرح عليهم سؤال حول الموضوعات التي كانوا يتكلمون فيها . كنا نرضخ لافكارهم ونكبت افكارنا المضادة لافكارهم ونتباهى امام زملائنا بترديد اسماء الفلاسفة الذين يذكرونها في قاعة الدراسة . كنا نتحدث عن هؤلاء الفلاسفة ومؤلفاتهم دون ان نكون قد اطلعنا عليها . في سنتي الجونيور والسينيور كان الفيلسوفان المفضلان لدينا هما كيركيجارد وبردياييف . عندما تخرجنا اعتبرنا انفسنا «وجوديين» من أتباع المدرسة الكيركيجاردية (الدينية المثالية) .

- ١١ -

في سنة ١٩٤٥ غادرنا الدكتور مالك ليصبح وزير لبنان

---

1 — The Quest for Certainty .

المفوض في واشنطن . وأقمنا له قبل مغادرته حفلة وداع في وست هول خطب فيها عدد من الطلبة والاساتذة وقال جميعهم ما معناه : «انك افلاطون ذاهب الى اميركا لتحقيق فلسفتك . فيا لخسارتنا ، وهنيئا لاميركا» . ولم يخطر ببالنا آنذاك ان ما سيفعله مالك في الولايات المتحدة هو التخصص في مهاجمة الشيوعية ومدح المسيحية ودعم الحرب الباردة ليعود الى لبنان ويصبح ايديولوجي اليمين المسيحي المتعصب .

في السنتين الاخيرتين ، سنتي الجونيور والسينيور ، لا أذكر اننا قرأنا فيلسوفا واحدا قراءة كاملة ، فكنا نستمع الى المحاضرات عن ارسطو او ديكارت او لوك ثم نتصفح كتاب «الاخلاق» او كتاب «السياسة» أو «التأملات» أو «رسالتان في سياسة الدولة» ، وندون بعض الملاحظات وانتهى الامر . (وبالمقارنة اخذت في اول فصل في جامعة شيكاغو درسين قراءة (reading course) في دائرة الفلسفة تناول احدهما كتاب «السياسة» لارسطو والآخر كتاب «لفيثان» لهوبز ، وعرفت عند ذلك ولاول مرة كيف يقرأ النص الفلسفي) .

وبالفعل، كنا نجد صعوبة كبيرة في الجلوس منفردين لقراءة ما كان يتوجب علينا قراءته . في كل حال ، لم يكن هناك ما يدفعنا الى القراءة ، فالجو داخل قاعة الدرس كان مملا ، وفي الخارج كان الاغراء الاكبر هو الجلوس في مطعم فيصل او الميلك بار ، وتبادل الحديث . فلم نتعلم القراءة الجدية ، الا قراءة ما كان كل منا يرغب في قراءته على حدة . ومعظم الذين تخرجوا من الجامعة لا يقرؤون ولا يحسنون القراءة .

ومع ذلك كنا نحب الكتب حبا جما ، وكنا نتأبطها أينما ذهبنا ، كما كنا نشتريها بأسعار باهظة . كان لكل منا مكتبته الخاصة التي كانت بمثابة التعبير المادي عن مركزنا كمثقفين . فكلما كثر عدد الكتب في حوزة احدنا ازدادت ، بنظره وبنظرنا، قيمته كمفكر .

وقد اصبح لدي في نهاية دراستي في الجامعة مكتبة تضم مئات الكتب اقتنيتها كتابا كتابا ودفعت ثمن كل منها بحرمان نفسي من ملذات عديدة . وضمت مكتبتي معظم المؤلفات الكلاسيكية من هوميروس الى نيتشه ، ومعظمها كان طبعة افريمان البريطانية وراندوم هاوس الاميركية . وكان اقتناء الكتب بالنسبة الينا اهم من قراءتها ، يشكل هدفا بحد ذاته . وكنت دائما أعد نفسي بقراءة الكتب التي كنت أقتنيها عندما تأتي العطلة الصيفية . ومن الكتب القليلة التي قراتها فعلا ، وتركت في نفسي اثرا بالغا مؤلفات نيتشه المجموعة في مجلد واحد والتي تحتوي على «هكذا تكلم زرادشت» و«هوذا الانسان» و«ما بعد الخير والشر» و«روح الموسيقى» . وقد تركت افكار نيتشه واسلوبه الفلسفي اثرا لا يمحى في نفسي . وقرات ايضا روايتين لدوستويوفسكي «الجريمة والعقاب» و«الاخوة كارامازوف» . وبعد ذلك قرات رواية هرمن ملفل الشهيرة «موبي ديك» ، وقصة «كانديد» لفولتير . ومن بين محاولاتي الفاشلة كانت قراءة «الفردوس المفقود» و«الانياذة» ، ولكني نجحت الى حد ما في تذوق «فاوست» (الجزء الاول) و«الاحاديث مع اكرمن» .

كانت هذه القراءات وغيرها ، على الصعيد الثقافي العالي ، اما على الصعيد الترفيهي فقد تناولت قراءاتي المؤلفين المعاصرين مثل سومرست موم والدوس هاكسلي وارنست هيمنجواي وافلين واو وجراهام جرين . (ومن الغريب اني بعد صف الفرشمن انقطعت كليا عن قراءة الكتب العربية) . ومن الكتب التي قرأتها في تلك الحقبة كتاب سومرست موم «الرباط الانساني» و«القمر وستة بنسات» ★ ، اللذان قرأتهما لاول مرة

★ Of Human Bondage. The Moon and Six Pence.

في اثناء مرضي ، في سنة الفرشمن ، بلذة ما زلت أستعيدها حتى اليوم .

وقرأت لهكسلي كتابه الشهير «العالم الجديد» فلم يعجبني كثيرا ، ثم قرأت روايته العظيمة Point Counter Point التي كان من جرائها اني قرأت له بعد ذلك جميع مؤلفاته بلا استثناء . وفعلت الشيء ذاته بالنسبة الى مؤلفات هيمنجواي وواو وجرين .

وبعد وفاة هيمنجواي وهكسلي وواو في الستينات توقفت عن قراءتهم كليا . فقد احسست ان ذلك الجزء من حياتي الذي ارتبط بهم من خلال كتاباتهم قد انتهى ، وانطوت معه المشاعر التي كنت أحس بها نحوهم ، وآثرت النسيان ، كما يحدث عندما يموت صديق عزيز .

كنا نشكل نحن طلبة الفلسفة ــ بنظرنا على الاقل ــ النخبة المتميزة في الجامعة . فقد كنا نحن العاملين في حقل الفكر والفلسفة بينما انغمس زملاؤنا في انهماكات مادية تافهة مثل الاقتصاد والهندسة والكيمياء ! وكنا نتصنع الجدية عن غير قصد ، فنرفع اصواتنا في نقاشاتنا الفلسفية في الميلك بار ، ونسر عندما يجتمع الطلبة حول طاولتنا ليستمعوا الى نقاشنا ويحاولون مشاركتنا فنتجاهلهم باحتقار. كنا لا نتعاطى الرياضة البدنية عن قصد ، لنبرز انشغالنا بأمور الروح . وكنا لا نحضر مباريات كرة القدم ، التي كان يشترك فيها فريق الجامعة ويحضرها كل طلبة الجامعة ، الا نادرا . ولكننا كنا نرتاد المقاهي والسينما ونقوم بمشاوير طويلة نتبادل خلالها الاحاديث الفلسفية . وفي حين كان زملاؤنا يتعلمون شرب الخمرة ولعب البوكر والسهر في الكينت كات والليدو ، وتعاطي الجنس في البيوت السرية ، كنا نكتفي بمتابعة احاديثنا الفلسفية والادبية . وكان زملاؤنا كلما جلسوا الينا يثيرون عن تعمد موضوعات

الجنس ويسردون القصص البذيئة ، فتتحول جلساتنا الى مماحكات كلامية تنتهي عادة بانسحاب النخبة المفكرة ، بتأفف وغضب ..

- ١٢ -

تراس دائرة الفلسفة بعد ذهاب الدكتور مالك كنث كراك وكان ، الى جانب كونه استاذ فلسفة ، قسيسا انجليكيا . وكان كراك رجلا وادعا ، قليل الكلام ، الا في قاعة الدرس ، حيث كان لا ينقطع عنه طوال الدرس فلا يعطي المجال لاحد لكي يتفوه بكلمة . وكان يحضر الى الصف بنظارتيه السميكتين وملابسه القديمة ويجلس الى الطاولة ويفتح دفترا ضخما ذا غلاف أسود ويأخذ بالقراءة بصوت منسجم حتى نهاية الساعة . وكان ينظم محاضراته ويعدها بدقة ـ بعكس الاساتذة الآخرين ـ وكان عددنا في صفه لا يتجاوز الاربعة ـ انا وفؤاد نجار ولبيب زويا وزاهدة الباشا ، فيلقي محاضراته علينا كأنه يلقيها في جمع زاخر .

وذهبت ذات يوم انا وفؤاد للتحدث اليه «بعمق» حول موضوعات كنا نعتبرها رئيسية في حياتنا . فقلنا له اننا نريد الخروج من حالة الحيرة والتخبط التي نعانيها والتوصل الى اليقين (اليقين الديني) . وطلبنا اليه بحرارة ان يقودنا في «طريق الايمان» . وكان «الايمان» النمط السائد في دائرة الفلسفة منذ ايام الدكتور مالك . (وكان من الضروري ان يشعر طالب الفلسفة بالحاجة الى الايمان ، واكتشفت فيما بعد بأنه كان ايضا من الضروري ان يختبر الحب ، فيجمع بين ما مر به بردياييف من اختبار ديني وما عاناه كيركيجارد من تجربة غرامية في علاقته مع رجينا اولسن) . وارتبك كراك وتلعثم (كان فؤاد درزيا وكنت انا مسلما سنيا) ، وقال ان الامر صعب ومعقد

وتقريره يعود الينا وانه لا يستطيع مساعدتنا . فخرجنا من عنده وكأن ماء باردا قد صب علينا ، يتجاذبنا الخجل والارتباك.

واعددت دراسة للاستاذ كراك في موضوع «نظريةالجمال». وأذكر الجملة التي افتتحت بها دراستي : «ان الحقيقة في ماهيتها مطلقة ، فليس في ذلك ادنى شك» (١) . وكتب كراك ملاحظته بالقلم الاحمر : «هذا خطأ ، الحقيقة ليست مطلقة او كلية ، فهناك وجهات نظر مختلفة في ماهيتها» . ومنذ ذلك الحين بدأت أعيد النظر بالحقيقة «المطلقة» دون ان اتخلى عن السعي وراءها ، مما ادى الى ابتعادي رويدا رويدا عن الجو اللاهوتي الذي كان مسيطرا على دائرة الفلسفة .

وكنت اكثر من فؤاد ـ واقل قدرة من لبيب ـ على تحمل الضجر الذي كان يسيطر علينا في صف الفلسفة . وفي حين تمكنت انا من تحقيق الحد الادنى من المتطلبات الدراسية عجز فؤاد عن ذلك كليا ، فتوقف عن الاعداد للامتحانات وامتنع عن حضور المحاضرات ، واذا حضر جلس صامتا ينظر الى المحاضر وقد علت شفتيه شبه ابتسامة ، فيظن الاستاذ انه يتابع كلامه باهتمام . اما لبيب فكان يخط كل كلمة يقولها الاستاذ ويعيد كتابتها في الامتحان .

وفي امتحانات آخر السنة النهائية لم يستطع فؤاد الاجابة عن الاسئلة ، وجلس ينظر الى دفتر الامتحان دون ان يستطيع كتابة كلمة واحدة فيه . ثم قام وسلم دفتره فارغا . وتخرج فؤاد معنا ، ولكنه لم يسمح له بتكملة دراسته الى ما بعد البكلوريوس . وسافر الى السعودية بعد سفري الى اميركا بأشهر قليلة ، وبعد بضع سنوات تزوج وأصبح عنده ثلاثة

---

1 — That truth is absolute needs no argument .

اولاد احبهم كثيرا . وكان سعيدا جدا في زواجه ، ثم مات في حادث طائرة في الظهران سنة ١٩٦٤ ، ففقدت أعز صديق عرفته في حياتي .

- ١٣ -

كان يشاركني في غرفتي في بلس هول شاب لبناني اسمه جوزيف سلامه ، وكان أحمر الشعر ، مما جعله يبدو غريبا في نظري ، فلم نتبادل الحديث الا نادرا . وعند منتصف السنة ترك جوزيف الجامعة لسقوطه في بعض المواد ولم أره حتى السنة الدراسية التالية . وخلال السنوات التي تلت رأيته بضع مرات ، وفي آخر السنة الرابعة التي تخرجنا فيها قويت علاقتنا وأصبحنا صديقين .

وقد لعب جوزيف دورا مهما في حياتي ، فترة من الزمن ، خاصة بعد ان التحق بجامعة شيكاغو بعد مقتل انطون سعادة وأقمنا سويا في شقة قريبة من الجامعة هناك . وفي شيكاغو لم ينه جوزيف دراسته فقد تزوج من فتاة اميركية ثم انتقل معها الى نيويورك .

بقيت انا في شيكاغو حتى انهيت دراستي للدكتوراه في صيف ١٩٥١ ، ولم يتبق عليّ الا كتابة الاطروحة ، فانتقلت الى نيويورك وأقمت مع اسامة قدري ، صديقي وصديق فؤاد من أيام الاستعدادية ، وكان قد عين قنصلا للعراق في الولايات المتحدة ، وابتدأت في كتابة أطروحتي والعمل في الوقت ذاته، في الامم المتحدة . وبقيت في نيويورك حتى مطلع ١٩٥٣ عندما عرضت عليّ جامعة جورجتاون مركزا للتدريس فيها ، فانتقلت الى واشنطن في فبراير ١٩٥٣ . وبعد بضع سنوات (١٩٥٦) التحق جوزيف بجامعة جورجتاون ، وطلق زوجته وتفرغ للدراسة اربع سنوات انهى خلالها أطروحته وحاز على الدكتوراه

سنة ١٩٦٠ . وفي تلك السنة وقع بيننا خلاف وانتهت صداقتنا فجأة كما بدأت .

في سنة السفومور انتقلت من بلس هول الى اللودج ، وهو عبارة عن بيت قديم يقع بالقرب من الكورنيش في حقل امتلكته الجامعة (حيث تقوم كلية الزراعة الآن) وبعد اصلاحه في عام ١٩٤٤ اصبح جاهزا لاستقبال حوالي ١٦ او ١٧ طالبا ، واستاذا مشرفا (ماجد فخري) . وزود اللودج بمطبخ مستقل لتسخين الطعام الذي كان ينقل الينا كل يوم من الكافيتيريا الرئيسية ولاعداد وجبة الفطور . وكان يقوم بخدمتنا شاب ، نسيت اسمه ، كانت اهم واجباته اعداد وجبة الفطور وتسخين الماء لحماماتنا .

كانت حياة اللودج مليئة بالانهماكات الثقافية والفنية . كنا ندعو كل اسبوع استاذا لتناول العشاء معنا ولالقاء محاضرة بعد العشاء . وكان كثيرا ما يشارك في هذه الامسيات الاستاذ المسؤول عن اللودج — غير الاستاذ المشرف ، ماجد فخري — وزوجته ، وكانا يقيمان في بيت واسع الى الجهة الاخرى من ملعب الفوتبول . وكانا يشاركان في احاديثنا الفكرية بحماسة وكانت تتناول الموسيقى والادب والفن بصورة خاصة ، وقد نسيت ما دارت حوله من موضوعات لتفاهتها . وكنا نشتري بأسعار باهظة المجلات والكتب الثمينة لتزيين مكتبة اللودج المخصصة للموضوعات الموسيقية التي تقدم الدليل الحسي على المستوى الثقافي الرفيع الذي كنا نتمتع به .

وكنا في اللودج نتمتع بامتيازات خاصة ، اهمها وامتعها بالنسبة الينا (لانها كانت تثير غيرة زملائنا القاطنين خارج اللودج) الامسيات الراقصة التي كنا نقيمها مرة او مرتين في الفصل الدراسي وندعو اليها زميلاتنا في الجامعة (وكن بمعظمهن يقمن في «الهوستل» بشارع عبد العزيز) . كنا نقيم هذه

الحفلات في بيت الاستاذ المسؤول فيقوم هو وزوجته بدور الشابرون . ولم يكن يسمح لنا بتقديم المشروبات الروحية (وكان معظمنا على اية حال لا يرغب فيها) فكانت الفتيات يجلسن الى ربة المنزل يتحدثن اليها ويحتسين الشاي فيما ننتشر نحن في أنحاء القاعة متظاهرين بعدم الاكتراث ، نتضاحك بين الفترة والاخرى لنخفي اضطرابنا ، ونقوم ، عندما تعزف موسيقى التانجو على الغرامفون المحرك باليد ، ببطء وتردد نحو الفتيات لمراقصتهن . نضع اذرعنا حول خصورهن (دون ضمهن الينا) ونرقص بجد وصمت الى ان تنتهي الاسطوانة ، فنعود الى الوقوف في انحاء القاعة ننتظر الاسطوانة التالية ونفتش بأعيننا عن الفتاة التي نود مراقصتها . وسرعان ما تنتهي الحفلة في الساعة العاشرة او على الاكثر في الحادية عشرة ، فنوصل الفتيات الى «الهوستل» ، ونعود الى اللودج نتبادل الحديث حول ما حدث في السهرة .

من مميزات اللودج الاخرى الحرية الواسعة التي كنا نتمتع بها ، ومنها ممارسة الحكم الذاتي . كان لدينا قانون خاص ننتخب بمقتضاه لجنة تنفيذية ورئيسا . وكانت أهم صلاحيات الرئيس اعطاء التصاريح الخطية التي تمكّن حاملها من البقاء خارج الجامعة بعد اغلاق الابواب في الساعة العاشرة مساء . وعندما انتخبت انا رئيسا في سنة السينيور كنت احمل دفتر التصاريح في جيبي ، فاذا تأخرنا خارج الجامعة الى بعد العاشرة كتبت لنفسي ولزملائي التصريح اللازم وعدنا في الوقت الذي نريد .

ولعل اجمل ما اختبرته في اللودج كانت الصداقات التي نشأت بيني وبين عدد من النازلين فيه . تعود بي الذاكرة في هذه اللحظة الى جابي نصر ، وكان يقيم في الغرفة الملاصقة لغرفتي . لم أره منذ سنة ١٩٤٧ والتقيت به مصادفة في سان

فرنسيسكو سنة ١٩٧٠ . كان ذلك في ملز وهي جامعة صغيرة للبنات بالقرب من سان فرنسيسكو ، حيث دعيت للاشتراك في حوار مع استاذ اميركي (يهودي) من جامعة ستانفورد حول القضية الفلسطينية . في فترة الاسئلة رأيت شخصا ضخم الجثة طويل القامة يرفع يده ليلقي سؤالا على الاستاذ اليهودي، فيحاول هذا التهرب منه ، لكن السائل يتحداه ، ويصفق له الحضور . وبعد انتهاء الاجتماع يلتف حولي رهط من الطلبة والطالبات ، وأرى بين الوجوه المحيطة بي وجه السائل الضخم الجثة، فيتقدم نحوي وعلى وجهه ابتسامة تذكرتها فجأة ــ جابي نصر . وتعانقنا بحرارة ، وسألته عن احواله وسألني عن احوالي، ثم سرنا معا ، يرافقنا قرابة عشرين شخصا ، الى احدى البارات في بيركلي ، وبقينا نتحدث ونشرب البيرة الى ما بعد منتصف الليل .

وأذكر ايضا فيليب نصر الله . منه سمعت ولاول مرة كلمة ماركس الشهيرة : «من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته» . ولكن فيليب لم يذكر مصدرها (البيان الشيوعي) ولم يتحدث الي عن الاشتراكية ، لست ادري لماذا . واستهواني كل ما قاله ، الا اني نسيته في وقت قصير .

وكان يشاركني في غرفة النوم شاب عراقي يدرس الاقتصاد اسمه محسن مهدي . وكان محسن يكره الاقتصاد ويحب الفلسفة ، وكان دائما يشترك معنا في الندوات الفلسفية التي كنا نقيمها في الدائرة وأصبح ، مع الوقت ، كأحد اعضائها . والتحق محسن بجامعة شيكاغو بعد التحاقي بها بحوالي ستة اشهر ، وكنت بانتظاره عند وصوله صيف ١٩٤٨ . وفي شيكاغو غيّر موضوع اختصاصه وكتب أطروحته عن ابن خلدون ، وبعد تخرجه عاد الى بغداد حيث عين استاذا في جامعة بغداد ، ولكنه سرعان ما استقال وعاد الى شيكاغو حيث عين استاذا في المعهد الشرقي (Oriental Institute)

بعد بضع سنوات اصبح رئيسا للمعهد . وفي اوائل السبعينات عرضت عليه جامعة هارفرد ان يخلف السير هاملتـــون جيب رئيسا لمعهد دراسات الشرق الاوسط واستاذا للغـة العربية ، فقبل المركز وانتقل الى هارفرد ، وما يزال فيها .

- ١٤ -

في الغرفة المجاورة لغرفتنا كان يقيم شابان احدهما سوري، اسمه يحيى حمصي ، والآخر اميركي ، اسمه توم شي . كـان يحيى تلميذا كسولا قلما يحضر المحاضرات ، وخاصة اذا كانت في الصباح . لكنه كان مأخوذا بالقراءة الى حد الهوس . وكانت لديه مكتبة ضخمة ، ملأت غرفة النوم الصغيرة . كان يطالـــع الكتب وهو يدخن السجائر الواحدة تلو الاخرى .

كلما نزل الى البلد في عطلة آخر الاسبوع عاد محملا بالكتب الجديدة . وكان يشتري الكتب ايضا خلال الاسبوع من مكتبة خياط ، مقابل الجامعة في شارع بلس .

وكان من عادة يحيى ان لا ينهـــي قراءة كتاب او تدخين سيجارة، يضع السيجارةبين شفتيه وينساها الى ان تحرقهما. وكان يقرأ الكتاب في صفحاته الاولى ، متوقفا بين الفتـــرة والاخرى ليعلن ان هذا هو اعظم كتاب قرأه في حياته ، وبعـد حين يلقيه جانبا . ومن كتب يحيى الشهيرة كتاب إي إي كمينجز «الغرفة الرحبة» (١) . كان يحيى يحملـه تحت ابطه ايامـــا ويتحدث عنه مع من يلقاه بحماسة شديدة ، الى ان اشتـــرى يوما كتابا جديدا بعنوان Le zero et l'infini بقلم كاتب لم

---

1 — The Enormous Room .

نكن قد سمعنا باسمه بعد وهو آرثر كوستلر ، الكاتب الشيوعي المرتد الذي أحدث كتابه هذا ضجة كبيرة في اوربا والولايات المتحدة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية .

- ١٥ -

كانت حلقتنا تضم بالاضافة الى محسن وتوم ويحيى ثلاثة اشخاص آخرين يقيمون خارج اللودج وكنا نلتقي بهم يوميا عند فيصل او في الميلك بار ، هم هيوجو ليمنج ، وهو شاب اميركي كان يدرّس اللغة الانكليزية في الاستعدادية ، وجكمو هانج سنج ، وهو شاب هندي كان يدرس الطب في مستشفى الجامعة ويعيش الان في دار السلام ، وأسامة قدري وكان والده ، تحسين قدري ، آنذاك قنصل العراق في بيروت . وكان أسامة ، ولا يزال ، اقرب اصدقائي الي ، ولم اره منذ حوالي عشر سنوات .

وكان الاميركيان توم شي وهيوجو ليمنج يهتمان اهتماما خاصا بعلم النفس ، وكانا كثيرا ما يثيران موضوعات لم نكن نعرف عنها شيئا ، مثل عقدة اوديب ونظريات فرويد الجنسية وتفسير الاحلام ، وكنا نسخر من هذه النظريات ونتخذها مجالا للهزل . ولم أدر في ذلك الوقت سبب اهتمامهما بنظريات فرويد . وقد اكتشفت فيما بعد انهما كانا يكرهان والديهما اشد الكره ، ويعتبران نفسيهما ضحية معاملتهما ، وكان كل منهما الولد الوحيد لأبويه . ولدى وصولي الى الولايات المتحدة قمت بزيارة عائلتيهما . زرت اولا عائلة ليمنج في ريتشموند واجتمعت بوالدته (ولست ادري اذا كان والده كان قد توفي او انه قد هجر امه) . ثم زرت والدي توم في رونوك ، التي لا تبعد كثيراً عن ريتشموند . وأمضيت معهما يومين كاملين ، ولم الحظ

اي امر غريب في العائلتين ، لكني في ذلك الوقت كنت ما زلت لا ارى الاشياء بوضوح .

كنا نجلس في الميلك بار ساعات بكاملها ندخن عشرات السجائر ونشرب القهوة ونتحدث ساعات متواصلة . وكنا دائما نعود الى الموضوعات الجدية ـ اي الموضوعات الفلسفية والادبية والسياسية ـ ولم اكن أعرف آنذاك ان ليمنج كان يساريا ، ولم أكتشف امره الا بعد مضي عدة سنوات .

وأخذنا نتردد الى بار روسي يدعى «نوي بلانش» في حاووز الساعاتية بالقرب من خط الترامواي . في النوي بلانش تعلمت شرب الفودكا . في بادىء امر مججت طعمها ، وتقيأت بعد شربها . وذات مرة شربت ثلاث او اربع كؤوس من الفودكا ، فأصابني دوار قوي وألم شديد في المعدة . وعندما عدت الى اللودج حاولت التقيؤ فلم أستطع ، فأخذني توم الى ملعب كرة القدم المجاور وأخذنا نتمشى حتى تقيأت واسترحت . وأمتنعت بعد ذلك عن المشروب مدة طويلة ، ولكن الحاح توم وليمنج جعلني اعود الى احتساء قدح او قدحين كلما ذهبنا الى النوي بلانش وبدأت مقدرتي على الشرب تقوى . وكان لتوم ولليمنج تأثير بالغ في موقفي ، لا ازاء الفودكا وحسب ، بل تجاه أمور اخرى عديدة . كانا اول من تعرفت عليه من الاجانب في مثل سني الذين ثاروا على بيئتهم وأهلهم وراحوا يفتشون عن حياة جديدة يصنعونها كما يشاؤون . وأثار اعجابي على الاخص حريتهما ومقدرتهما على ممارسة حياتهما الخاصة دون رادع . فلم يكن هناك بالنسبة اليهما اي موضوع يحرم الكلام فيه . ولعل اكثر ما اعجبني فيهما عطشهما الدائم لكل تجربة جديدة .

وذات مرة كان توم ومحسن يزوران ليمنج في غرفته بسيج هول ، وأخذوا يتحدثون عن التنويم المغناطيسي . واقترح توم ان يجرب ليمنج تنويمه مغناطيسيا . وقد غرق في غيبوبة عميقة حالا . ولعل ذلك عائد لاستعداده النفسي لعملية التنويم .

وعندما حاول ليمنج ومحسن اخراجه منها لم يتمكنا من ذلك . فقررا ان يرجعا به الى اللودج ، وسار معهما لا يعي شيئا . وفي غرفته حاولا ايقاظه ثانية فلم يتمكنا ، فتملكهما الخوف ، وكادا ان يأخذاه الى المستشفى ، لولا انه تعثر فوقع ارضا فاستيقظ وهو يتساءل : «اين انا ، اين انا» .. وكانت تلك المرة الاخيرة التي يجرب فيها التنويم المغناطيسي في حلقتنا .

ووقعت حادثة اخرى كان يمكن ان يكون لها نتائج اكثر خطورة . فقد قرر توم وليمنج ان يجربا تدخين الحشيش . وكانا يعرفان مدى محافظة الآخرين في الحلقة فلم يذكرا مشروعهما لاحد منا . ومساء ذات يوم استقلا الترامواي الى ساحة البرج وذهبا الى قهوة في السوق العمومي كان قد دلهما عليها احد الخدم في الجامعة . وحسب رواية توم (أخبرني بها في واشنطن سنة ١٩٥٨ ، اي بعد مرور اثني عشر عاما !) فقد دخلا القهوة فلقيهما رجل دل مظهره على انه صاحب القهوة ، فقالا له بالعربية المكسرة انهما يريدان ان يدخنا حشيشة . فأشار اليهما أن يتبعاه ، ونزل امامهما في درج مظلم وفتح بابا يخرج من تحته بصيص نور ثم اشار اليهما بالدخول . فدخلا الى قاعة انتشرت فيها بضع طاولات ، وقد جلس اليها رجال يدخنون النارجيلة بصمت . فجلسا الى احداها وجاءهم رجل يحمل نارجيلة واحدة وفنجاني شاي . وطفق توم وليمنج يدخنان النارجيلة بالتناوب ويشربان الشاي ، الى ان نفذ التنباك . وبعد برهة قال ليمنج : «اني أشعر بصداع ، لنخرج من هذا المكان» .

وكانت الحشيشة قد أثرت فيه تأثيرا عكسيا ، فبدل ان ينشرح أحس بضيق ونقمة . فسارا صامتين الى ان وصلا الى ساحة البرج امام مركز البوليس ، وكانت الساعة قد تعدت الثانية بعد منتصف الليل . فتوقفا تحت احد المصابيح ، وطلب

ليمنج الى توم ان يتركه ويسير في سبيله قائلا ، انه يريد ان يمضي بقية السهرة بمفرده . وحاول توم اقناعه بضرورة العودة الى الجامعة ، وأخذ يلح عليه بذلك . وفجأة تناول ليمنج حجرا كبيرا عن الارض وصرخ في وجه توم قائلا : «سأكسر رأسك ان لم تتركني وشأني» . وكان يعني ما يقول ..

فتظاهر توم بالقبول ، وسار باتجاه رأس بيروت . وبعد بضع خطوات اختبأ في مدخل احدى البنايات وانتظر حتى مر ليمنج من امامه ثم تبعه عن بعد . وبقي يتبعه حتى وصل الى اول شارع بلس ، حيث كان مدخل مستشفى الجامعة القديم . وبدل ان يتوجه ليمنج نحو الاستعدادية باتجاه المنارة ، سار في شارع عبد العزيز باتجاه الحمراء وتوقف امام بيت استاذ اميركي من الاساتذة القدماء في الجامعة . وكان ليمنج يعرف ابنته معرفة جيدة ، وكانت احيانا ترافقنا الى النوي بلانش وتشرب معنا الفودكا . كان هدفه ، كما اخبر توم فيما بعد ، الدخول عليها واغتصابها . ومن حسن الحظ ان تأثير الحشيش كان قد بدأ يزول ، فتمكن توم من ايقاف ليمنج قبل ان يدق الجرس . وسار به الى غرفته دون مقاومة ، وكان ليمنج قد عاد الى وعيه وصار يضحك وينكت فيما كان توم يحاول وضعه في الفراش. وما ان تمدد على فراشه حتى غلبه نوم عميق .

- ١٦ -

في حزيران سنة ١٩٤٧ قرر ليمنج وتوم وسينج ان يمضوا عطلة الصيف في باريس ، فغادر الثلاثة بيروت على متن باخرة يونانية قديمة ووصلوا بعد خمسة ايام ، الى فينسيا ، ومنها استقلوا القطار الى باريس . ولم أستلم منهم خبرا حتى نهاية الصيف عندما استلمت بطاقة من توم يخبرني فيها انه سيصل

هو وسينج في منتصف اغسطس (وكان اليوم ذاته الذي استلمت فيه البطاقة ولم يذكر شيئا عن ليمنج). وعصر ذلك اليوم وصل توم وسينج بالطائرة ، ولكن ليمنج لم يكن معهما . وأخبرني توم انهم كانوا يوما جالسين في احد المقاهي ، فقال ليمنج انه يشعر بانقباض وانه يشتاق للعودة الى نيويورك . وقام لتوه الى الفندق ووضب أغراضه واستقل اول طائرة الى نيويورك في صباح اليوم التالي .

بعد حوالي ثلاثة اشهر التقيت بليمنج في واشنطن . وكان ينتظرني في مطار اندروز منذ مساء اليوم السابق . ومضينا سويا حوالي اسبوعين بين واشنطن وريتشموند ورونوك ونيويورك . وافترقنا في نيويورك عندما غادرت انا الى شيكاغو للالتحاق بجامعتي وبقي هو في نيويورك يفتش عن عمل . ومنذ ذلك الحين التقيت به ثلاث مرات فقط .

كان اللقاء الاول في شيكاغو في ربيع ١٩٤٨ ، بعد ان قرر الالتحاق بمعهد اللاهوت التوحيدي (Unitarian Seminary) التابع لجامعة شيكاغو ، ليصبح قسا في الكنيسة التوحيدية . وأثناء دراسته في شيكاغو التقى بامرأة تكبره بحوالي عشرين سنة وعقد قرانه عليها . وأخبرني توم فيما بعد انه في احدى الحفلات تقدم رجل من ليمنج ، ولم يكن له معرفة سابقة به ، وقال له :

ـ ان والدتك (قاصدا زوجة ليمنج) بالفعل شخصية شابة وجذابة .

وكان لقائي الثاني بليمنج في نيويورك في خريف سنة ١٩٥١ . وكنت قد انتقلت الى نيويورك بعد ان انهيت المتطلبات الدراسية وأخذت بكتابة أطروحة الدكتوراه . وكنت حينذاك اقيم مع اسامة قدري في شقته بالشارع ٢٧ في جنوبي مانهاتان . وجاء ليمنج بعد الظهر ، ولم يكن اسامة قد عاد بعد من عمله ، فتحدثنا قليلا ثم عرضت عليه قدحا من الوسكي ،

فقال باستغراب :

ــ هل بامكانك ان تقدم لي مشروبا يخص اسامة بغيابه ؟

ولاحظت ان تصرفه كان غريبا . فهو لا يكاد يستوي في مقعده حتى ينتقل الى مقعد آخر ، يدخن السيجارة تلو السيجارة . لم أدر انه كان يمر في ذلك الوقت في أصعب حقبة من حياته . فقد كان مراقبا من قبل دائرة الاستخبارات الاميركية وعاطلا عن العمل بسبب تهمته بالشيوعية ..

اما اللقاء الثالث فقد كان في واشنطن سنة ١٩٦٦ ، بعد مرور خمس عشرة سنة على لقائنا الاخير . فقد استلمت منه رسالة يعلمني فيها بأنه يتوقع الحضور الى واشنطن ، في يوم عيَّنه ، للاشتراك في مؤتمر ما ، وهو يرغب في زيارتي بصحبة زوجته . ولم اكن ادري انه قد طلق زوجته الاولى وتزوج ثانية. وعندما وصل الى واشنطن اتصل بي تلفونيا ليسأل عن عنوان منزلي وكيفية الوصول اليه . وما هي الا نصف ساعة حتى دق الباب ، ودخل ليمنج والى جانبه سيدة سوداء قدمها الينا باسم «مسز ليمنج» . لاحظت انه قد اصبح بدين الجسم وانه ما زال يدخن السجائر باستمرار . وعرضت عليه عندما جلسنا ، كأسا من الويسكي ، فرفضه مفضلا فنجانا من الشاي . وعلمت انه يسكن مع زوجته في شيكاغو في حي السود في جنوبي شيكاغو وانه عاطل عن العمل منذ مدة طويلة .

وبعد اربع سنوات منذ ذلك اللقاء اتصل بي تلفونيا فجأة . وكنت أعد العدة لمغادرة واشنطن للالتحاق بالجامعة الاميركية في بيروت استاذا زائرا لسنة ١٩٧٠ ــ ١٩٧١ . عندما دق جرس التلفون ، اجابت زوجتي ، وسمعتها في الغرفة المجاورة تقول بدهشة :

ــ ليمنج . هيوجو ليمنج ، انت في واشنطن ؟

ولكنه كان يتكلم من شيكاغو . كان قد قرأ خبرا في جريدة

المسلمين السود ، التي تصدر في شيكاغو ، عن محاضرة ألقيتها في نيويورك وعن اخرى كنت سألقيها في مؤتمر سيعقد في شيكاغو في الاسبوع التالي . وقال ليمنج بصوت متهدج :

ــ اني في أشد الشوق لرؤيتك ، لقد قرأت محاضرتك واعجبت بها جدا ، وسوف أحضر المؤتمر خصيصا لسماع محاضرتك المقبلة .

وتكلم طويلا على التلفون . وحاولت ان لا أطيل في الحديث حتى أخفف عليه كلفة المكالمة ، الا انه استمر في الحديث . كان صوته جذلا مرحا ذكرني بليمنج الذي عرفته قبل عشرين سنة . واتفقنا ان نلتقي في شيكاغو في الاسبوع التالي . وأقفلت التلفون وأنا اتساءل في نفسي عن سبب هذه العاطفة القوية التي اظهرها ليمنج نحوي ، وجاءني الجواب بسرعة البرق . لقد اكتشف من قراءته لمحاضرتي اني اصبحت يساري النزعة مثله وصار يعتبرني ، ولاول مرة بعد مضي هذه السنوات الطوال ، رفيقا يمكنه الركون اليه . ومن سوء الحظ ألغي المؤتمر الذي كان من المقرر عقده في شيكاغو بسبب المظاهرات اثر حادثة جامعة كنت ، وغادرت واشنطن في الشهر التالي الى بيروت . وكانت تلك المرة الاخيرة التي تكلمت فيها مع ليمنج ، ولا ادري اين حطت به الاقدار .

- ١٧ -

اما توم شي فقد كانت علاقتي به منذ البدء اقوى من علاقتي بليمنج . كنا في العمر نفسه تماما ، فقد كان تاريخ ميلادنا في اليوم نفسه والشهر نفسه والسنة نفسها .

واذكر اول تعرفي بتوم . كان ذلك بعد انتقاله الى اللودج ببضعة ايام . رأيته يوما ، قبل ان يرتدي ملابسه ، يضع مرهما

ذا رائحة ذكية تحت ابطه، فظننته دواء ولم اكتشف انه مسحوق ضد العرق الا بعد عدة سنوات ، عندما اشترت لي صديقتي في نيويورك علبة منه ووضعتها في غرفة الحمام دون ان تقول لي شيئا ، فتعودت على استعماله يوميا منذ ذلك الحين .

بعد مغادرتي بيروت في سنة ١٩٤٧ بقي توم هناك ولم اره حتى سنة ١٩٥٨ عندما زارني في واشنطن ، وكنت اقيم مع زوجتي الاولى في شقة صغيرة في حي جورجتاون مقابل بيت جون كندي ، وكان ما يزال عضوا في مجلس الشيوخ . ومنذ افتراقنا مر توم بتجارب عديدة وتغيرت في حياته أمور كثيرة . فقد سافر الى الهند بعد تخرجه من الجامعة سنة ١٩٤٨ وبقي ينتقل فيها من مكان الى مكان الى ان استقر في كيرالا . ثم رجع الى الولايات المتحدة في اواسط الخمسينات والتحق بجامعة بنسلفانيا في فيلادلفيا ، وحاز على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد . وفي فيلادلفيا تعرّف على امرأة مطلقة كانت في مطلع الثلاثينات من عمرها ، وأما لطفلة . وتزوج منها قبل لقائنا في واشنطن ببضعة اشهر .

وصل توم الى واشنطن بعد الظهر وكنت بانتظاره في مكتبي بالجامعة . اخذته الى منزلي وسكبت كأسين من الدراي مرتيني (وكان في ذلك الحين مشروبي المفضل) وجلسنا نتحدث عن الماضي والمستقبل . أخبرني انه تعاقد مع شركة آرامكو للعمل في الظهران وانه سيسافر الى السعودية مع زوجته خلال بضعة اسابيع . وبدا سعيدا حقا للمرة الاولى منذ ان تعرفت عليه . وشربنا عدة أقداح من المرتيني . وعندما حان موعد العشاء ، قال توم انه يشعر بدوار . ونهض مسرعا نحو الحمام ، وأخذ بالتقيؤ ، وخرج بعد لحظات يردد اعتذاراته . وكانت تلك اول مرة يغلبه الشراب ــ الذي كان يغلبني انا في الماضي ــ بينما كنت انا على استعداد لاحتساء قدح آخر .. كيف تغيرنا الايام !

وكان لقاؤنا الثاني في بيروت بعد خمس سنوات (١٩٦٣) . وكان توم قد حصل على اجازة لمدة سنة من شركته ليــدرس اللغة العربية في مدرسة شملان ، فانتقل مع عائلته من الظهران واستأجر شقة في رأس بيروت تقع بالقرب من مفترق شــارع السادات والحمراء. وكان يمضي ايام الاسبوع في شملان وينزل الى بيروت في عطلة آخر الاسبوع . وكنت انا قد حضرت الــى بيروت في اجازة جامعية لمدة سنة ــ وقــد عدت الى حيــاة العزوبية ــ لتأليف كتاب في الانكليزية عن الحركة الثورية في العالم العربي . لاحظت حال لقائي بتوم انه لم يكن فرحا كمــا عهدته في لقائنا الاخير في واشنطن ، فعاد اليه وجومه القديم. عرّفني على زوجته وابنته ، ولم اشعر نحوهما بارتياح . كانت زوجته طويلة القامة ، نحيلة الجسم على جانب من الجمال ، اما ابنتها فقد كانت في سن المراهقة وتبدو اكبر من سنها ، شقراء ممتلئة الجسم كثيرة الحركة .

واخبرني توم انه اتفق وزوجته ان يعيش كل منهما حياته الخاصة ، فلا يتدخل الواحد بشؤون الآخر . وبالفعل فقــد سلكت زوجته اثناء اقامتها في بيروت تلك السنة مسلك امرأة لا يربطها رابط ، فكانت اثناء غياب زوجها تسهــر وتصاحب الرجال ، وراجت حولها الاشاعات ، ومنها انها كانت تشتــرى بثمن .

وجلسنا ذات يوم انا وتوم ــ وكان ذلك قبل ان اعود الى واشنطن بوقت قصير ــ في مقهى دبيبو بالروشة ، وكنا نتردد اليه ايام دراستنا في الجامعة . وطلبنا زجاجتين من البيرة ، ثم قال :

ــ أتذكر جلساتنا في هذا المكان منذ ست عشرة سنة ؟ كل شيء تغير ، الا هذا المقهى .

ــ البحر لم يتغير .

ـ البحر تغير . انظر الى شاطىء الرملة البيضاء . أتذكر كيف كان ابيض في زماننا ؟

نعم أذكر . وأراقب الشاطىء الابيض الممتد من اقصى الخليج الى السان سيمون . لقد تحول الى منطقة سكنية ، وارتفعت فوقه البنايات العالية واقيم عليه كورنيش تسرع فيه السيارات وتتناثر حوله الاقذار والنفايات . لقد اختفى الرمل الابيض ولم يبق منه الا الشاطىء الصغير الملوث تحت سور الكورنيش .

وقال توم :

ـ نحن تغيرنا ايضا .

ـ وهل يحزنك اننا تغيرنا ؟ انا وأنت في السادسة والثلاثين من عمرنا . هذه سنوات الرشد ، سنوات الانجاز .

كان يرمق السيارات وهي تنعطف بسرعة في الطريق المحاذي للمقهى. ظننته لم يسمع كلامي . لكنه ادار وجهه وقال بشيء من الحدّة :

ـ الرشد ... الانجاز ! انا لم أبلغ سن الرشد .. لن انجز شيئا في حياتي .. انا كبرت .. السنوات تمر . حياتي هي اليوم كما كانت ولم يتغير فيها شيء . أتعرف اني لا استطيع النوم واني اعاني من القلق والخوف معظم الوقت ، وسأبقى كذلك حتى اموت . اني واثق من ذلك .

فقلت له :

ـ ألا نأرق جميعا ؟ ألا نقلق جميعا ؟ لماذا تعتبر نفسك وحيدا ؟

ـ هل تعرف حقا ما هو الأرق ؟ الأرق هو ان لا تنام ابدا الليلة تلو الليلة . لا أذكر اني نمت ليلة واحدة بأكملها منذ طفولتي . والقلق والخوف ! القلق والخوف مستحوذان عليّ ليل نهار . أحس بيد من حديد تصهر قلبي طوال الوقت .

ـ ما هو سبب قلقك يا توم ؟ جميعنا نعاني من القلق

والخوف .

ـ اني عصابي (neurotic) . أعرف ذلك . ومعرفتي تخفّف نوعا ما من وطأة الالم المستمر . لكن مصدر القلق خارج ارادتي .

ثم قال شيئا لم أتوقعه :

ـ ان العقدة الكبرى التي أعاني منها هي عقدة الجنس . اني افكر بالجنس طول الوقت . وسيأتي يوم أفقد فيه صوابي . واغرق في الفوضى التي أشعر اني لا استطيع الهرب منها .

كان تخوف توم في مكانه . فقد اتى ذلك اليوم الذي ابتلعته فيه الفوضى ، ولم يعد يعي ما يفعل . كان ذلك سنة ١٩٦٦ . جاء من الظهران الى بيروت للترفيه عن نفسه ، ونزل في اوتيل فينيسيا . ما جرى بعد ذلك أخبرني بتفاصيله موظف كبير في شركة الارامكو في بيروت استدعي ذلك اليوم في الساعة الواحدة صباحا الى اوتيل فينيسيا لنقل توم الى المستشفى . فقد وُجد توم عاريا بعد منتصف الليل يدق باب غرفة تقيم فيها سيدة لبنانية متزوجة تعرّف عليها وعلى زوجها في اليوم السابق . وعندما فتحت السيدة الباب حاول توم الدخول ، فدفعته خارجا وأخذت تستغيث . كان توم يقول لها بالانكليزية : «لا اريد بك شرا . فقط اريد مضاجعتك» . ويظهر انه صوّر لنفسه انه اذا اتى اليها عاريا برهن لها عن صدق نيته. وما لبث ان سمع الاستغاثة بضعة اشخاص ، ومن بينهم زوج السيدة الذي كان آتيا في المصعد ، فهجموا عليه وأوسعوه لكما وضربا وهو مستسلم لا يقاوم .

عندما حضر البوليس كانت عظام كتف توم الايسر قد انكسرت وسال الدم من فمه وأنفه . ونقله موظف الشركة الى مستشفى الجامعة الاميركية حيث بقي عدة ايام قيد المعالجة . وعندما خرج من المستشفى ارسلته الشركة الى المايو كلينيك ،

وهو احد المصحات النفسية الشهيرة في الولايات المتحدة ، وبقي هناك عدة اشهر الى ان استرجع هدوءه النفسي ، ورجع الى عمله في الظهران .

زرته في الظهران في نيسان سنة ١٩٧١ . استقبلني انا وزوجتي (وكنت قد تزوجت ثانية) في المطار . ركبت في السيارة الى جانبه وأخذنا نتحدث بأمور مختلفة . ووصلنا الى مرتفع في الطريق يطل على حقول البترول ، وقد تصاعد اللهب من الغاز المحترق فيها ، فبدا منظرا رهيبا .

وقال توم :

ـ انظر الى نيران الجحيم . انها تحيط بنا من كل جانب .

قالها بلهجة جدية وبصوت بارد ، فالتفت اليه ، وقد بدأت بالابتسام ، ظنا مني انه يهزل ، فرأيت وجهه عابسا تتشنج عضلاته وفي عينيه بريق غريب .

وفي اليوم التالي زرته في مكتبه فحدثني عن عمله وعن أطروحته التي كان يعدها للنشر . وفي المساء تناولنا العشاء في بيته الصغير وشربنا الويسكي التي كان يصنعها بنفسه في مرأبه (كما كان يفعل جميع سكان الارامكو بسبب منع الخمرة في السعودية) . وكانت زوجته لا تنقطع عن الكلام ، فلم أستطع التحدث اليه . وعدنا الى بيروت بعد يومين دون ان اراه ثانية .

مر اسبوعان . ثم وصلني الخبر ان توم قد انتحر .

كانت زوجته قد غادرت الظهران في طريقها الى الولايات المتحدة ، فكان بمفرده. قال الطبيب انه تناول عددا من الاقراص المنومة ووضع اسطوانة في جهاز الستيريو ثم تمدد على الاريكة في غرفة الجلوس . كانت الاسطوانة ما زالت تدور على نفسها عندما وجده خادمه الهندي في صباح اليوم التالي ميتا . على الطاولة بجانبه كان هناك رسالة قصيرة قال فيها انه قرر الانتحار عن قصد وتصميم . وطلب ان تحرق جثته بعد موته وأن تبعثر

بقاياه فوق الصحراء . وأوصى بمبلغ من المال لخادمه الهندي وتسلمت زوجته ما تبقى . فنفذت الشركة وصيته بحذافيرها ونقلت جثته الىالبحرين واحرقتها هناك في الـ crematorium الوحيد في الخليج . ثم بُعثر رماده فوق الصحراء الشرقية .

- ١٨ -

كنت في الفترة الاولى من حياتي الجامعية ما زلت تحت تأثير ميخائيل نعيمة وفلسفته الصوفية . بدأت أطالع مؤلفاته في آخر سنتي الاستعدادية ، بعد ان طالعت كل مؤلفات جبران خليل جبران بالعربية والانكليزية . في تلك الفترة ايضا بدأت بكتابة مذكراتي وتدوين الملاحظات حول ما كنت اقراه من كتب وما أفكر به من افكار . ووقعت مؤخرا بين اوراقي على هذه المذكرات .

اعدت امس قراءتها (ابتدأت بكتابتها في الثامنة عشرة من عمري) . لفت نظري بشكل خاص خلوها من الاهتمامات الاجتماعية والسياسية وتركيزها الكلي على الامور «الروحية» والذاتية الخاصة .

مثلا :

«أشد من قوة العقل وأبعد اثرا هي تلك القوة الروحية التي استطاع ان يرقى بواسطتها كثيرون الى عالم اللانهاية . اني لا ادرك ماهية هذه القوة الروحية لعدم اختباري اياها . الا ان اعتقاديبوجودها هو اعتقاد راسخ لايماني بفلسفة ميخائيل نعيمة احد اعظم الفلاسفة الذين انتجتهم بلادي . فهو بامتلاكه هذه القوة الروحية توصل الى اعال يعجز العقل الحسي عن الوصول اليها . ان سعادته كاملة لا ينقصها شيء ، وكيف يكون الامر خلاف ذلك بعد ان شاهد نعيمة «المطلق» الكامل !»

«٢٤ شباط ١٩٤٥ . هذا هو شعوري : في داخلي شيء يكاد ان يخنقني ولا استطيع ان أنتزعه من نفسي» .

«١٦ آذار ١٩٤٥ . لا ادري ما استطيع كتابته لأعبر عن نفسي . انني أحس بتحطم وانهيار داخل نفسي . الفوضى في ذهني والتضارب في مشاعري يكبلان ارادتي . انني الان فاقد السيطرة على نفسي ...»

«؟ حزيران ١٩٤٥ . الآن يبدأ الصيف . عليّ أن أحقق امرا هاما هذا الصيف وهو تحديد نظرتي الى الوجود وايضاح الاسس التي تقوم عليها هذه النظرة ...»

وفي السنة التالية انضممت الى الحزب السوري القومي .

«١٩ حزيران ١٩٤٦ . اليوم انضممت الى الحزب السوري القومي . انضممت رسميا اليوم ، ولكنني بعقيدتي انضممت اليه عندما درست الحزب وتفهمته .

«هذه خطوة فاصلة . فاصلة بالمسؤولية التي اخذتها على عاتقي بانضمامي الى هذه المؤسسة . وهي بحد ذاتها تجعلني الان كما لم اكن قبلا ، عضوا عاملا مع اعضاء عاملين كثيرين يسعون نحو هدف يجمعهم مثل اعلى .

«انني أثق اولا بالعقيدة التي اعتنقتها رسميا اليوم ، وأثق برفقائي ورؤسائي الذين انضممت اليهم اليوم . وأثق اخيرا بزعيمي الذي لا اعرفه بالجسد بل بالروح والمعنوية المتجسدتين في الحركة التي خلقها .

«انني اقسمت اليوم ان اخلص للحزب ولرفقائي بالحزب ، وأن أطيع اوامر رؤسائي وأن اتفانى لخدمة عقيدتي وزعيمي . اقسمت على هذا امام صديقَيّ وأمام الحزب ، وها انا أقسم امام نفسي الان . وهذا قسمي الاكبر» .

لا أقصد فيما يلي الحط من قدر ميخائيل نعيمة او التقليل من قيمة أفكاره ، فاني ما زلت أكنّ له المحبـــة والاحترام . تعرفت عليه شخصيا سنة ١٩٤٣ . كنت في السادسة عشرة من عمري ، عندما زرته للمرة الاولى في بسكنتا برفقة احد زملائي في الاستعدادية (عبد الكريم الشوا) . وقمت بزيارته مـــرة ثانية برفقة فؤاد نجار في آخر صيف ١٩٤٥ ، وبقيت حتـــى دخولي في الحزب من أتباعه المخلصين .

مرت السنوات . واجتمعت بميخائيل نعيمة سنة ١٩٥٣ . كان لقاؤنا مصادفة في نادي الخريجين في بيروت على مائـــدة الافطار . وكنت في صباح ذلك اليوم اشكو من صداع قـــوي سببته سهرة الليلة السابقة وكؤوس الويسكي التي تجرعتها ، ولم يكن عندي رغبة قوية في الكلام . سألني عن أحوالي وعن اميركا وعن عملي في جامعة جورجتاون ، فأجبته على اسئلته بشيء من الاقتضاب .

ثم قال :

ـ وكيف وضعك الروحي ، هل لاقيت ما كنت تسعى اليه؟

وشعرت بحنق لم أدر سببه ، وأجبت بشيء من الحدة :

ـ هذه أمور ما عادت تهمني .

ونظر الي باستغراب ، ولكنه لم يقل شيئا . وانتهينا مـــن الافطار وانصرف كل في طريقه . وشعرت بندم جارح لتصرفي هذا (لماذا نتصرف بفظاظة نحو الذين نحبهم ؟)

وفي سنة ١٩٥٧ صدر الجزء الاول مـــن سيرة حياتـــــه «سبعون» ، وكنت في اجازة بلبنان مع زوجتي الاولى ، فلـــم أذهب لزيارته ولم أقرأ كتابه . (ولم اقرأه بالفعل حتى سنـــة ١٩٧٦ اثناء كتابة هذه الصفحات) .

اما لقائي الاخير بميخائيل نعيمة فكان في صيف ١٩٦٠ . كنت

مع عدد من الاصدقاء ، بينهم ادونيس ويوسف الخال وتوفيق صايغ ، نتناول الغداء في مقهى نبع صنين . فاقترح يوسف ان نقوم بزيارة نعيمة ، وكان يمضي الصيف في الشخروب كعادته كل صيف ، وكان الشخروب لا يبعد عن النبع اكثر من بضع دقائق بالسيارة . ولاقت الفكرة استحسانا ، فسرنا اليه بعد الغداء ووجدناه جالسا في ظل السنديانة القديمة ، التي يصفها في المجلد الثالث من «سبعون» ، وجلسنا نتبادل معه الحديث حوالي ساعة من الزمن . كانت نظرته الى الامور لم تتغير ، يردد ما قاله منذ اربعين سنة بالجدية الصارمة نفسها الخالية من كل روح مرحة تذكرت ايام تعلقي بأفكاره الصوفية التي ملأت قلبي دفئا وعقلي فراغا . افتح الان كتاب «المراحل» واقرأ الكلمات السحرية التي امتلكتني في تلك السنوات :

«... في كل وجه أبصرَ وجهي . لانني ، انا كذلك ، ألعوبة الشهوات ، وهدف الاهواء ، وفريسة المخاوف ، وعبد الزمان والمكان ...

«فويل عيني من وجهي كيفما دارتا لا تقعان الا عليه ، بل ويل وجهي من عيني المقنعتين بالتراب فلا تبصران غير ألوان التراب . وليت لي ان أستعيض عنهما بالعين التي تخترق ستر الزمان وحجب المكان . تلك العين التي لمحت بها امس وجوها بشرية ثلاثة فتقلصت امامها خيالات كل وجوه البشر ...» الخ.

- ٢٠ -

نفّذت في صيف ١٩٤٥ في عكا قرارا كنت قد اتخذته في مطلع ذلك العام ، وهو كتابة دراسة فلسفية حول ما كنت أعتقده وأؤمن به واخترت لها عنوانا : «نظرتي الى الوجود : صيف ١٩٤٥» . لا ازال أحتفظ بنسخة منها ، وهي بالانكليزية . اعيد

قراءتها اليوم (٩ تشرين ثاني ١٩٧٥) لاول مرة منذ ثلاثين عاما !.
اقرأ المقدمة :

«عليّ أن أعترف بأن ما أكتبه هنا هو من اجل اصدقائي وليس من اجلي فقط . اني متأكد ان اصدقائي الذين سيقرأون هذه الصفحات سيقرأونها بمحبة وتفهم فهي تمثل مجهودا كبيرا لاتمام عمل لم ينضج كل النضوج بعد» .

عطش لاطراء اصدقائي واعجابهم !

وأمضي في التحدث عن نفسي بتواضع الواثق من نفسه . وأتناول الموضوع في قسمين رئيسيين : في القسم الاول أعالج فكرة «الله» ، معلنا في اربع صفحات ان «معرفة» الله غير ممكنة على مستوى العقل والعلم ، داعما أفكار نعيمة الصوفية . ثم اتناول فكرة «الانسان» ، وأتوصل في خمس صفحات الى ان هدف الانسان في حياته هو ، كما قال ارسطو ، تحقيق السعادة .

وفي القسم الثاني أنتقل الى تحليل معطياتي الفكرية فأعترف ، بارتياح ظاهر ، اني «أتمتع بعقل منطقي مرتب» بالرغم من اني أشعر احيانا «بشيء من الغموض الفكري» ، الذي يحجب عني نور الحقيقة فتسري افكاري ملبدة «كمياه نهر موحل» . ثم أعدد الاشياء التي اجدها ذات قيمة في الحياة والتي يصح ان تكون هدفا لعملي :

«اشياء قلة تجعل عيشنا محتملا وأحيانا تسبغ عليه جمالا ومعنى . وأهمها «الصداقة» و«الحب» و«الفن» و«المطالعة» و«العمل» . »

حول الصداقة اقول : «لا استطيع تحديد معنى الصداقة ، وكل ما بوسعي قوله هو ان الصداقة تقوم على اساس من التفاهم المتبادل الذي يجمع اثنين من البشر بأواصر محبة عميقة» . وأستشهد بقول ارسطو ان الصداقة لا يمكن ان تكون عامة «فمن له اصدقاء كثيرون لا صديق له» .

وبصدد الحب أعلن بيقين تام ان «الحب هو أجمل ما يمكن للشباب ان يتمتع به في الحياة» ، وان «الحياة ، من خلال الحب ، تصبح اجمل شيء في العالم» . ثم أشير بشيء من الاسف الى ان علاقة الشباب والفتيات في مجتمعنا ليست على ما يرام ، «فالفتيات في حياتنا (نحن الشباب) قليلات العدد وهذا يخلق نقصا في حياتنا» .

وأقول في الفن انه مصدر ألذ مباهج الحياة وأعمقها ، اذا عرف المرء كيف يتذوق الفن تذوقا صحيحا . والتذوق الصحيح يتطلب ثقافة رفيعة و«فقط من خلال ثقافة فنية كهذه يستطيع المرء ان يتمتع عن حق بنتاج الفن» .

وفي موضوع المطالعة اعلن ان مطالعة الكتب «كنز لا يفنى»، وانها بالنسبة لي «نبع من الغبطة لا ينضب» .

اما العمل فأعتبره اهم شيء في حياة الانسان ، ففيه «تصب كل العوامل الاخرى كما تصب الجداول في النهر المنساب نحو البحر حيث يجد راحته الكبرى» . وأميز بين العمل «الخلاق» وما أسميه العمل «الحيواني» . فأقول ، بتعابير بورجوازية مثالية ، «ان العمل الصحيح هو ليس مجرد الجهد الحيواني (اليدوي) بل هو العمل الخلاق بأسمى اهدافه وأرفع معانيه» . أي العمل الفكري !

وأنهي الدراسة بالخلاصة التالية :

«كل ما اطلبه من الحياة هو ان تمنحني من العمر ما يكفي لتحقيق الاهداف التي وضعتها لنفسي والتي تحقق مطالبي الروحية . اني عظيم الايمان بنفسي ، وكل من أحس بقوة العقل اللامتناهية أحس بهذا الايمان العظيم بالنفس . ستكون حياتي بناء يتصاعد رويدا ، مبررا وجودي في الحياة ومضفيا عليها معناها ومضمونها . انني لا أرهب الموت الا حائلا بيني وبين عملي يمنعني عن تحقيق اهدافي . وعندما ينتهي هذا البناء اكون قد اتممت مهمتي في الحياة . اما الموت فعندما يحين موعده

فسيكون نهاية لائقة» .

وقد وجدت بين صفحات الدراسة ورقة مطبوعة كتب عليها بالانكليزية بقلم رصاص: «ملاحظاتي حولدراسة هشام شرابي» . واذا بها تعليقات خطها هيوجو ليمنج في خريف سنة ١٩٤٥ بعد قراءتها في بيروت .

أقرأ ملاحظات ليمنج بلهفة ، وأتذكر جلسات الميلك بـــار وأحاديثنا ، وتلك الايام التي مضت .

في هذه الملاحظات يظهر ذكاء ليمنج الحاد وتبدو بعـــض اتجاهاته الماركسية التي لم ألاحظها في ذلك الوقت . انه يعلق فيها على كل مقطع وعلى كل صفحة .

حول ما دعوته «بالملكة الروحية» يتساءل :

«يمكننا ان نبرهن عن قوة العقل والفريـــزة والاحساس وشعور التعصب بواسطة «المصاحبات اللاواعية» اما «الملكـــة الروحية» فأين نجدها ؟» .

وحول تحليلي عن مكانة الانسان في الوجود ، في الصفحة الثامنة ، يقول :

«تحليلك لعلاقة الانسان بالكون هو أفضل ما قرأته فـــي هذا الموضوع» .

وحول النتائج التي استخلصتها : «اذا كان يهمك الامر ، فان ما تقوله هنا يمثل تماما موقفي الشخصـــي ، دون زيادة او نقصان » .

ويقول في تعليقه الاخير : «كي يتمكن الانسان من تحقيـــق قيمه العليا يجب ان يتوفر له اولا الغذاء والملبس والمأوى وشيء من الفراغ . هذا هو المشكل الرئيسي وليس لهذا المشكل من حل الا على صعيد العمل الاجتماعي» .

في آخر صيف ١٩٤٥ ، قبل أن يحين موعد العام الدراسي بحوالي اسبوع ، رجعت الى بيروت وصعدت الى بيت مري ، حيث كان فؤاد نجار يصطاف مع عائلته في بيتهم المطل علـــى

بيروت والبحر . وقد بنى فؤاد عرزالا فوق سطح البيت ووضع فيه سريرين لي وله . وحال وصولي رميت اليه بنسخة من دراستي الفلسفية . فتصفحها بضع دقائق ثم قال :

ـ سيفرح ميخائيل نعيمة كثيرا عندما يراها .

وكنا قد خططنا لزيارة نعيمة في اليوم التالي . وفي الصباح ركبنا سيارة الى بسكنتا ووصلنا في ساعة ، واستقبلنا ميخائيل نعيمة بعطفه المعتاد . وفي المساء جلس جانبا وقرأ دراستي ، ولكنه لم يعلق عليها حتى صباح اليوم التالي عندما ذهبنا الى الشخروب وجلسنا تحت السنديانة الهرمة . وأبدى نعيمة اعجابه بما كتبت ، وخصوصا بمقطع شعري ظنه من نظمي ، وترجمته :

«طويل هو الليل لمن لا يستطيع النوم ، وطويل هو الليل لمن هو تعب ، وطويلة هي الحياة لمن لا يحس بالروح الأزلية» .

وقال :

ـ اعجبني هذا المقطع بشكل خاص . أهنئك عليه .

كان المقطع مأخوذا من كتاب قرأته حول الفلسفة الشرقية .

ـ من سوء الحظ اني لم أنظم هذا المقطع . انه مستمد من كتابات هندية قديمة .

وقال : لا بأس .

وبعد صمت قصير ، قال انه يتوقع لي مستقبلا باهرا في الفلسفة :

ـ لو كان لي ان اعطيك علامة لكانت هذه العلامة A على الاقل .

كان ميخائيل نعيمة في تلك المرحلة يفكر بانشاء حلقة او مدرسة من أتباعه يترأسها كما كان يفعل الغورو الهنود . طرح علينا الفكرة في المساء ـ كنا جالسين في بيته نرقب اشعة الشمس تتغير الوانها على جبل صنين . كان نعيمة آنذاك يكتب «مرداد» الذي تناول فيه سيرة وتعاليم مرداد ، المعلم الحكيم

الذي عاد الى مسقط راسه بعد غياب طويل ليبشر بفلسفة جديدة في الحياة ، فالتف حوله عدد من الاتباع وذاع صيته في العالم كله. ومن الواضح ان نعيمة كان يرى في نفسه دور مرداد الذي عاد الى الشرق ليبشر الناس ويسير بهم الى الخلاص .

ولم نكن انا وفؤاد في هذا الوارد . بالواقع كنا على وشك الخروج عن افكار نعيمة والاندماج (من خلال الحزب السوري القومي) في واقع السياسة والعنف ـ تاركين وراءنا مرحلة المراهقة وأحلامها الصوفية .

- ٢١ -

قبل انتقالي الى اللودج التحقت بجمعية سرية كان هدفها تحرير الوطن العربي وتوحيده . لست أدري الى هذا اليوم من كان وراء هذا التنظيم، الذي اصبح فيما بعد نواة من نوى حركة القوميين العرب. كانت خليتنا تتألف من عدد من طلاب الفرشمن والسوفمور وكنا نجتمع مرة في الاسبوع في احدى غرف النوم ونتباحث في موضوعات مختلفة برئاسة المسؤول عن الخلية . وكانت موضوعات الاجتماعات طويلة والابحاث مضجرة فملتها نفسي بعد مدة قصيرة . كان هدفي من الانتماء الى الجمعية الخروج من حالة القلق والغموض والعجز التي كنت أعانيها ، لا الزيادة منها !

تركت الخلية ، ولم أعد أحضر اجتماعاتها الاسبوعية . كنت في ذلك الحين ما زلت محافظا في تفكيري خاضعا لسيطرة الفكر القومي التقليدي الذي كان ينادي به الجيل السابق الذي حارب الاستعمار العثماني ثم وقع فريسة الاستعمار البريطاني والفرنسي بعد الحرب العالمية الاولى وتعاون معها . دارت افكاري حول شعارات الحرية والاستقلال وتوقفت هناك . ولكني

بعد ان تخليت عن عضويتي في الخلية بقيت أتعطش الى الخروج من وحدتي السياسية . لم تكن الصداقة وحدها كافية (على اهميتها القصوى) لاشباع حاجة الانتماء الجماعي ، فال «أنا» وال «انت» لا تشكلان «نحن» بالمعنى الجماعي الصحيح . كنت اتوق الى ان اصبح جزءا من كل اكبر تندمج فيه هويتي الخاصة بهويتي الجماعية الشاملة وكنت أعتقد ان الصداقة اذا لم يربطها رباط اوسع كهذا وأبعد هدفا بقيت مبتورة وغير مكتملة. مما دفعني في آخر الامر الى الالتحاق بالحزب السوري القومي .

- ٢٢ -

كان السبب المباشر لالتحاقي بالحزب دراسة قمت بها وقدمتها في مادة العلوم السياسية فيالسنة الثالثة من دراستي في الجامعة الاميركية . كان استاذنا في تلك المادة شارل عيساوي ، فأشار عليّ ان أختار موضوعا يتناول الحكومات او الاحزاب المعاصرة . فاخترت موضوع الحزب القومي السوري ، لا حبا به بل رغبة في اشباع فضولي حول هذا الحزب الذي كان العدو الاكبر للعرب والعروبة بنظر اعضاء الخلية التي انتسبت اليها في صف الفرشمن . وأمضيت اشهرا في دراسة الحزب وتاريخه وقرأت كل ما كتب عنه ، ودرست مبادئه وخطب ومقالات مؤسسه انطون سعادة ، الذي كان منذ ١٩٣٨ ما زال لاجئا في الارجنتين . وقمت بمقابلة عدد كبير من قادته ، فتحدثت مطولا الى نعمة تابت ، رئيس الحزب في ذلك الوقت، واجتمعت الى جورج عبد المسيح ، العضو الاول في الحزب ، وبالمسؤولين في ادارة الحزب . استقبلني الجميع بعطف وبروح طيبة وقدموا الي كل ما احتجته اليه من مساعدة . في اوائل

آذار سنة ١٩٤٦ دعيت مع فؤاد نجار الى حضور الاحتفال بعيد مولد سعادة (وكان اول آذار أهم احتفال رسمي في الحزب) في بيت نعمة تابت في الغبيري (حيث يقوم الان منزل سفير الجزائر بالقرب من مدور المطار) . وكانت منطقــــة الغبيري تقع خارج مدينة بيروت الى جنوب المطار القديم حيث توجد اليوم المدينة الرياضية .

وصلنا الى بيت نعمة تابت حوالي الساعة السابعة مساء . كان البيت قصرا قديما تحيط به حديقة واسعة ملأى بزهور اول الربيع . دخلنا البهو فوجدناه يعج بالشبان والشابات ، في جو مشبع بروح لم اعهدها من قبل . وابتدأ الاجتماع بنظام عسكري وتحيات ورفع أيد إثارت اعجابي واعجاب فؤاد . ثم اخـــذت الخطب تتوالى ، وكان آخر الخطباء نعمة تابت ، فتكلم بلهجــة هادئة رزينة . وفي نهاية الاجتماع خرجت من القاعة وقــــد تبخرت من نفسي آخر مشاعر العداوة نحو الحزب وحلّ محلها شعور عميق من التقدير والاحترام .

اجتمعت بنعمة تابت مرة ثانية واخيرة . كان ذلك فـــــي خريف سنة ١٩٤٦ (قبل طرده من الحزب بعد عودة الزعيم الى لبنان بحوالي سنة) حين رافقته في رحلة من بيروت الى الجنوب لحضور سلسلة من الاجتماعات الحزبية في صور ومرجعيــون وراشيا الفخار . ورافقنا في السيارة شاب شيعي كان قـــد التحق بالحزب منذ مدة قصيرة اسمه رياض طه (وأصبح بعــد تركه الحزب صحفيا وسياسيا شيعيا بارزا) اخذ يتكلم الى نعمة تابت طيلة الطريق مما منعني من التحدث اليه والتعرف اليــه اكثر مما كنت أود .

وبالرغم من انتقالي فكريا من مركز القومية العربية الـــى نقيضها القومية السورية فان الجو الفكري والعاطفي الـــذي انتقلت اليه لم يختلف كثيرا عن الجو العروبي الذي كنت فيه. فالقيم والمقولات والمعاني بقيت نفسها ، وان اختلفت محتوياتها

في بعض أوجهها . وعندما أحاول اليوم ـ بعد مرور هذه السنوات الطويلة ـ أن أحلل تطوري الفكري في تلك الفترة وأفسر اسباب انتقالي من نظرة الى اخرى مضادة لها أجدني عاجزا عن تفسير ذلك . فالموضوعات التي كانت تمثل لي في ذلك الحين صلب الحقيقة لم تعد الان تعني لي الكثير . موضوع الامة ، ماذا يعني لي اليوم ؟ وتاريخ الامة او حضارتها ، عربية كانت او سورية ، ما أهميته ؟ الافكار المصاحبة لهذه النظرة او تلك ، لم تعد لها قيمة متميزة بالنسبة الي . ما يهمني اليوم هو حياة هذا الشعب المعذب ومصير هذه الجماهير المستغَلة المستعبَدة . جميع الافكار والقيم والاهداف التي لا تدور حول حياة الشعب ومصير الجماهير لم تعد تمسني أو تعني لي شيئا.

- ٢٣ -

حطت الطائرة التي اقلت انطون سعادة الى الوطن ـ بعد غياب تسع سنوات في اميركا اللاتينية ـ في ٢ آذار ١٩٤٧ . كان في استقباله في مطار بيروت القديم في بير حسن ـ حيث يقوم ضريحه اليوم في مقبرة مار الياس ـ آلاف من القوميين الاجتماعيين . في ذلك اليوم بلغ سعادة الثانية والاربعين من عمره . (عندما غادر بيروت في عام ١٩٣٨ كان في الثالثة والثلاثين) . لم يدر بخاطره ولا دار بخاطرنا ، في ذلك اليوم ، ان قبره سيكون في تلك البقعة بعد حوالي سنتين .

كان معه في الطائرة الآتية من مصر فوزي القاوقجي ، عائدا من المانيا حيث أمضى سنوات الحرب، فظن انالالوف المحتشدة في المطار اتت لاستقباله ، فنزل من الطائرة يلوح مبتسما ، ولم يكتشف انها اتت لاستقبال سعادة الا بعد ان خرج سعادة من باب الطائرة ، وأخذ القوميون الاجتماعيون يهتفون بحياته وحياة

سورية . رأيت القاوقجي من موضعي خارج مبنى المطار الصغير ــ حيث كنت انا وفؤاد نجار ولبيب زويا مع رفقائنا في مديرية الجامعة نقدم التحية ــ يخطو جانبا ليمر سعادة ثم يتبعه ويسير الى جانبه حتى المدخل الخارجي .

سار موكب الزعيم من المطار بالآلاف المحتشـــدة الى بيت نعمة تابت في الغبيري . وهناك القــى سعادة خطابه الشهير ، الذي اعلن فيه ان الحزب لن يتنازل عن عقيدته السورية القومية وهاجم الانعزالية اللبنانية والنظام الطائفي في لبنان ونـــادى بوحدة الهلال الخصيب ودعى الى الصراع لتحريـر فلسطين . كنت انا وفؤاد نقف على مقربة منــــه . كلماته تدوي فـــي أذني الان :

«هذا اسعد يوم رايته في حياتي حتى اليوم : ان أعود بعد نحو تسع سنوات اغتراب عنكم ، لأنضم الى هذه المجموعـــة النامية ، التي تمثل أمة ابت ان يكون قبر التاريخ محلا لها في الحياة . بعد خمس عشرة سنة من جهاد نظامي عز نظيره فـــي العالم كله نقف اليوم أمة حية منتصرة ــ منتصرة على الارادات الاجنبية التي ارادت ان تبقيها ممزقة بين الطوائـــف والمذاهب الدينية التي مرجعها سماء واحدة ــ وأتت تعاليمنا القومية دينا جديدا واحدا موحدا ليرفع هذه الامة اليها ، الى الخلود فيها» .

ويعلو صوت الجمهور بالتصفيق والهتاف : «تحيا سورية» ، «يحيا سعادة» . وانظر حولي فأرى الدمع ينهمر من عيـــون القوميين القدماء وهم ينظرون الى سعـــادة بلا حراك كأنهم لا يصدقون ما يرون وما يسمعون ، وأرى البعض يعانق بعضهم بعضا : «سعادة رجع ، رجع سعادة ، الحزب رجع» .

ويستمر في خطابه :

«ماذا يريد اللبنانيون من كيانهم ؟ ان يكون فيه النور وأن يكون ما حوله محاطا بالظلمة ؟ اذا كان في لبنان نور فحق لهذا النور ان يمتد في سورية الطبيعية كلها» .

وتنطلق الهتافات من جديد . اسم «سورية» ينطق به علنا لاول مرة منذ ان عرف الحزب ، في غياب سعادة ، «بالحزب القومي» ، والكل يريد ان ينادي بأعلى صوته : «تحيا سورية»، «تحيا سورية» .

وينتقل سعادة الى موضوع العرب والعروبة .

«وكان انتصاركم ايضا على اشاعة اخرى باطلة ، وهي ان القوميين الاجتماعيين هم اعداء العرب والعروبة . اذا كان في العالم عروبة حقيقية صميمة فهي عروبة الحزب القومي الاجتماعي .

«ما هي هذه الجامعة العربية التي تمثل العالم العربي اليوم ؟ أهي فكرة العروبيين الخياليين الوهميين الذين يريدون امبراطورية عربية ووحدة قومية عربية ؟ ام هي تطبيق ما نادى به حزبكم من ايجاد جبهة من الامم العربية تكون سدا ضد المطامع الاجنبية الاستعمارية وقوة يكون لها وزن في اقرار المسائل السياسية الكبرى ويكون الوسيلة الفعالة لتحقيق ارادات هذه الامم كلها ؟

«الجامعة العربية اليوم هي تحقيق لما نادى به الحزب القومي الاجتماعي فكنا نحن اصحاب العروبة الحقيقية وكان غيرنا اصحاب العروبة الباطلة . وبعد فنحن جبهة العالم العربي ونحن صدره ونحن سيفه ونحن ترسه» .

وعلا الهتاف من جديد يشق عنان السماء .

واخيرا تكلم عن فلسطين .

«ان جهادنا يستمر ويجب ان تذكروا دائما ان فلسطين السورية ، ان هذا الجناح الجنوبي ، مهددا تهديدا خطرا جدا. ان ارادة القوميين الاجتماعيين هي انقاذ فلسطين من المطامع اليهودية ومشتركاتها .

«ولعلكم ستسمعون من سيقول لكم ان في انقاذ فلسطين

ضفنا على لبنان واللبنانيين وأمرا لا دخل للبنان فيه . ان انقاذ فلسطين هو امر لبناني في الصميم ، كما هو امر شامي في الصميم ، كما هو امر فلسطيني في الصميم. ان الخطر اليهودي على فلسطين هو خطر على سورية كلها ، هو خطر على جميع هذه الكيانات .

«وأعود فأقول ان هذه الكيانات يجب ان لا تكون حبوسا للامة بل معاقل تتحصن فيها الامة وتتحفز للوثوب فيها على الطامعين في حقوقها .

«ان كلمتي اليكم أيها القوميون الاجتماعيون هي العودة الى ساحة الجهاد» (١) .

- ٢٤ -

عدنا الى الجامعة بقلوب ملأى بالفرح والثقة . ولم نكتشف حتى اليوم التالي ان مذكرة توقيف قد صدرت بحق سعادة وانه رفض استلامها واعتصم بالجبل .

قابلت الزعيم لاول مرة في الجبل ، عندما استدعاني انا وفؤاد الى مقره الموقت في بشامون . أتذكر تاريخ المقابلة بالضبط لانه كان يوم ميلادي العشرين . عند وصولنا استقبلنا بحرارة كأنه يعرفنا من زمان .

كان لديه «كرزما» هائلة ، من الصعب تفسير تأثيرها . كان معتدل القامة ، رياضي البنية ، أسمر البشرة ، حاد التقاسيم ذا عينين نفّاذتين . في كلامه وتحركه سيطرة تامة ، لا يرفع صوته ولا يؤشر بيديه . كان في معاملته مع كل من يلاقيه لطيفا

---

١ ـ النص الكامل في «النظام الجديد» (دمشق ، ١٩٥٠) ص ١٠٢ ـ ١٠٦ .

رقيقا ؛ وطيلة معرفتي به لم أشاهده مرة يعامل احدا بخشونة او تكبر ، بل كان دائما اديبا شديد الحساسية لمشاعر الآخرين. ولا أذكر مرة انه امرني بالقيام بعمل ما . فاذا اراد شيئا طلبه بشكل غير مباشر ، بالتلميح او التعبير عن ضرورة انجازه تاركا المبادرة لمن يعنيه الامر. وكان يعالج جميع الموضوعات والمشكلات بالاسلوب نفسه .

ولا انسى بعد عودتي من شيكاغو سنة ١٩٤٩ – قبل مصرعه ببضعة اشهر – عندما علم اني احب فتاة اميركية وانني أفكر بالعودة يوما الى شيكاغو لمتابعة دراستي للدكتوراه . لم يقل لي: «انسى الفتاة فعليك واجبات اخرى يجب تحملها» . ولم يقدم الي النصائح والارشادات ، ولم يفرض عليّ رأيه بأي شكل من الاشكال . بل استدعاني الى مكتبه وسألني ان كان لدي وقت لتمضية اليوم التالي معه ، فقلت له بالطبع . وفي اليوم التالي مررت الى بيته الواقع بالقرب من مستشفى خالدي ، فوجدته قد أعد العدة لتمضية اليوم بكامله على شاطىء البحر مستعيرا شاليه مدام روضة في بلاج السان سيمون . وسبحنا وركضنا وتناولنا الغداء على الفرندا المطلة على البحر . وتحدثنا في موضوعات مختلفة . وأخيرا قال لي :

– انت تعرف ان العاطفة في حياتنا شيء لازم نصارعه ونتغلب عليه . وان لم نفعل ذلك لا نقدر على تحقيق شيء مهم في الحياة .

وبعد قليل ، قال :

– انا اعرف شعورك واقدره . انا مررت بالتجربة نفسها . لكني اقول لك بصدق واخلاص اني في كل مرة كان هناك تضارب او تناقض في حياتي بين العاطفة والواجب ، دائما وضعت الواجب اولا ، والعواطف رميتها على الارض ودستها بقدمي .

كان هذا كل ما قاله في الموضوع ، ولم يعد اليه اطلاقا . وقررت البقاء في بيروت وأجّلت العودة الى شيكاغو الى موعد

غير محدد .

استمر اجتماعنا الاول مع سعادة في بشامون حوالي ثلاث ساعات . تمشينا اولا ، ثم جلسنا على حافة الطريق المؤدية الى بيروت ، وتحدثنا عن ضرورة العمل الفكري في الحزب . كان لا يزال ملسوعا من خروج فخري معلوف من الحزب واعتناقه الكاثوليكية وانضمامه الى طائفة دينية متطرفة في بوسطن . كان فخري منذ نشأة الحزب اقرب الناس الى سعادة وأحبهم اليه، ولا اظن انه أحب شخصا آخر في الحزب كما أحب فخري معلوف. وقد ترك خروجه من الحزب جرحا في نفسه لا يندمل، وبقي طيلة المدة التي عرفته فيها يعود دائما الى الحديث عن فخري . في اثناء وجودي في شيكاغو كتبت لسعادة اسأله اذا كان لديه مانع من ان أتصل بفخري . فأجاب (في رسالة بتاريخ ٢٣–٨–١٩٤٨) قائلا : «لا مانع عندي او في المركز من زيارتك للامين السابق فخري معلوف مع اني أرجح ، بالنسبة للمعلومات ، عدم الفائدة من زيارته الا فائدة الوقوف على حالته » .

والرسائل التي أرسلها سعادة الى فخري معلوف في اثناء الحرب من البرازيل هي بنظري من أهم ما كتبه في شرح الفكرة القومية الاجتماعية وفلسفة الحزب . وقد نشرت فيما بعد في «النظام الجديد» .

وعندما عدت ثانية الى الولايات المتحدة بعد مقتل الزعيم حاولت الاتصال بفخري معلوف عدة مرات دون جدوى . فقد انقطع عن العالم كليا ، وانتقل هو وعائلته مع بعض أتباع رئيسهم الأب فيني وعائلاتهم الى مزرعة تبعد حوالي الساعة عن مدينة بوسطن تاركين العالم وراءهم . مرت الايام واجتمعت به سنة ١٩٦٥ ، اذ زرته برفقة شقيقته السيدة فايزة ، وكان موقفه قد لان ، ووجدته كما كنت أتصوره ، هادئا ، رقيقا، مرهف الحس،

حاد الذكاء . عندما ودعته احسست اني أودع آخر ما تبقى في نفسي من الحزب الذي كان جزءا من شبابي .

لم يمانع الزعيم عندما حصلت على شهادة البكلوريوس في الفلسفة في حزيران ١٩٤٧ ان أتابع دراستي في الولايات المتحدة ، بل انه شجعني على ذلك . فقدمت طلبا الى جامعة هارفرد وآخرا الى جامعة كاليفورنيا (بيركلي) وثالثا الى جامعة شيكاغو ، وقبلت في الجامعات الثلاث . واخترت جامعة شيكاغو لتميزها في الفلسفة . الا اني لم أغادر بيروت مباشرة، واجّلت السفر الى نهاية ١٩٤٧ كي ابقى بالقرب من الزعيم أطول مدة ممكنة .

في أواخر حزيران ١٩٤٧ ، حال تخرجي من الجامعة الاميركية ، صعدت الى مخيم الحزب في ضهور الشوير . وكان الزعيم لا يزال «مختفيا» بسبب مذكرة التوقيف . كانت قوى الامن العام تقوم بين الفترة والاخرى «بكبسة» الى الاماكن في الجبل التي يقال ان الزعيم موجود فيها . كل مرة كانت تفشل في مساعيها ، اذ ان الاوامر الصادرة عن الامن العام كانت تصل الى الحزب حال صدورها . كان الزعيم يتلقى ببرود وعدم اهتمام الانباء التي كانت تصلنا تلفونيا عن خروج قوى الامن العام من بيروت الى المكان الذي نحن فيه . اذا كان هناك اجتماع مهم اثناء وصول انذار من بيروت ، كان الزعيم لا يغادر المكان الا بعد ان يأتي رئيس الحرس ليعلمه للمرة العاشرة ان كل شيء جاهز وان السيارة بالانتظار .

كنت انا حديث العهد في هذه الامور ، فكنت في بادىء الامر عندما يصلنا نبأ عن «كبسة» آتية يعتريني القلق وأتوسل الى الزعيم ان ينهي حديثه او عمله وينزل الى السيارة في الحال . حتى في أحرج الاوقات كان سعادة دائما هادىء الاعصاب متزن الحركة لا يثيره شيء على الاطلاق . ففي حين

كانت تعتري الحرس حالة القلق والاضطراب ، كان هو يجمع اوراقه ببطء ويضعها في حقيبة اليد التي لا تفارقه ، ويسير بخطى ثابتة نحو السيارة مودعا من في الدار ويركب السيارة مبتسما محييا كأنه يغادر حفلة شاي .

ذات يوم في ضهور الشوير وصلتنا مخابرة تلفونية تقول ان قوة كبيرة من الدرك قد غادرت بيروت في طريقها الى ضهور الشوير . كانت الساعة حوالي الرابعة بعد الظهر . فقام الحارس ليعلم الزعيم بالامر ، وكان قد أوى الى غرفته ليستريح بعد اجتماع طويل تخلله الغداء واستمر حتى بعد الثالثة . ومضت دقائق والزعيم لا يزال في حجرته والحرس ينتظرون في السيارات الثلاث الجاهزة عند المدخل في الطريق المحاذي للدير . واشتد قلقي الى درجة اني نهضت من مقعدي الى جانب السائق ودخلت البيت وقرعت باب غرفته ودخلت ، فوجدته مستلقيا على فراشه يقرأ كتابا . وعندما شاهد اضطرابي ابتسم قائلا :

ـ من أيش خايف ، ما تعودت عالكبسات بعد ؟

فقلت له :

ـ الخبر انه الكبسة كبيرة هالمرة ، حضرة الزعيم .

فقال :

ـ ما تخاف . أقعد نشرب فنجان قهوة وبعدين منمشي . هالمرة رح نروح على محل بيعجبك . بتعرف بسكنتا ؟ فوق بسكنتا .

واستغرق شرب فنجان القهوة حوالي عشر دقائق شعرت انها ساعات . وكان سعادة يحدثني ، وهو يشرب قهوته ببطء واناة ، عن الكتاب الذي كان يقرأه . وكان بالانكليزية يتناول تاريخ السومريين وقال :

ـ بتعرف شو اللي بيمنعني اكثر شي من القراءة ـ الافكار اللي بتتوارد الى ذهني حالما ابدأ في القراءة ، فألاقي نفسي

اسابق المؤلف في فكره ، وأخرج كليا عن جو الكتاب .

واخيرا نركب السيارة ونتجه صوب بسكنتا عن طريق غابة بولونيا ثم نزولا الى بتغرين ووادي الجماجم . كانت الشمس على وشك المغيب عندما اطللنا على وادي الجماجم . وما ان دخلنا بسكنتا حتى كان الليل قد هبط على البلدة ، وخلت الطرقات من المارة ولم يسمع الا صوت خرير المياه في السواقي ونقيق الضفادع الذي لا ينقطع. نزلنا من السيارة يتبعنا الحرس من السيارتين الاخريين ، وكان بانتظارنا ثلاثة او اربعة اشخاص عرفت انهم المسؤولون في مديرية بسكنتا . وسرنا نتسلق الجبل ما يقارب ثلاث ساعات حتى وصلنا الى مرتفع معتم اثبتت في طرفه خيمة . فوضع الزعيم أغراضه فيها ثم خرج يتحدث الى الحرس بينما تمددت انا لأستريح فاستسلمت حالا الى نوم عميق لم أستيقظ منه الا في الصباح عندما سمعت اصوات الحرس يحضرون الترويقة . كانت الشمس ما تزال خلف جبل صنين ، واتضح لي اننا على قمة جبل يطل على صنين من جهة والبحر من جهة اخرى . بالفعل ، كما قال الزعيم ، مكان رائع ! واستيقظ الزعيم وجلس فوق الغطاء الصوفي الذي تلحف به اثناء الليل ، وجيء لنا بالفطور ، وكان يتألف من لبنة وخبز مرقوق وشاي ، وأكلت بشهية عظيمة وشعرت بفرح كبير يغمرني . نظر الي الزعيم مبتسما وأدرك، دون حاجة الى اخباره ، ما كان يجيش في قلبي من فرح وغبطة .

- ٢٥ -

كان الزعيم في تلك الفترة ، بالرغم من تنقلنا المستمر ، يزاول اعمال الحزب بشكل اعتيادي يكاد يكون روتينيا . فكان يعقد اجتماعات مجلس العمد بانتظام ، وكان اعضاء المجلس

يأتون الى مقره الموقت حيثما كان كلما استدعاهم ، حاملين الحقائب والملفات المتعلقة بعمداتهم المختلفة . وكانت الاجتماعات كثيرا ما تستمر من غروب الشمس حتى فجر اليوم التالي .

كان الزعيم في هذه الاجتماعات حريصا على التدقيق في كل شيء ، يعالج كل ما يثار من قضايا معالجة تامة وكاملة ، بحيث لا يبقى سؤال لا يجيب عنه او قضية لا يبت فيها . كان يطلب الى ناموس المجلس ان يقرأ التقارير الرسمية التي تصل من المديريات والمنفذيات في المناطق وكل الرسائل التي تصل من الاعضاء .

في بادىء الامر جاء العمد الى الاجتماعات فارغي الايدي لا يوجد معهم الا علب سجائرهم ، كأنهم آتون الى سهرة . ولكنهم سرعان ما أدركوا خطورة هذه الاجتماعات فغيروا أسلوبهم . وأذكر انهبعد الاجتماع الثالث او الرابع في مخيم ضهور الشوير صار العمد يأتون الى الاجتماع حاملين تقاريرهم وأوراقهم ومصطحبين مساعديهم وهم على أتم الاستعداد لمعالجة اية قضية تتعلق بعمداتهم .

في مدة قصيرة أحدث وجود الزعيم تغييرا عميقا في اوساط الحزب فسرت فيه حياة جديدة ، وأخذت المديريات والمنفذيات تنتعش وتنمو من جديد في جميع انحاء البلاد ، وصارت الوفود الحزبية تتوارد من انحاء لبنان وسوريا والاردن وفلسطين للقاء الزعيم .

في شهر تموز من ذلك الصيف صدرت النشرة الحزبية الاسبوعية ، وكان وقعها كانفجار قنبلة . فقد اعطى الزعيم تعليماته لعميد الاذاعة بأن يطبع على غلاف النشرة وبالالوان الحزبية (وهي الاسود والابيض والاحمر) شعار الزوبعة الذي ، لم يستعمل في الحزب منذ غياب الزعيم ، بشكل كبير بارز . فكان ظهور الزوبعة بهذا الشكل بمثابة تحد جديد للسلطة

واعلان بأن الحزب قد عاد الى ساحة الصراع. وأحدث ذلك اثرا نفسيا قويا بين اعضاء الحزب ، فعادت التعابير الحزبية القديمة الى التداول ، وانتشر استعمال كلمة سورية والتحية الحزبية القديمة «تحيا سورية» . وعم الجميع شعور دافق بأن الحزب قد عاد الى عقيدته بعد ان كاد ان «يتلبنن» . وفي هذه الفترة انتسب آلاف من الاعضاء الجدد الى الحزب وأسست عشرات المنفذيات والمديريات الجديدة في لبنان وسوريا وفلسطين وشرق الاردن .

- ٢٦ -

طغت شخصية سعادة عليّ كليا ، فلم يكن باستطاعتي اثارة التساؤلات التي بدأ البعض ، مثل فايز صايغ وغسان تويني وكريم عزقول ، يثيرونها حول موضوعات مبدئية وعقائدية وتنظيمية . فأخذت موقفا مؤيدا له مئة بالمئة رافضا كل نقد او معارضة . ولم أثر معه (كما ربما كان عليّ أن أفعل) موضوع التغيير الذي أحدثه في صلب العقيدة بعد عودته من الارجنتين، بطرحه تحديدا جديدا لمفهوم الوطن السوري ، فأصبح «الهلال السوري الخصيب» ، بعد ان كان يقتصر على سورية التاريخية (اي لبنان وسوريا وفلسطين وشرق الاردن) مضيفا بذلك العراق والكويت وقبرص الى مفهوم الوطن السوري ، وذلك دون مراجعة اعضاء الحزب او اخذ موافقة المجلس الاعلى .

وقبلت كذلك دون تردد مواقفه الفكرية ، التي كنت بيني وبين نفسي أتردد في قبولها ، مثل اسباغه صبغة الكلية على المجتمع واعتباره قيمة نهائية بحد ذاته ، ونظرته الى ان الفرد هو مجرد وسيلة يستعملها المجتمع لتحقيق اهدافه ، وان المجتمع يمثل «الحقيقة» الثابتة الباقية اما الافراد «فيتساقطون كأوراق الخريف» . وأيضا مناداته باقتصاد قومي يقوم على الانتاج

(الرأسمالي) دون تغيير في ملكية قوى الانتاج . ولم أبد اية معارضة لاسلوب التفكير الذي كان يمارسه بل خضعت له كما يخضع التلميذ لمعلمه او الابن لسلطة ابيه . وربما كان سبب هذا كله اني لم أشعر بالنفور الذي أشعر به اليوم نحو كل نظام هرمي يقوم على السلطة الفوقية . كنت غير قادر نفسيا على معارضة سعادة او مجابهته سلبيا بأي موضوع .

آمنت بسعادة ، بأفكاري كلها ومشاعري كلها . وكان بالنسبة الي القائد والبطل (الاب المثالي) ، احببته واحترمته كما لم أحترم او احب اي انسان آخر . وسيبقى سعادة بالنسبة لي هكذا لا يتبدل حتى لو اصبحت في السبعين .

لو قدّر لسعادة ان يستمر في الحياة لكان اليوم بسن كميل شمعون أو بيير الجميل ، في أوائل السبعينات من عمره . اني اتساءل : لو كان حيا اليوم أكنت بقيت في الحزب السوري القومي الاجتماعي وعلى ولائي له ؟

لا يداخلني أدنى شك في الجواب على هذا السؤال ، وهو بالنفي . كان لا بد لعلاقتي بسعادة وبالحزب ان تتحول من علاقة تابعة الى علاقة جدلية . هذا تحول محتوم ، فهو يتم نتيجة لعملية نضوج الفرد ونموه النفسي وتوصله الى مستوى معين من الوعي . عند ذاك لا بد ان تجابه القيم السلطوية نقيضها ، في قيم العقل الناقد ، وينهض الفكر حرا رافضا مجرد الايمان اساسا للحقيقة التي يضم حياته حولها . وهكذا حصل .

- ٢٧ -

أود هنا أن أشير الى ناحية خاصة من تفكير سعادة واهتماماته ، وهي التي تتعلق بقضية فلسطين . فقد كانت القضية الفلسطينية بالنسبة اليه القضية القومية الاولى ،

اعطاها من فكره ومجهوده اكثر مما اعطى اي موضـوع آخر ، وبالاخص في السنتين الاخيرتين من حياته .

يعود اهتمام سعاده في القضية الفلسطينية الى شبابـه الباكر عندما كان في البرازيل . كتب اول مقال حول القضية الفلسطينية سنة ١٩٢٥ وهو في الحادية والعشرين من عمره . كان في ذلك الحين ، اي قبل تأسيس الحزب بسبع سنوات ، يعتبر فلسطين جزءا لا يتجزأ من الوطن السوري ولا يفرق بين لبنان وسوريا وفلسطين وشرق الاردن ـ وبعد سنة ١٩٤٧ بينها وبين العراق والكويت . فكان التراب الفلسطيني بالنسبة اليه جزءا من تراب وطنه والشعب الفلسطيني جـزءا من أمتـه السورية . وبعد عودته سنة ١٩٤٧ أعاد بناء فروع الحزب في فلسطين وأدخل في صفوفه أعدادا متزايدة من الشبـاب الفلسطينيين . ومن المؤكد انه لو لم تقع حرب ١٩٤٨ لاصبح الحزب في غضون سنوات قوة رئيسية في الساحة الفلسطينية ولغيَّر ذلك من مجرى الاحداث ، وربما حال دون وقوع الكارثة.

ولا شك عندي ان تحليل سعادة للقضيـة الفلسطينية ، وخاصة تحليله السياسي لها ، هو من أعمق ما كتب فـي الموضوع ، وأود ان أستعرض هنا بعض مواقف سعادة حـول القضية الفلسطينية وأقدم بعض النبذات المختصرة التي تظهر روح كتاباته .

- ٢٨ -

صدر تحليله الاول في جريدة «ألف باء» الدمشقية سنـة ١٩٣١ عند عودته من البرازيل (وكان عمره ٢٧ سنة) في شكل رسالة مفتوحة وجهها الى لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ردا على خطاب قال فيه لويد جورج : «ان لليهودي المقيم فـي

تل ابيب حقا بالحماية كما للمسلم في كنبور (١)» وان «العرب والمسيحيين» في فلسطين جنوا فوائد جمة نتيجة لنجاح الحركة الصهيونية . فأجاب سعادة بالكلمات التالية :

«انكم تعرفون جيدا ، كما انا اعرف جيدا ، بأن تلك البلاد، فلسطين ، هي جزء حيوي من وطن كامل غير قابل للتجزئة لأمة واحدة هي الامة السورية ... وأما قولكم «العرب والمسيحيين» ففيه خطأ قد يعيركم عليه باعة الجرائد عندنا لانه لا يوجد في فلسطين «عرب» و«مسيحيون» بل جماعة هي جزء من الامة السورية التي تحمل رسالة تنص جملة موادها على انهاض العالم العربي أجمع .

«ان امورا عظيمة ـ امورا عظيمة جدا ـ ستترتب على هذه المحاولة الاثيمة التي لم يعرف التاريخ محاولة اخرى تضاهيها في الاثم ، واني أطمئنكم بأن نتائجها لا تقتصر على فلسطين بل ستتناول العالم أجمع وان عظمتها البالغة لن تكون لبني اسرائيل فقط بل لجميع بني الانسان . ومن يعش يرَ» (٢) .

وفي سنة ١٩٣٧ ، عندما تقدمت لجنة لورد بيل بمشروعها القاضي بتقسيم فلسطين الى دولة يهودية واخرى عربية ، رفع سعادة مذكرة باسم الحزب السوري القومي (٣) (وكان الحزب قد اكتشف امره سنة ١٩٣٥ بعد ان بقي سريا ما يقارب اربع سنوات) الى عصبة الامم عارض فيها المشروع لتجاهله «حقوق

---

١ ـ في الهند .

٢ ـ النظام الجديد (كانون الاول ، ١٩٥٠) «رسالة الزعيم الى لويد جورج» ص ٢٥ ـ ٣٦ .

٣ ـ النظام الجديد (كانون الثاني ، ١٩٥٠) «مذكرة الحزب السوري القومي الى العصبة الاممية والامم المتحدة» ، ص ٤٤ .

الشعب السوري في فلسطين » ، ورفض فكرة انشاء دولة يهودية ، معلنا ان تقسيم فلسطين سيؤدي الى قيام دولة يهودية «ويصبح في وسع رعايا هذه الدولة ان يدخلوا من اليهود العدد الذي يعود تقرير استيعابه اليهم هم وحدهم» . وقال ان قبول السوريين بتعيين حدود الوطن القومي اليهودي «يتطلب الاعتراف بهذا الوطن وتنازل السوريين عن حق سيادتهم على وطنهم ، وهو خسارة مادية لا يمكن الامة السورية ان تسلم بها لانها مسألة حياة وموت» . وقال ان القبول بمشروع التقسيم سيفتح ابواب الهجرة على مصراعيه ويقيم الدولة اليهودية العنصرية ويؤدي بالاخير الى طرد السوريين (الفلسطينيين) حتى من الارض التي خصصت لهم ، فالتقسيم «يخول اليهود زيادة هجرتهم وجعل اراضي الدولة اليهودية يهودية مائة بالمئة واتمام تكوين دولة يهودية على ارض سورية وطرد السوريين من الارض المحددة لدولتهم ليتشتتوا ...»

أما التعويضات المالية التي اقترح المشروع أن تقدمها بريطانيا والدولة اليهودية الى الفلسطينيين لتبادل السكان ، فقد اعتبرها سعادة «استملاكا اكراهيا لهذه الارض ... واهتضام حق الامة السورية وسيادتها على وطنها وخرق وحدة الوطن السوري وسلب سوريي الجنوب افضل اراضيهم ...»(١) .

وكان لصدور قرار التقسيم عن الجمعية العامة للامم المتحدة في ٣٠ تشرين ثاني ١٩٤٧ وقع أليم في نفس سعادة ، وأتى مؤكدا لكلامه حول عجز الطبقة الحاكمة في الدول العربية وفلسطين ــ «بخصوصياتها وحزبياتها الدينية والعشائرية» ــ عن مجابهة الخطر الصهيوني ودرء الكارثة . وفي مطلع نوفمبر

---

١ ــ النظام الجديد (كانون الثاني، ١٩٥٠) «مذكرة الحزب السوري القومي الى العصبة الامية والامم المتحدة» ، ص ٤٤ .

١٩٤٧ (وكنت ما زلت في بيروت) أصدر بلاغا (١) باسم الحزب أعلن فيه قيام حالة الحرب وفتح أبواب التطوع في صفوف «الجيش القومي الاجتماعي» :

«اني أعلن ان القوميين الاجتماعيين هم اليوم في حالة حرب من اجل فلسطين !

«على جميع نظار التدريب والمدربين ان يحصوا القوميين الاجتماعيين جرائد جرائد !

«على جميع المنفذيات العامة والمديريات التابعة لها فتح سجلات تطوع الذين يريدون الانضمام الى الجيش القومي الاجتماعي ليحاربوا تحت راية الزوبعة .

«ان القوميين الاجتماعيين يشكلون جيشا بنفسه فلينضم كل قومي اجتماعي الى جريدته وفرقته» .

حين صاغ الزعيم هذا البلاغ كنت معه في مكتب جريدة الحزب في خان انطون بك . لما انتهى من كتابته ارسلناه الى الطبع ونشر في الجريدة ذلك المساء ، وخرجنا سويا من المكتب، وكان صامتا عابسا . ولما وصلنا الى البيت كان بانتظاره عددا كبيرا من اعضاء الحزب، فأحاطوا به ووقفت انا جانبا أفكر بالوضع الذي صرنا فيه .

لقد وقعت الكارثة وليس بيدنا القوة الكافية لعمل شيء . انه يدرك ذلك تماما . الكلام عن الجيش القومي الاجتماعي واعلان حالة الحرب وفتح سجلات التطوع ما هو الا تخدير موقت يستر الضعف والعجز الذي نحن فيه . ها هو يقف وحيدا بين هذا الجمع الصاخب . كان حلمه ان يخلق منهم «غابات من الاسنة

---

١ ـ النظام الجديد (كانون الثاني ، ١٩٥٠) «بلاغ الزعيم في صدد تقسيم فلسطين» ص ٤٨ .

ترفرف فوقها رايات الزوبعة» أبطالا مثله ، لا يحيدون عن المطلب الاعلى قيد شعرة ، يجابهون الموت بقلب هادىء ورباطة جأش . ها قد مر على الحزب ما يقارب الخمس عشرة سنة ولم يزل حلما لم يحقق بعد. وأسأل نفسي : هل كان سعادة يتجاهل الواقع المر عن قصد ويسمح لنفسه ان يعيش في الحلم وكأنه اصبح واقعا حقيقيا ؟

ذهبت يوما ــ في مطلع ١٩٤٩ ــ الى بيته يوم الاحد في الصباح الباكر بناء على طلبه ، فلم اجده . وأخبرني احد الحرس انه ذهب الى الرملة البيضاء ليشاهد «مناورات احدى الفرق القومية الاجتماعية» . «مناورات» .. «فرق قومية اجتماعية» .. عجبت للامر . وأخذت سيارة تاكسي الى الرملة البيضاء ــ وكانت المنطقة تمتد من حيث يقوم اليوم اوتيل بيروت انترناشيونال الى حرش بيروت وما وراءه . ورأيت سعاده عن بعد واقفا على هضبة رملية يراقب من خلال منظار عسكري جمعا من اعضاء الحزب يقومون بتمرينات عسكرية بقيادة رجل لم أره من قبل . وكان سعادة يرتدي لباسا شبه عسكري ويرافقه عميد التدريب او ربما نائب عميد التدريب (لا أذكر تماما) .

هل كان يعتقد ان لديه جيشا ؟

بقيت في غرفة الجلوس الى ان انصرف الجميع . دعاني الى تناول طعام الغداء معه . وعندما جلسنا الى المائدة قال :

ــ الكل بيريد الحزب . نحارب بايش ؟ جيش الانقاذ قيادته اقطاعية ، والملك عبد الله لا يريد ان يتعاون معنا ، ولا يوجد بأيدينا لا سلاح ولا مال ...

كان يخاف ان يفرّط بالحزب بارسال ما كان يملكه الحزب من قوة عسكرية ضئيلة الى فلسطين . كان يريد ان يبدأ الحرب «الذين اعلنوا انهم هيأوا للحرب وأعلنوا انهم لها» وكان يتوقع لهم الفشل الاكيد لان تهديداتهم كانت بنظره «مجرد

شعوذة» وقياداتهم اقطاعيات متخلفة غير قادرة على شيء .

وأعلن ، بعد بضعة اشهر ، عندما انكشف عجز القيادات التقليدية :

«ان قوتنا تقف متأهبة ليوم اعلنه بارادة الشعب ولا نساق اليه سوقا بسياسة الخصوصيات والاختلاطات الغربية ..» .

لكن ذلك اليوم لم يأت . انسحب جيش الانقاذ وانهزمت الجيوش العربية ، ثم وقّعت معاهدات الهدنة بين اسرائيل ودول «المجابهة» سنة ١٩٤٨ و١٩٤٩ .

في رسالة بعث بها الي في شيكاغو في صيف ١٩٤٨ قال :

«ان اشد ألمي هو أن لا اكون في حالة تمكنني من انقاذ القضية التي كان ولا يزال ممكنا انقاذها . ولكن الرجعية لا تفقه الا لغتها ولا تريد ان تعرف غير اساليبها ، والشعب لا تزال اكثريته تحت وطأة النفسية الرجعية . فليس أمامنا الا ان نتألم ونستمر في عملنا واعداد الحركة السورية القومية الاجتماعية لمهمة تغيير المصير ...» (١) .

ووصلت به النقمة على الانظمة العربية واساليبها الى حد جعلته يتهمها بأنها حاربت في فلسطين لا لانقاذ فلسطين بل لاحتلال ما يمكن احتلاله من ارض فلسطين :

«ان الحرب في فلسطين لم تكن حربا مع اليهود ، ان الجيوش السورية والعربية والمصرية التي زحفت على فلسطين زحفت لا لتحارب اليهود قط بل زحفت لتحارب اهل فلسطين في ارض فلسطين ... ان الحرب في فلسطين كانت نزاعا بين دويلات على ما تبقى من فلسطين وليس على ما أخذ اليهود من

---

١ ـ رسالة من الزعيم الى هشام شرابي بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٤٩ .

فلسطين » (١) .

واعتقد انه وصل في تلك الفترة الى قناعة كاملة بأن طريق الخلاص الوحيد هو في استلام مقاليد الحكم في احدى الـدول السورية وانشاء الدولة القومية الاجتماعية فيها .

«لا يمكننا ان نصل الى صيانة مصلحة الامة ولا الانتقال الى الصراع الخارجي لصيانة مصالح الامة الخارجية قبل ان نتمكن من انهاء الحرب الداخلية . انها حرب عنيفة ، انها حـرب بين ارادة الامة وبين الارادات الخصوصية» .

وفي خطاب القاه قبل مصرعه ببضعة اسابيع هاجم الطبقات الحاكمة ونادى باقامة الدولة القومية الاجتماعية واصفا هـذه الطبقات الحاكمة بـ «اليهود الداخليين» ومعلنا ان الصهيونيين لم ينتصروا على الامة السورية بل على «يهودها الداخليين» وقال:

«كما اعلنت قيام تلك الدولة (اليهودية) ، لاني كنت ارى ان التخاذل السوري سيوجدها حتما ، أعلن اليوم محق تلك الدولة عينها . اني اعلن محق تلك الدولة ليس بقفزة خيالية وهمية ، بل بما يعده الحزب القومي الاجتماعي من بناء عقدي وحزبـي يجعل سورية قوة حربية عظيمة تعرف ان انتصار المصالح فـي صراع الحياة يقرر بالقوة بعد ان يقرر بالحق» (٢) .

وأصبحت الان رؤيته واضحة : «الدولة السورية القوميـة الاجتماعية» هي التي ستحرر فلسطين وليس «الحكومـات القزمية» غير الجديرة «بالاضطلاع بمسؤولية تقرير المصـير القومي» . ولاول مرة يعلن سعادة ان الحزب يدرب اعضـاءه تدريبا عسكريا ، وانه سيصبح قادرا على قتال اسرائيل وبالتالي

---

١ ــ النظام الجديد (كانون اول ، ١٩٥٠) «فقرات من خطاب الزعيم فـي جزين ١٥ اكتوبر ١٩٤٨» ص ٥٠ ــ ٥١ .

٢ ــ النظام الجديد (كانون الاول ، ١٩٥٠) ص ٥٦ .

الانظمة التي «خلقت» اسرائيل .

«ان الدولة اليهودية تخرّج اليوم ضباطا عسكريين وان الدولة السورية القومية الاجتماعية التي اعلنتها سنة ١٩٣٥ تخرّج هي ايضا بدورها ضباطا عسكريين ! ومتى بدأت جيوش الدولة الجديدة الغريبة تتحرك بغية تحقيق مطامعها الاثيمة والاستيلاء على بقية ارض الآباء والاجداد ، ابتدأت جيوشنا تتحرك لتطهر ارض الآباء والاجداد وميراث الابناء والاحفاد من نجاسة تلك الدولة الغريبة .

«هذا ليس آخر جواب نعطيه ، لان الجواب الاخير سيكون في ساحة الحرب متى قررت القيادة القومية اعلان الحرب»(١) .

- ٢٩ -

كنتُ في كل صيف ، منذ ان الحقني ابي في السابعة من عمري طالبا داخليا بمدرسة الفرندز برام الله حتى تخرجي من الجامعة الاميركية وسفري الى الولايات المتحدة في سنة١٩٤٧ ، أمضي عطلتي الصيفية ، او الجزء الاكبر منها ، في عكا عند بيت جدي .

عكا بالنسبة الي كانت (وما تزال) أجمل مدينة في العالم .. فيها أمضيت القسم الاكبر من طفولتي وأجمل ايام صباي . تقع عكا في الرأس الشمالي من خليج حيفا . اسمها تعريب الاسم الفرنسي St. Jean d'Acré المستعمل منذ ان احتلها الصليبيون في القرن الحادي عشر . ولا يزال أثر الصليبيين واضحا في المدينة القديمة ، وخاصة في السور المنيع الذي

---

١ ـ المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

يحيط بها . والى الان تبدو عكا من البحر او من البر (من جهة تل نابليون ، الهضبة الاصطناعية التي بناها نابليون سنة ١٧٩٩ لقذفها بالمدفعية) ، وكأنها مدينة صليبية نسيها الزمن ، وما زال السور حولها قائما على حاله ولم يتغير فيه شيء . وقد شجع العثمانيون بناء المنازل خارج السور لتوسيع البلدة ، فأقاموا «جنينة البلدية» في مطلع القرن ، وهي حديقة كبيرة على طراز الحدائق العامة الاوروبية ، في وسطها مقصف لفرقة الموسيقى التي كانت تعزف كل يوم جمعة بعد الظهر الاناشيد والمارشات العسكرية . وبنى العثمانيون محطة السكة الحديدية مقابل جنينة البلدية بمحاذاة الشاطىء خارج البوابة الشرقية . وكثيرا ما ركبنا القطار العثماني الصغير في رحلاتنا الى حيفا التي كانت تستغرق خمسا وأربعين دقيقة . والى جنوب المحطة يقع الشاطىء الرملي حيث كنا نسبح ايام الجمعة والاحد . لقد زرت انحاء مختلفة من العالم ، وشاهدت شواطىء رملية عديدة ، الا اني لم أرَ شاطئا يضاهي شاطىء عكا بجماله ورونقه . الرمل فيه أبيض ناصع ومياه خليجه نقية زرقاء وأمواجه هادئة عريضة تتكسر برفق ونعومة . وكان الشاطىء دائما خلوا من الناس ، فأهل عكا لا يحبون السباحة ، ويفضلون تمضية فترة الراحة في الجلوس على الشرفات او في المقاهي او في التمشي ساعة الغروب . وهكذا ترك لنا الشاطىء نستمتع به كما نشاء ، لا يشاركنا به الا عدد ضئيل من الزائرين يأتون من حيفا ، وجنود المعسكر البريطاني بالقرب من المدينة الذين كانوا يسبحون ساعة واحدة بعد ظهر كل يوم .

وكان في المدينة داران للسينما ، احداهما تقع في البلدة القديمة وهي سينما البرج ، والاخرى في المدينة الجديدة وهي سينما الاهلي . كانت سينما البرج مجرد قاعة كبيرة بنيت فوق السور المطل على الخليج بالقرب من بوابة السور الشرقية . كنا نشاهد فيها الافلام الاميركية لرعاة البقر (كاوبوي) او البوليسية

فنخرج من عالم الخيال الاميركي لنجد انفسنا فجأة في القرون الوسطى تحيط بنا الاسوار والتحصينات الصليبية والاسلامية . كنا نسمع وقع أقدامنا في الازقة القديمة الخالية من المـــارة عندما نرجع الى بيوتنا فنصل اليها في منتصف الليل والجميع نيام .

كانت حجرتي تطل على البحر مباشرة ، وكان فراشي يقع بالقرب من النافذة ، فكنت أغفو وأستيقظ على هدير الامواج. في الصباح كنت أتبين من صوت وقع الامواج على الشاطــىء الصخري اذا كان البحر هائجا او هادئا ، يصلح لصيد الاسماك او للسباحة .

كنا نصطاد الاسماك في عطلة نهاية الاسبوع ، فكان رفيقاي في الصيد ، كامل وأكرم ، لا يعودان من عملهما الا بعد الظهـر عندما لا ينفع الصيد . وفي عطلتهما الاسبوعية كنا نستيقــظ باكرا ونهرع الى الشاطىء فنستمر في الصيد حتى مطلـــع الشمس ، ثم نتناول الفطور ، ونذهب الى الشاطىء الرملـــي بالقرب من المحطة للسباحة وركب الحسكة حتى آخر النهار . وكان كامل ، اذا كان الطقس خلال الاسبوع مناسبا لصيـــد الاسماك ، يتغيب عن عمله بحجة المرض ، ونمضي ساعات فـــي الصيد نتنقل من مكان الى آخر حتى الظهيرة . تلك كانت أسعد ايام حياتي بلا منازع . كنا احيانا نتصيد سمكا كثيرا من نــوع القرّاص او البوري وأحيانا لا نصطاد شيئا . وكنا اذا وفقنا في الصيد نتمتع في المساء بعشاء فخم من السمك المقلي مع سلطة الطحينة والبقدونس والخبز المقلي والحمص والبابا غنوج تعده ام كامل ونتناوله فوق سطح بيتهم . وبعــد العشاء كنا نذهب الى السينما او نجلس في مقهى حبيبو ، نشرب الكازوز ونلعب طاولة الزهر ونتبادل النكت ونراقب الفتيات يتمشين متشابكات الاذرع يتضاحكن ويسترقن النظر بفنج .

كانت جدتي ـ رحمها الله ـ تحبني كثيرا . فهي لم تنجب صبيانا ، وكنت بعد جدي ـ رحمه الله ـ الرجل الوحيد في حياتها . كان يساورها القلق عندما تراني أعزل نفسي كل يوم لاقرأ واكتب ساعات متواصلة ، فقد كان ذلك في نظرها شيئا غير طبيعي . وكان يقلقها على الاخص جلوسي في الشرفة منفردا انظر الى البحر مفكرا لا ابدي حراكا . وكانت تأتي الي في الشرفة وتسألني بحنو :

ـ ليش قاعد هيك لوحدك يا حبيبي . رأسك بيوجعك . حاسس بسخونة ؟

كان علاجها الوحيد لكل الامراض ـ النفسي منها والجسدي ـ هو البابونج ، وكانت تفرضه على كل أفراد العائلة، وخصوصا عليّ وعلى جدي . والبابونج عشب بري يغلى بالماء ويصبح لونه كلون الشاي الا انه شديد المرارة . وكان نصيبي منه في اليوم على الاقل ثلاثة او اربعة فناجين ، أتناولها غصبا عني نزولا عند الحاح جدتي . وكانت جدتي تنتظر قدومي ، فاذا رأتني نازلا من السطح او عائدا الى البيت ، تسكب فنجانا من البابونج وتجابهني به قائلة :

ـ اشرب هالفنجان يا حبيبي ، اشرب شراب العافية ..

ـ لكني مش مريض يا تيتا .. لا بطني بيوجعني ولا راسي ما له شي ..

ـ اشرب فنجان كرمال ستك .. نص فنجان ..

وعندما اقول لها ان كثرة البابونج تسبب لي امساكا في المعدة ، تجيب دون تردد :

ـ شو هالحكي . مين عمره قال انه البابونج بيعمل امساك! بالعكس ، البابونج بمشي المعدة وبيحمي من كل الامراض ..

وعندما أشكو من جريان المعدة ، كانت تأتيني بالبابونج معلنة :

ـ ما في مثل البابونج بيوقف المعدة !

وبالاضافة الى الحماية الطبية الشاملة التي كانت توفرها لي بواسطة البابونج ، كانت جدتي تسبغ علي" حماية روحية قوية بواسطة الصلاة والدعاء المستمرين . كانت تعتقد اعتقادا راسخا بأني مدين بحياتي ، لدعاءاتها وصلواتها ، واني لم اكن لانجو من مخاطر العالم الخارجي ــ الذي لم تكن تعرفه الا من نافذة بيتها أو من «الزيارات» القليلة التي كانت تقوم بها الى بيوت العائلات التي هي ، بنظرها ، في منزلتها الاجتماعية ــ الا بفضلها . وكان يؤلمها تقاعسي في القيام بالفرائض الدينية ، فكانت تحاول التعويض عن ذلك بمضاعفة عباداتها من اجلي . وحاولت مرة ، عندما كنت في العاشرة او الحادية عشرة، إصلاح أموري الدينية بالاسلوب المباشر (كانت تلك المحاولة الاولى والاخيرة !) . فأرسلتني الى الشيخ في الجامع الصغير المجاور لبيتنا لأتعلم أصول الدين . ولسبب لا أعرفه حتى اليوم ، جعل الشيخ موعد درسنا عند الفجر من كل يوم . فكنت أستيقظ كل يوم في الساعة ــ اراحك الله ــ الرابعة او ما يقارب؛ ، وظلام الليل ما يزال مخيما ، فأرتدي ثيابي بسرعة وأركض الى الجامع فأجد الشيخ ينتظرني وهو يسوك أسنانه . فيجعلني اقرأ في كتاب ــ نسيت عنوانه ــ يتناول العبادات والفرائض مثل الوضوء والصلاة والصيام ، وعندما انتهي من قراءة الدرس يأخذ في تفسير ما قرأت .

لم تدم دراستي الدينية طويلا . وكان سبب انقطاعها رفضي التيمم . (وهو الوضوء بالتراب بدلا عن الماء) . فقد وصلنا فجر احد الايام الى موضوع التيمم ، وكنت لا اعرف ما هو التيمم ولم أسمع به قط ، فأخذ الشيخ يشرح لي الظروف التي يصح فيها اللجوء اليه بدل الوضوء بالماء .

ــ هذا الرسم يبين الظرف الذي ينبغي علينا ألا نعرض فيه انفسنا للتهلكة . فيه يصح التيمم .

يقول ذلك وهو يدل باصبعه على رسم في الكتاب يمثل اسدا أشعث الرأس يقف غاضبا امام بركة ماء في الصحراء .

ـ هذا الرسم يبين الطريقة الصحيحة للتيمم .

ويشير الى رسم آخر يمثل رجلا يعفر وجهه بغبار يضاهي عاصفة رملية صغيرة ، ويقف بعيدا عن الاسد وبركة الماء . وأمضينا بقية الدرس في معالجة التيمم والظروف التي يسمح فيها باستعماله . وهكذا اذا كنت مسافرا في الصحراء وحان موعد الصلاة ووجدت ان اسدا أشعث الرأس يقف بينك وبين ماء الوضوء ، تعلم ما يجب عمله ... لم تلح عليّ جدتي بالعودة الى الشيخ بعد ان اخبرتها عن الاسد والغبار والظروف التي تسمح او لا تسمح بالتيمم ، وخافت ، ان استمر الشيخ في تلقيني ، ان أفقد ما تبقى في نفسي من ايمان ..

كانت جدتي نحيلة الجسم ، ذات بشرة بيضاء وشعر يميل الى اللون الاحمر وعينين بلون بني فاتح . ولا شك انها كانت في غاية الجمال في صباها . كانت شخصيتها قوية وكان جدي لا يعارضها بشيء ويرضخ لاوامرها ، بالرغم من معاندته لها احيانا في موضوع التدخين والقهوة ـ فقد كانت تسمح له بتدخين نصف سيجارة وارتشاف نصف فنجان قهوة بأوقات معينة وحسب برنامج يومي دقيق . وكان يحاول دائما الفوز بامتيازات اكبر ، كتدخين سيجارة بكاملها او شرب فنجان قهوة بكامله . كانت حياتهما هادئة سعيدة ، خصوصا بعد انتقالهما الى بيتهما الجديد .

كانت جدتي دائما تحلم بامتلاك بيت خاص بها . وتحقق حلمها في منتصف الثلاثينات بعد ان وفرت من المال ما يكفي لبناء بيت كبير ، عهدت ببنائه الى مهندس ناشىء اسمه اميل بستاني ـ الذي اصبح بعد الحرب العالمية الثانية اكبر مقاولي البناء في العالم العربي . وبني البيت على أحدث طراز ، بالرغم من ان الحمام لم يكن يشتغل على ما يرام .

كان نزوح جدي وجدتي عن بيتهما في سنة ١٩٤٨ اقسى تجربة مرت بهما في حياتهما ، وكانت السنوات الاخيرة من حياتهما ملأى بالحزن واليأس والضياع . ففقدت جدتي مرحها وحيويتها وفقد جدي رشده ، ولم يعد يتعرف الى الذين حوله. في بيروت اقاما مع خالاتي ووالدتي واخي الاصغر في بيت مؤلف من حجرتين تملكه سيدة تقرب جدتي قرابة بعيدة ..

توفي جدي في سنة ١٩٥٠ . قبل وفاته كان يحاول بين آن وآخر التسلل من البيت في غفلة عن اهله ليرجع الى عكا . وكان عندما يمسكون به في الشارع يقول :

ـ انا بس راجع لبيتي .. انا بيتي في عكا .. ليش ما بتخلوني ارجع لبيتي ؟

ويأخذ مفتاحا من جيبه ويقول :

ـ ما بتصدقوني .. هذا مفتاح بيتي ..

وعندما يعودون به الى البيت يجلس صامتا والدموع تسيل من عينيه وتبلل لحيته التي لم تعد جدتي تقصها له كما كانت تفعل في عكا ، ويرفض الكلام زمنا طويلا .

وتوفيت جدتي بعده بثماني سنوات .

ـ ٣٠ ـ

تبرز امام مخيلتي فيهذه اللحظة صور ووجوه من الماضي.. وجه انطون سعادة وهو يخطب في جمع حاشد ...

ووجه ميخائيل نعيمة ، وهو يقرأ في ضوء الشمس الغاربة ...

ووجه شارل مالك ، وهو يحاضر في قاعة الدرس ...

وتظهر امامي وجوه اخرى ، احببتها وغابت عني منذ زمن طويل ، وجوه توم شي وهيوجو ليمنج وجاكمهانج سينج ويحيى

حمصي وفؤاد نجار ...
ووجهان آخران لم ارهما ابدا في حياتي ، لا يفارقانني .. وجه نيتشه ووجه كيركيجارد ...

- ٣١ -

قبل سفري الى الولايات المتحدة ببضعة ايام توقفت في عكا لاودع بيت جدي ووالدتي وكامل وأكرم .
سافرت من بيروت بالسيارة في يوم شديد البرودة من شهر كانون الاول . توقفنا قبل المغيب في نقطة التفتيش البريطانية في رأس الناقورة . وبعد التفتيش انحدرت بنا السيارة نحو قرية الزيب ، وكانت الشمس على وشك الغياب . وتبينت في ضوء الغسق سور عكا ومئذنة جامع الجزار ترتفع فوق المدينة في السماء الرمادية ، ومن ورائها حيفا ، وجبل الكرمل يمتد الى عرض البحر . فتحت نافذة السيارة قليلا وأحسست بالريح الباردة تلفح وجهي ، وجعلت اراقب أمواج البحر القلقة التي ذكرتني بأيام الصيف والصيد والسباحة والمرح . رأيت مركبا شراعيا تملأ الريح شراعيه ويشق العباب تاركا وراءه رذاذا أبيض طويلا ، في طريقه من صيدا او طرابلس الى عكا .
كانت الطريق خالية ، الا من باص او باصين من باصات شركة «ايجد» اليهودية يسرعان في طريقهما الى نهاريا ، المستعمرة اليهودية الوحيدة في الجليل الغربي ، قبل هبوط الظلام . وعندما بدأت الاضواء تتلألأ في البيوت دخلنا شارع عكا الرئيسي . في قهوة حبيبو لم يكن هناك الا بضعة اشخاص يلعبون الطاولة ، وفي مدخل سينما الاهلي لم أر احدا ، ربما لان موعد الفيلم لم يحن بعد او لان الطقس كان باردا .
في البيت كان جدي قد أوى الى فراشه ، فجلست مع جدتي وخالاتي ووالدتي ، وكانوا جزعين حزينين لفراقي .

تناولت عشاء خفيفا من اللبنة والجبنة والزيتون ـ كعادتي منذ الصغر في عكا . وبعد العشاء ـ وكانت الساعة قد قاربت السابعة ـ ارتديت معطفي وخرجت للقاء كامل وأكرم في بيتهما بالقرب من المقهى .

كانا بانتظاري خلف الباب ، ليفاجئاني باستعداداتهما العسكرية ، فقد ارتدى كل منهما خوذة عسكرية ، مثل التي كان يستعملها الجنود البريطانيون ، وأمسك بندقية صيد قديمة .

وقال كامل بعد ان جلسنا :

ـ هل سمعت بالحادثة .

ـ اية حادثة ؟

وأخبرني عن مهاجمة اهل عكا لقافلة يهودية كانت بطريقها من حيفا الى نهاريا . اقام عدد من الشباب المسلحين كمينا عند مفترق شارع بيروت ـ صفد وانتظروا حتى وصلت ، وكانت مؤلفة من خمس مصفحات وبضع شاحنات وانهالوا عليها بالرصاص. كان هدفهم تعطيل السيارة الاولى التي كانت تترأس القافلة ثم مهاجمة باقي السيارات التي تكون قد اضطرت عندئذ الى الوقوف . ولكن الرصاص لم يخترق الدرع الفولاذي للمصفحة التي ترأست القافلة ، فاستمرت في التقدم بالرغم من اختراق الرصاص دواليبها الكاوتشوك . وكان السائق ـ او رفيقه ـ يطلق النار على الخنادق الى جانبي الطريق بين الحين والآخر . وهنا صاح احد الشبان في احد الخنادق :

ـ سمعان الغفري ، اين هو . ابعثوا وراء سمعان الغفري .

وكان سمعان الغفري يقتني البندقية الوحيدة في عكا الحديثة والسريعة الطلقات . ووجدوه جالسا في كمين يقع في الناحية الاخرى من مفترق الطريق . فقام في الحال وقطع الشارع الى حيث كانت المصفحة بازاء جنينة بيت حبايب . وقفز الغفري فوق سور الجنينة وسار بمحاذاته منحني الظهر

حتى وصل الى حيث كانت تسير المصفحة ببطء ، فأسند بندقيته الى حافة السور واطلق عليها النار . وما هي الا لحظات حتى انبعثت منها النيران وقفز سائقها ورفيقه الى الشارع رافعين ايديهما مستسلمين . واخذ المسلحون يطلقون النار من جميع الجهات على السيارات الاخرى التي توقفت . وما هي الا دقائق حتى اخذ اليهود يقفزون من السيارات رافعين أيديهم فوق رؤوسهم . واستسلمت جميع سيارات القافلة ما عدا المصفحة الاخيرة التي استمرت باطلاق النار ، فأحاط بها المسلحون وركزوا عليها نيران بنادقهم . وبعد قليل توقف اطلاق النار من المصفحة وأخذ سائقها يلوّح بمحرمة بيضاء . فقام الجميع من خنادقهم مهللين ، ولكنهم ما كادوا يخطون بضع خطوات حتى انصب عليهم الرصاص من المصفحة ، فقتل وجرح عدد منهم وهرع الباقون الى خنادقهم . وأخذوا يطلقون النار ثانية على المصفحة حتى اشعلوا فيها النار وقتلوا من فيها .

وسألت كامل وأكرم عن مصير الاسرى، فقالا انهما لا يعرفان ما حل بهم .

- ٣٢ -

غادرت عكا الى القدس في الصباح الباكر من اليوم التالي . وكان كامل وأكرم قد غادرا الى عملهما في حيفا .

لا انسى ما قاله لي كامل وهو يودعني في الليلة السابقة :

ـ عندما ترجع من اميركا تكون فلسطين قد تحررت .. الدول العربية كلها معنا .. جيش الانقاذ قادر على احتلال فلسطين بمفرده ..

بعد وصولي الى شيكاغو بحوالي شهرين استلمت من كامل رسالة كان في داخلها صور فوتوغرافية له ولاكرم على سطح بيتهما ، وقد لبسا خوذتيهما وحملا بندقيتيهما ووقفا ينظران

الى الكاميرا بثقة واعتزاز . لكن الرسالة المرفقة لم تعكس الثقة التي ظهرت في الصور : معظم السكان قد رحلوا عن المدينة (ريثما تنتهي الاضطرابات ، كما قال كامل) فيما شدد اليهود هجماتهم على حيفا والقرى المجاورة ، وحصنوا نهاريا ومستعمراتهم على الحدود . لم يكن في الرسالة اي اثر للمرح وروح النكتة اللذين عهدتهما في كامل .

وفي نيسان ١٩٤٨ حدث المستحيل .. احتل اليهود عكا وطردوا ما تبقى من سكانها ، الا الذين التجأوا الى المدينة القديمة ..

عائلة جدي نزحت عند بدء الهجوم اليهودي، اما كامل وأكرم فبقيا في عكا الى آخر دقيقة ، ولم يتركاها الا بعد ان دخلت القوات اليهودية الى ضواحيها . فحملا ما يمكن حمله وغادرا مع امهما وأخويهما الصغيرين الى اقرب بلدة عبر الحدود اللبنانية .

ماذا حدث ؟ في ايار كانت المعنويات ما زالت قوية ، فقد قدمت للدفاع عن عكا فرقة من جيش الانقاذ بقيادة أديب الشيشكلي ، فتحمس الناس وأخذ اللاجئون اليها من حيفا يأملون في العودة الى بيوتهم . ولكن سرعان ما انسحب الشيشكلي بفرقته ، بناء على أوامر القيادة ، فعم الناس اليأس والقنوط ثانية . وكان الغذاء قد بدأ ينفذ كما قاربت ذخيرة المسلحين على النفاذ . اما الخبز ورصاص البنادق فكان يباع في السوق السوداء بأسعار باهظة . وكل وعود الشيشكلي بارسال العون والامدادات لم تحقق . وفي هذه الاثناء وقعت معركة بين قوات الشيشكلي والقوات اليهودية بالقرب من صفد ، فأرسل الشيشكلي الى عكا يطلب العون ، فهرع الى نجدته مسلحو البلدة في السيارات المتبقية . ولما عادوا ، بعد بضعة ايام ، نقل الجرحى الى جامع الجزار ، حيث توفي بعضهم لعدم توفر الادوية وأسر بعضهم الآخر الذي لم يتمكن من الفرار عند سقوط المدينة . اما الشيشكلي فقد انسحب بما

تبقى من فرقته عبر الحدود اللبنانية تاركاً الجليل الغربي بكامله تحت رحمة اليهود .

في اول الامر التجأ كامل وأكرم وعائلتهما الى قرية رميش، عبر الحدود اللبنانية ، حيث استأجرا بمبلغ باهظ غرفة صغيرة في بيت قديم . وامتلأت القرية باللاجئين ، فامتنع اهلها بعد قليل عن تقديم المأكل والمشرب اليهم . ثم انقطعت المياه كليا عن القرية وصارت صفيحة الماء تباع بجنيهين . عندئذ قرر كامل وأكرم العودة الى عكا واستطلاع الوضع فيها . فتسللا عبر الحدود الى ان وصلا اليها قبل المغيب . فلم يجدا احدا في الطرقات ، فذهبا مباشرة الى بيت جدي ، الذي اقامت فيه عائلة تمت بصلة قربى الى كامل وأكرم . ودخلا البيت ، وكان في ظلام دامس ، اذ ان الكهرباء والماء قد انقطعتا عن البلدة .

واخبرهما قريبهما عادل عن الوضع :

ــ كل الناس هربت . والذين بقوا خارج السور اجبرهم اليهود على مغادرة البلدة او الالتجاء الى المدينة القديمة .

وسأله كامل عن حالة الغذاء .

ــ لا يوجد اكل . الناس كلها جائعة .

فقال كامل :

ــ وانتم : هل ستبقون ؟

ــ اين يمكننا الذهاب ومعنا اطفال ؟ لا يوجد عندنا اهل لا في الاردن ولا في سوريا ولا في لبنان . سنبقى .

ثم تجول كامل وأكرم بصحبة عادل في الطريق المجاورة ، فلم يروا الا قططا تموء جوعا . واقترب كامل من احدى القطط مداعبا ، فقوصت ظهرها ، وكشرت عن أنيابها ، كأنها تبغي مهاجمته ..

وبدا واضحا ان العودة الى عكا أمر مستحيل . فودع كامل وأكرم أقاربهما وعادا الى رميش .

قبل سقوط عكا ببضعة ايام احتل عدد صغير من المسلحين، ومن بينهم سمعان الغفري ، قلعة البوليس البريطاني (Tiggert Building) خارج السور ، واستمروا في مقاومة اليهود عدة ايام وكبدوهم خسائر كبيرة ، ولم يتوقفوا عن القتال الا بعد ان نفذت ذخيرتهم ، وقتل بعضهم وتمكن بعضهم الآخر من التسلل الى داخل السور ثم الهرب الى لبنان عن طريق البحر . وقرأت خبر سقوط عكا في اليوم التالي ، في جريدة النيويورك تايمس ، وكنت جالسا على مقعد في الميدواي في شيكاغو اراقب الاولاد يلعبون البيسبول .

يقول الذين زاروا عكا مؤخرا انها اليوم مدينة كبيرة تمتد اميالا خارج السور . اما بيت جدي فما يزال قائما وتسكنه عائلة يهودية . وقد ارسل الي مؤخرا صديقي اليهودي اوري ديفز صورا فوتوغرافية عنه ، ولم أتعرف اليه في بادىء الامر ، فقد اختفت الاشجار من حوله وأغلقت نوافذه بالحجارة من جهة الشارع ، وظهر لي كما تظهر الاشياء في الاحلام ، معهودة، لكنها في الوقت نفسه غريبة آتية من عالم آخر . ولا يزال الجامع المجاور ، الذي اخذت فيه اول دروسي القرآنية ، قائما كما هو الا ان الشيخ قد غادره وأمسى مهجورا . وقد حرّم على من تبقى من السكان العرب السكن في المدينة الجديدة (خارج السور) واجبروا على الاقامة في المدينة القديمة (داخل السور) التي اصبحت بالنسبة لليهود قصبة (Casba) يزورها السواح الاجانب ليشتروا منها الحاجيات المصنوعة محليا ويتفرجوا فيها على «سكان اسرائيل العرب» .

الفصل الثالث

- ١ -

منذ وصولي الى شيكاغو والثلج يتساقـط باستمرار ...
يقولون ان الشتاء هذه السنة اكثر قسوة من المعتاد . لكن الامر بالنسبة الي ليس فقط مجرد برد . فأنا لا استطيع الخروج الى الشارع اطلاقا ، ففي اللحظة التي أخرج فيها من الباب تلفحني الريح الجليدية فيتجمد أنفي وتكاد أذناي ان تنخلعا .

اين انت يا وطني ! اين سماؤك الزرقـــاء وهواؤك الطيب وشمسك الدافئة !

في الاسابيع الاولى لم اغادر الانترناشونال هاوس الا فـي الضرورة القصوى ـ للذهاب الى الـمدرس او الى المكتبة ، او عندما ترتفع الحرارة قليلا فوق درجة الصفر ـ الى المقهـى الصغير ـ مقهى «الملعقة القذرة» كما كنا نسميه ـ عبر الـ I.C لتناول فنجان من القهوة مع قطعة من الابيل باي .

في الفصل الاول ــ فصل الشتاء ١٩٤٨ ــ تابعت دراسة اربع مواد ، ثلاث منها في دائرة الفلسفة وواحدة في دائرة الدراسات الالمانية .

اول مادة انتقيتها في الفلسفة كانت «فلسفة ارسطو» التي يدرّسها ريتشارد ماكيون ، أشهر الفلاسفة الاميركيين في حقل الدراسات اليونانية واللاتينية في تلك الحقبة ، والمادة الثانية كان عنوانها «الفلسفة البرجماتية» (من بيرس الى ديوي) التي يدرّسها تشارلز موريس ، احد أئمة الفلسفة البرجماتية في الولايات المتحدة وأستاذ الفلسفة في جامعة شيكاغو وجامعة هارفرد بالوقت ذاته . وكانت المادة الثالثة في «فلسفة كيركيجارد» ويدرّسها جان فال ، استاذ الفلسفة في السربون وكان استاذا زائرا تلك السنة في جامعة شيكاغو ، وهو احد اركان المدرسة الوجودية في فرنسا ومؤلف كتاب «دراسات كيركيجاردية» (١) الذي لا يزال المرجع الاول لفلسفة كيركيجارد والفكر الوجودي . اما المادة التي اخذتها في دائرة الدراسات الالمانية فكانت في فلسفة نيتشه ويدرسها ارنولد برجسترسر ، وهو استاذ الماني مناوىء للنازية قدم الى الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية ، حقل اختصاصه في العلوم الاجتماعية، ونشأت بيني وبينه فيما بعد صداقة قوية .

- ٢ -

كان ماكيون يعقد درسه في قاعة متوسطة الحجم في الطابق الثاني من بناية سويفت هول المخصصة للفلسفة . وكان

---

1 — Etudes Kierkegaardienne .

درسه الاول الذي أحضره في جامعة شيكاغو فيه اثني عشر او ثلاثة عشر طالبا وطالبة ، كلهم اميركيون ، من طلبة الماجستير او الدكتوراه . ما ان جلست في مقعدي حتى دخل ماكيون قاعة الدرس وتوجه نحو المنصة وأخذ ينظر الينا من وراء نظاراته السميكة تطوف على شفتيه ابتسامة باهتة ، كأنه يستهزىء بنا. ثم جعل يعد اوراقه ويرتب الكتب التي أحضرها معه . وأنا لا أصدق انني في صفه وأحد طلبته وأدرس عليه الفلسفة . كان في مطلع الخمسينات من العمر ، يميل لون بشرته الى السمرة، معتدل القامة ، ذو شخصية جذابة ـ كما تكشف لي فيما بعد. وكان قد عين ممثلا للولايات المتحدة في اليونسكو ، الذي كان سيعقد اجتماعه الاول في بيروت سنة ١٩٤٨ (وبني «الاونسكو» خصيصا لهذا الاجتماع) . وكتبت الى اصدقائي في بيروت اعلمهم بمقدم ماكيون ، فاستقبلوه استقبالا حارا ، ودعاه فؤاد الى مطعم العجمي وقدم اليه عددا من الكتاب والمهتمين بشؤون الفلسفة .

بعد المحاضرة في ذلك اليوم ذهبت الى مكتبة الفلسفة ـ وكانت ما تزال منفصلة عن المكتبة المركزية وتحتل طابقا في سويفت هول ـ وطلبت مؤلفات ماكيون ، ولم تكن كثيرة، وقرأتها كلها ، بصعوبة كبيرة في بادىء الامر ، ثم بتفهم متزايد . وبعد مضي اربعة او خمسة اسابيع صار بامكاني متابعة محاضراته وتفهمها بسهولة . وكان ماكيون يطلب الينا اعتماد النص الفلسفي مرجعا اولا وأخيرا في دراستنا، وعدم استعمال مراجع المعلقين والباحثين الا بعد التمكن من النص تمكنا كاملا . وكان ذلك بالنسبة الي بمثابة تغيير جذري في أسلوب دراستي وقد اتبعت الاسلوب نفسه بعد ان اصبحت استاذا .

كان لمنهجية ماكيون ، اثر عميق في توجيهي الفكري ، فأصبحت اكثر قدرة على التمييز بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي ، وعلى استعمال ادوات التحليل المنهجي بدقة

متزايدة . وقد عزز هذا التوجيه درس اخذته في الفصل اللاحق (فصل الربيع) في «قراءة النصوص» على يد احد الاساتذة الشبان في دائرة الفلسفة اسمه بري . وكنت أجتمع معه مرة في الاسبوع نقرأ فيها كتاب «الاخلاق» لارسطو وكتاب «اللفيثان» لهوبس . وكان أسلوب درس «قراءة النصوص» هو ان يقرأ الطالب على نفسه النص المقرر ثم يقرأه ثانية ، جملة جملة ، مع استاذه ، فيعلق الاستاذ على القراءة ويحلل المفهومات والمقولات الواردة في النص ، الى ان يتوصل الطالب بالطريقة الجدلية الى تفهم النص و«لغته» تفهما كاملا . وفي اثناء فصل بكامله قرأنا على هذا المنوال عشر صفحات في كتاب «الاخلاق» وما لا يزيد عن خمس عشر صفحة من كتاب «اللفيثان» .

وما ان مرت بضعة اشهر حتى ابتدأت أستوعب مبادىء الثقافة الليبرالية النقدية التي فشلت الجامعة الاميركية في تلقيني اياها . وبدأت أتقن ايضا ذلك الفن الصعب ، فن القراءة وفن الاصغاء .

- ٣ -

كان جان فال رجلا قصيرا ، صغير الجسم ، شكله كشكل سارتر ، يضع على عينيه النظارات المستديرة كالتي يستعملها سارتر (الا انه لم يكن في عينيه حول) . في قاعة الدرس يجلس على كرسيه وقدماه تكادان لا تمسان الارض لقصرهما . ومع انه كان يتكلم الانكليزية بطلاقة ، فان رطانة لفظه جعلت كلماته مبهمة وأحيانا غير مفهومة .

وكان أسلوبه في التدريس هو الاسلوب الاوروبي الكلاسيكي القائم على المحاضرات وتجنب النقاش في قاعة الدرس . كان يجلس الى طاولته ويأخذ بالقاء محاضراته الى نهاية الدرس دون توقف ودون ترك مجال لطرح الاسئلة او تبادل الآراء .

واتضح لي ، من خلال محاضرات فال ، ان ما درسته في بيروت حول فلسفة كيركيجارد والفلسفة الوجودية كان شيئا طفيفا لا يذكر ، تماما كالذي درسته حول فلسفة ارسطو . تبين لي ان دراسة كيركيجارد تتطلب معرفة فلسفة هيجل ، وكان المامي بفلسفة هيجل لا يتعدى بعض الافكار العامة . ولم يذكره لنا اساتذتي في بيروت . لعل ذلك عائد الى عدم اطلاعهم على فلسفته .

كان فال يأخذ النص ويمحصه كلمة كلمة . ثم يبدأ بطرح الاسئلة وبالاجابة عنها ، الى ان يتوصل الى النتائج التي يتوخاها ، مصاغة بنقاط دقيقة واضحة . سرعان ما قضت محاضرات فال على النزعة الرومانطيقية التي غذتها في نفسي طريقة دراسة كيركيجارد التي اتبعناها في بيروت . صرت أهتم بالمصادر الاساسية وبالنصوص ، بدل الاعتماد على تفسيرات المعلقين وتحليلاتهم .

ذكرت لفال يوما ان للفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي كتابا في الفلسفة الوجودية بعنوان «الزمان الوجودي» فأبدى اهتماما به واقترح عليّ ان أجعل بحثي لذلك الفصل حول كتاب بدوي . وبعد بضعة اسابيع قدمت بحثي عارضا فيه النقاط الاساسية للكتاب مع ترجمة بضعة مقاطع منه .

استدعاني فال الى مكتبه بعد قراءة بحثي وقال :

ـ ان الكتاب عادي . المقاطع المترجمة وأفكار بدوي تبدو مستقاة بمعظمها من كتاب هايدجر «الوجود والزمان» وليس فيها شيء جديد .

في فصل الربيع اخترت موضوعا آخرا بعنوان «الجدلية الكيركيجاردية: الحقيقة والوجود» . وقد عثرت على هذا البحث بين اوراقي وفيه ملاحظات فال . ويبدو ان البحث نال اعجابه فقد خطّ على الصفحة الاولى منه العبارة التالية : ان افكارك واضحة وأسلوبك قوي (باستثناء بضع فقرات اشرت اليها في

ص ١ وص ٢) وملأ الهوامش بملاحظاته وتعليقاته ، مستعملا ثلاثة مقاييس لتقويم تحليلي لفلسفة كيركيجارد :«واضح» (Clear) لتشير الى المقاطع التي أعجبته لدقتها ، و«صائب» (right) لاتفاقه معي بالرأي ، و«جيد» للنصوص التي اعتبرها متميزة .

وقد أعجب فال بالقسم الاخير من البحث فكتب بأحرف كبيرة «good» (ولست أذكر الان اذا كان هذا المقطع هو من نتاج تفكيري المستقل او اني اقتبسته من كتب اخرى دون أن اشير الى مصدره) . وفيه أعرض خلاصة الجدلية الوجودية في فلسفة كيركيجارد ، واصفا وجود الفرد بأنه وجود مهدد تتضاربه «المتناقضات» وتتنازعه حالات «القلق والمغامرة واللهفة والتوق» . وأنهى النص على النحو التالي :

To the individual existing thus, finality, in whatever form it comes - historical, natural, scientific, speculative - breaks down at the fact of fluttering moment of decision. Passionately striving, infinitely longing, and inwardly isolated, the existing individual is grounded in a situation which the existential dialectic reflects and accentuates; it is one permeated with opposites, constantly surging with becoming, everlastingly changing according to the unique situation: Illusiveness ★ , uncertainty, risk, passion, anguish, longing, formulate true grounds of this existential situation. The existential dialectic strives to capture and represent the situation thus .

★ لم يعجب فال هذا التعبير فشطبه .

اثناء اقامة فال في شيكاغو وقع له حادث مفجع اثر علينا جميعا فيما تحمله هو بشجاعة بالغة . فقد كانت زوجته (وهي امرأة شابة كانت في السابق احدى تلميذاته في باريس) قد انجبت طفلا بعد وصولهما الى شيكاغو بمدة قصيرة . وفي صباح احد الايام استيقظ فال ، ووجد الطفل مستلقيا على ظهره لا يبدي حراكا ، فلمسه فوجده ميتا . كان الغطاء قد التف حول رقبته اثناء الليل فحبس أنفاسه ومات اختناقا .

لم يتغيب فال عن الدرس في اليوم التالي ، بل القى محاضرته كأن شيئا لم يحدث .

- ٤ -

لست أذكر كيف ولماذا اخترت مادة تشارلز موريس في الفلسفة الذرائعية . كان عدد الطلاب في درسه يفوق عددهم في درسي ماكيون وفال . وكان جو الدرس مرحا تسوده روح الالفة وعدم التكليف . شعرت عند دخولي قاعة الدراسة للمرة الاولى انني في مقهى لا في درس فلسفة : الطلبة يتبادلون النكات ويضحكون ويأكلون الساندويش ويشربون الكوكا كولا ويدخنون . عندما دخل موريس القاعة لم يغير احد من وضعه ولم يكف احد عن الكلام . جلس موريس الى الطاولة فوق المنصة ، ثم التفت الى احد الطلاب وقال :

— ما نوع الساندويش الذي تأكله ؟ لم أر ساندويشا بهذا الحجم .

كان أسلوب موريس يختلف اختلافا تاما عن أسلوب ماكيون وفال . كان يتجنب أسلوب المحاضرة ويفتح مجال الحوار والمناقشة واسعا مع الطلبة . وكان من عادة موريس ان ينتقل من مقعده على المنصة الى مقعد بين الطلبة فيتحدث اليه الطلبة

ويناقشونه كواحد منهم . كان النقاش يحتد احيانا ، لكن دونما تشنج ، وينتهي دوما بالفكاهة والضحك يشارك موريس فيهما بتلقائية طبيعية .

كان موريس في ذلك الحين في اواسط الاربعين من عمره ، وبدأ اسمه ينتشر في الاوساط الاكاديمية بعد صدور كتابه عن الفيلسوف جورج ميد وكان في ذلك الوقت يتبع نظرية شلدون القائلة بأن اساس تركيب الشخصية هو التركيب الجسماني الفيزيائي . فالفرد القصير البنية والسمين هو من فئة الاندومورف ، والطويل النحيل من فئة الاكتومورف ، والمعتدل القامة والقوي العضلات من فئة المزومورف . الاول طيب المزاج، مرح ، لا يهكل هما ، والثاني عصبي المزاج يمتلكه القلق بسرعة ، والثالث يميل الى التفكير والجد والعمل . ولكل فئة من هذه الفئات نمطا سلوكيا خاصا بها . فالفئة الاولى (الاندومورف) تتميز بالقناعة والرضى ، وهدفها في الحياة تأمين العيش المريح . والفئة الثانية (الاكتومورف) فلا تتقبل الحياة على حالها ويصعب عليها التعامل السهل مع الناس ، ويميل أفرادها الى العزلة والانفراد . اما الفئة الثالثة (المزومورف) فتختلف عن الفئتين الاخريين بكونها عملية في أسلوبها وتهدف الى الانجاز في عملها وسلوكها .

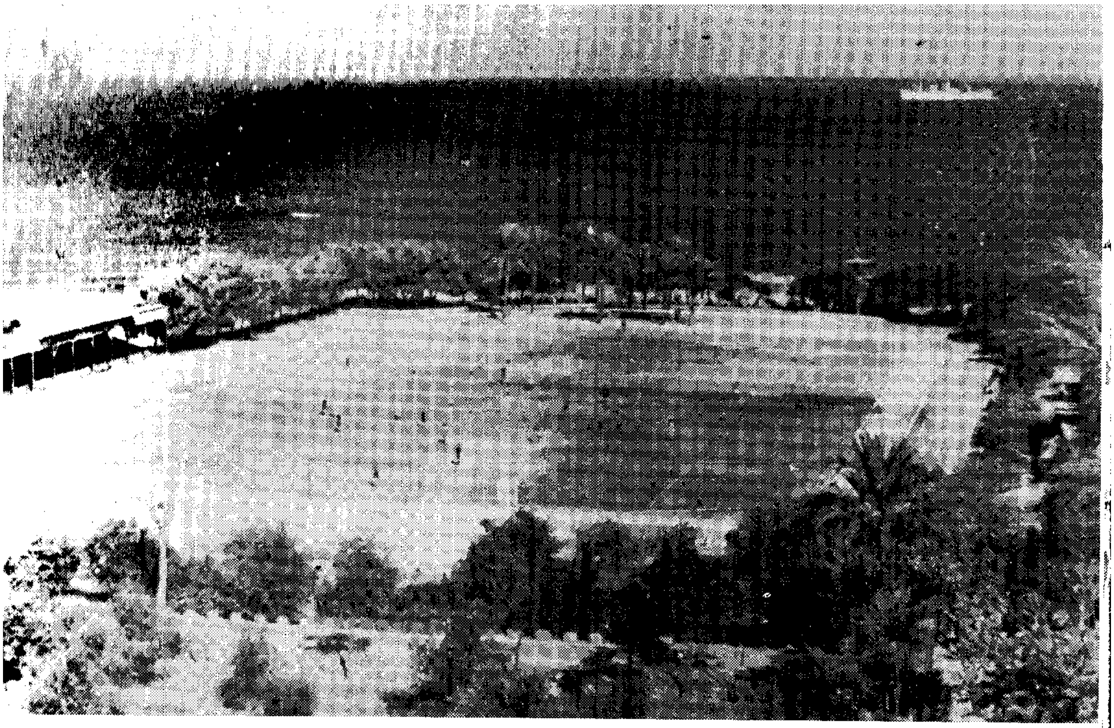
كانت معرفتي فيذلك الحين في العلوم الاجتماعية محدودة، فلم أدرك سطحية هذه النظرية ، وغابت عني حدودها الضيقة . وبقي هذا الموضوع بالنسبة لي دون حل نهائي اكثر من خمسة وعشرين سنة ، الى ان خصصت لدراسته مجهودا كبيرا في مطلع السبعينات وكان كتابي «مقدمات لدراسة المجتمع العربي» (١٩٧٥) بعض حصيلته .

في درس موريس انتقيت لبحثي موضوع مقارنة الفلسفة الوجودية وفلسفة وليم جيمس . ولاقت دراستي عندما قدمتها لموريس اعجابا كبيرا حتى انه قال وهو يعيدها الي :

ـ ان هذا الموضوع لم يتطرق اليه احد ، ومعالجتك لـــه ممتازة . اقترح عليك نشره في احدى المجلات الفلسفية .

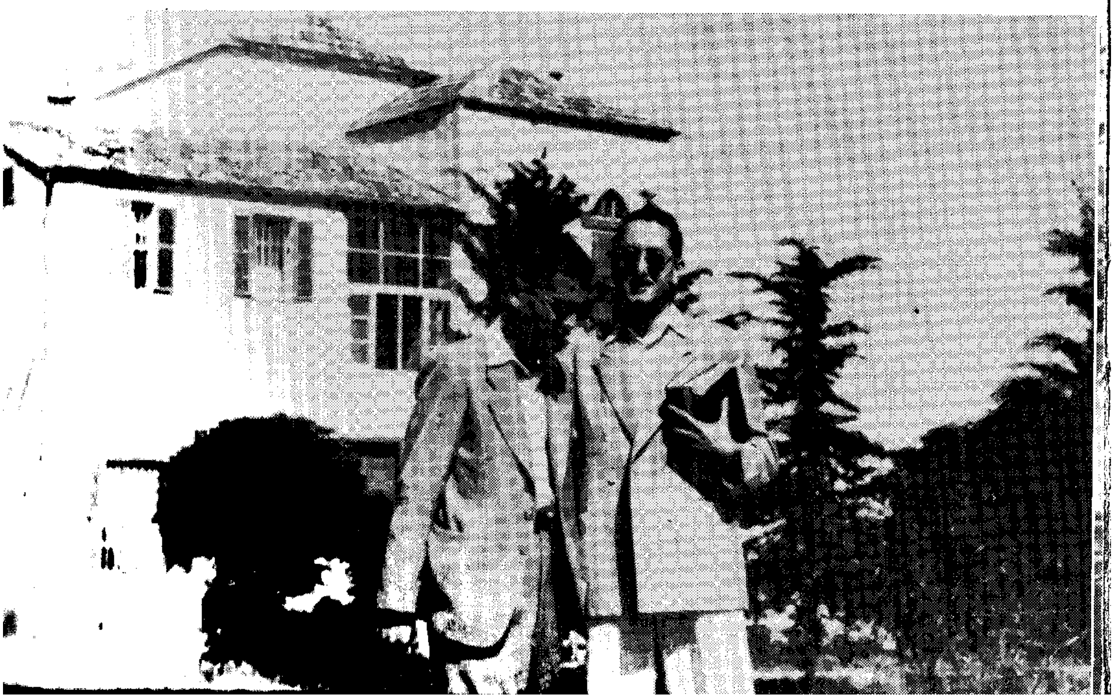
سرني ثنائه ، وأعاد الى نفسي الكثير من الثقة ، التي كدت ان أفقدها خلال الاشهر الجليدية الاولى في شيكاغو . صرت منذ ذلك اليوم اشارك في المناقشات في قاعة الدراسة بعد ان كنت أجلس صامتا معظم الوقت . ونمت بيني وبين موريس صداقة قوية ، وصرت اجتمع به خارج الصف ، نشرب فنجان قهوة او نسير في الميدواي (بعد ان دفىء الجو) ونتحدث بأمور شتى . وكان لأحاديثنا تأثير قوي في نفسي ، فقد قدم الي ، بنظراته التجريبية السهلة الواضحة ، ما كنت بأشد الحاجة اليه فـــي ذلك الوقت : الى اتجاه فكري جديد يخرجني من عالم الفكـــر المثالي الغيبي . وبرغم ان الفلسفة الذرائعية لم تنقذني مـــن النزعة المثالية في تفكيري ، فان نافذة فكرية فتحت امامـــي وتكشفت لي معالم طرق ومناهج جديدة .

في بيروت في ربيع ١٩٤٩ ، بعد عودتي من الولايات المتحدة بأشهر قليلة ، وصلتني رسالة من موريس يعلمني فيها انـــه سيسافر الى اليابان لحضور مؤتمر علمي وان بامكانه التوقف في بيروت بطريق عودته اذا كان ذلك يناسبني . فكتبت اليه بالفور ودعوته الى بيروت ، وبعد بضعة اسابيع استقبلته في المطار . قبل وصوله حجزت له غرفة في اوتيل النورماندي (وكان فـــي ذلك الحين في مستوى السان جورج) ، الا انه فضّل النزول في اوتيل من الدرجة الثانية او الثالثة ، لا رغبة في التوفير بل لشدة كراهيته لفنادق الدرجة الاولى . فأخذته الى اوتيـــل نيورويال ، القريب من النورماندي ، والمطل على البحر مباشرة، حيث كان ينزل تجار حلب والشام وحيث كان يقيّم عدد مـــن الارتيستات العاملات في ملهى الليدو والكيت كات . وتركنـــا امتعة موريس في غرفته وتوجهنا الى الجامعة . وفي المســـاء



١ ــ ملعب كرة القدم في الجامعة سنة ١٩٤٧ .

٢ ــ انا وفؤاد خارج اللودج .





٣ ـ فؤاد ومحسن ولبيب يوم تخرجنا من الجامعة الامريكية ·

٤ ـ سعاده عند وصوله الى مطار بيروت ٢ آذار ١٩٤٧ · نعمة ثابت الى يمينه وجورج عبد المسيح بالكفية الى اليسار ·





٥ ـ سعاده في المطار يحيط به قادة الحزب ، فؤاد ابو عجرم وعبد الله سعادة الى يساره وخلفه ، الى يمينه الياس جرجي وعبد الله قبرصي ·

٦ ـ الزعيم وحرسه في المتن (ربيع ١٩٤٧) قبل ركوب السيارة عند العلم (بكبسة) ·





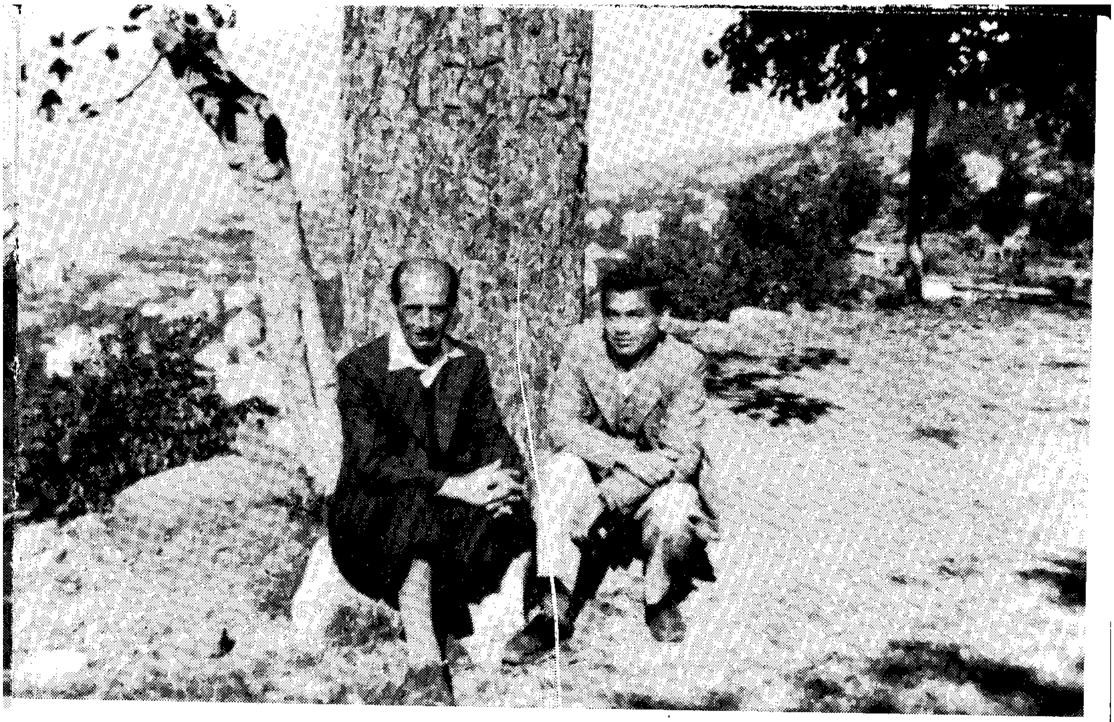
٧ ـــ مع الزعيم في طريقنا الى الكورنيش وخلفنا علي ٠



٨ — مع الزعيم وزوجته في طريقنا الى حفلة شاي ٠

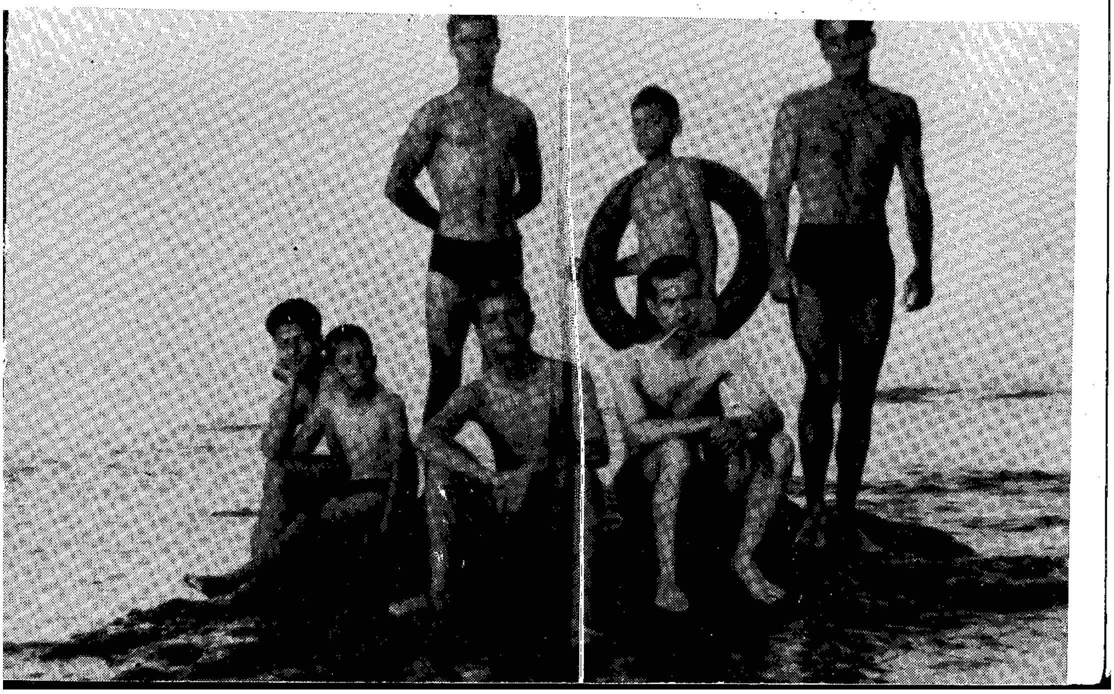
٩ — يوم الاحد في مقهى الغلاييني ، الزعيم وانا وجوزيف وفؤاد ولبيب ٠





١٠ ــ مع ميخائيل نعيمة في بسكنتا سنة ١٩٤٥ ·

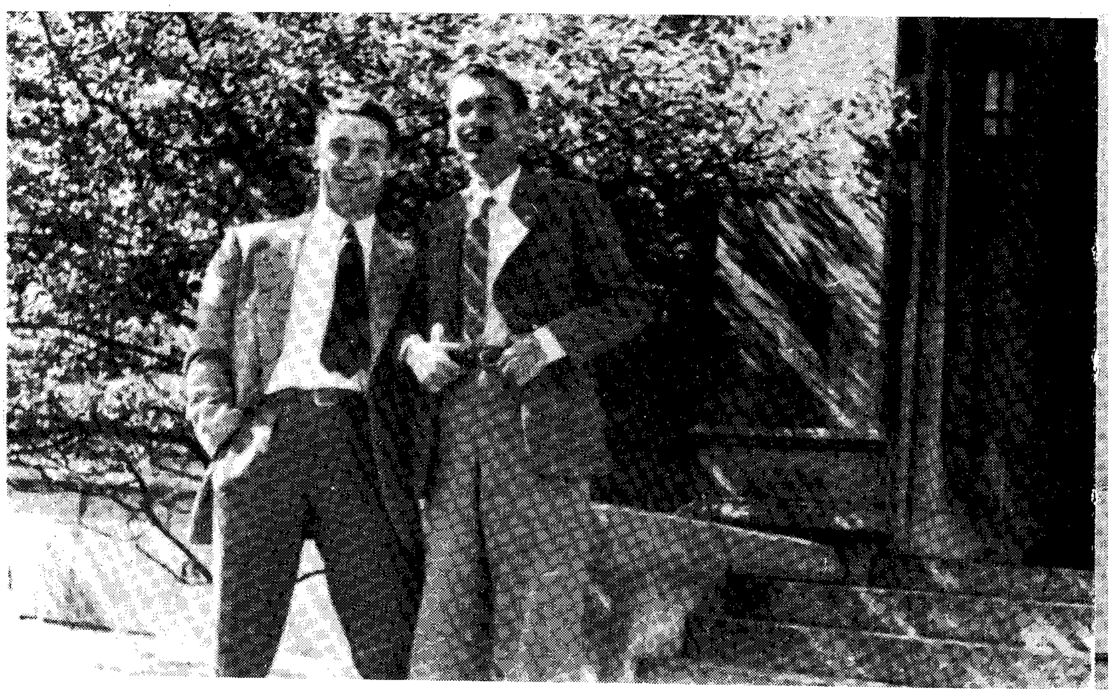
١١ ــ عكا سنة ١٩٣٧ حوالي الساعة الخامسة صباحا ، انا احمل دولاب الكاوتشوك وكامل يجلس الثاني من اليمين ·





١٢ — جامعة شيكاغو والثلج ، شتاء ١٩٤٨ .

١٣ — انا وراشد امام مدخل الانترناشونال هاوس .





١٤ — مع عبد اللطيف في الميدواي ، صيف ١٩٤٨ .

١٥ — مع كارول امام كنيسة روكفلر قبل عودتي الى بيروت .



اخذته الى مطعم فيصل ، حيث انضم الينا عدد من الاصدقاء ، بينهم جوزيف سلامة وفضلو خولي ونبيه عطية (الذي هاجر في آخر تلك السنة الى جنوبي افريقيا) وكان بحوزة نبيه زجاجة كونياك فرنسي ، ففتحها وقدم لكل منا كأسا ثم وضعها تحت الطاولة . وشرب موريس كأسه دفعة واحدة . فصب له نبيه كأسا آخرا ، وشربه موريس بالاسلوب ذاته ، وهو يتابع حديثه، فملأ نبيه كأسه مرة ثالثة ورابعة ، الى ان اتى موريس على الزجاجة بأكملها ، وهو يتحدث دون ان يبدو عليه اي اثر من المشروب . وعندما وصلنا الى اوتيل نيورويال سيرا على الاقدام قال موريس وهو يودعنا :

ـ ارجوك ان تشكر صاحبك الذي قدم الكونياك . سأنام الليلة ملء عينيّ . جود نايت .

وصعد درجات الاوتيل بخطوات ثابتة ، وتذكرت ما قاله لي مرة في شيكاغو ، انه تناول في احدى زياراته الى جزر المحيط الاطلسي صحنا من العنكبوت المقلي ، واعجبه طعمه .

وقبل سفره ببضعة ساعات اخذت موريس لمقابلة سعادة. وكنت قد حددت له موعدا معه . وجلس موريس في قاعة الضيوف ودخلت انا الى غرفة الزعيم لاعلمه بوصولنا . فوجدته يحلق ذقنه وهو يملي مقاله الاسبوعي لجريدة «كل شيء» . وعندما انتهى من الحلاقة استقبل موريس بلطفه المعتاد ، متكلما الانكليزية بصعوبة ، انما بدقة ووضوح . وسرّ موريس بالمقابلة واعجب بسعادة اعجابا كبيرا ، الامر الذي سرّني كثيرا .

ـ ٥ ـ

كان اقرب اساتذتي اليّ طيلة دراستي في جامعة شيكاغو ارنولد براجستراسر ، استاذ التاريخ الالماني ورئيس لجنة

تاريخ الحضارة ، التي التحقت بها في مرحلة دراستي للدكتوراه . ترك برجستراسر بلاده في سنة ١٩٣٨ ، والتجأ الى انكلترا ، ثم انتقل الى الولايات المتحدة ، ودرّس في عدة جامعات قبل ان يستقر في جامعة شيكاغو . وأثناء الحرب العالمية الثانية ألّف كتابا بالانكليزية في التاريخ الالماني الحديث، فهاجمه اليهود مهاجمة عنيفة لانه لم يطعن بالشعب الالماني والحضارة الالمانية ، وطالبوا باقالته من الجامعة ، الا ان رئيس الجامعة آنذاك ، روبرت هاتشنز ، وقف الى جانبه ، وبقي برجستراسر في منصبه .

كان برجستراسر طيلة وجوده في الولايات المتحدة (من سنة ١٩٣٨ الى سنة ١٩٥١) يشعر بأنه في بلد غريب ، فلم يتجنس بالجنسية الاميركية كما فعل زملاؤه الالمان (اليهود) في الجامعة ، مثل هانز مورجانتاو وغيره . وكان مورجانتاو يشير الى نفسه في محاضراته ، بلهجته الالمانية الثقيلة ، ب «نحن الاميركيين» ، ولم أسمع برجستراسر مرة واحدة يذكر في كلامه ما يفيد بأنه غير الماني . بل كان كلما قال «نحن» كان واضحا انه يعني «نحن الالمان» .

كان في موقفه السياسي ليبراليا محافظا ، وعدوا شرسا للنازية . بعد الحرب كان يترقب اللحظة المناسبة ليعود الى بلاده ويبدأ حياته من جديد ، بالرغم من انه وصل في ذلك الوقت (سنة ١٩٤٩) الخمسين من العمر وكان متزوجا من سيدة المانية ، وله ابنة واحدة في العاشرة من العمر تتكلم الانكليزية والالمانية بطلاقة . وكان خوفه الاكبر ، بعد انكسار النازية واستسلامها اللامشروط ، ان يجرد الحلفاء المانيا من صناعتها الثقيلة ويفرض عليها نظام زراعي ، كما طالب بذلك هنري مورجانتاو وزير المالية اليهودي في وزارة الرئيس روزفلت في مذكرة شهيرة نشرت في ذلك الحين . وبالرغم من

معارضة برجستراسر الشديدة للنزعة اللاسامية ، فقد كـــان معاديا للصهيونية ويتخوف من النفوذ اليهودي الذي كـــان يتصاعد بسرعة في الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب . ولم يكن يجهر بعدائه للصهيونية ويتحاشى الموضوع ، لكنه كان يتحدث حوله بصراحة عندما نكون على انفراد .

عاد برجستراسر الى بلاده سنة ١٩٥١ ، وعين أستاذا في جامعة فرايبورج . وبقينا على اتصال حتى وفاته سنة ١٩٦٧ . دعاني عدة مرات لزيارته في فرايبورج ، فكنت كل مرة أقبـــل دعوته وأبدأ بالترتيب للسفر ، فيحدث ما يمنعني عنه في آخر لحظة . وقمت اخيرا بزيارة فرايبورج بعد وفاته ، وذهبت الى المعهد الذي سمي باسمه في الجامعة (معهد ارنولد برجستراسر للدراسات السياسية) وهو اليوم احد اهم المعاهد الجامعية في اوروبا لدراسة السياسة المعاصرة .

في الفصل الدراسي الاول اخترت درسه «فلسفة نيتشه» . بعد الدرس الاول ذهبت مباشرة الى البوك ستـــور واشتريت مجموعة كتابات نيتشه في مجلد واحد (طبعة «مودرن ليبراري») ما ازال أحتفظ به حتى الان . وقد تصفحتـــه صباح اليوم ، وأعدت قراءةبعض المقاطع التي درسناها مع برجستراسر وقرأت الملاحظات التي كنت اسجلها على هامش الصفحات اثناء النقاش والمحاضرات في ذلك الحين .

كان برجستراسر يستيقظ باكرا ، ويعقد درسه في الساعة الثامنة صباحا. فكنت طيلة الفصل الاول أستيقظ في السادسة والنصف ثلاثة مرات في الاسبوع ، فأستحم وأتناول الفطـــور وأقرأ قليلا ــ حتى يصفى ذهني من أحلام الليل ــ ثم أرتـــدي معطفي الثقيل وأضع الصمامات على اذني وأخرج في الزمهرير اسير في الثلج حتى ركبي . وكانت قاعة الدرس في بنايـــة هاربر ، لا تبعد كثيرا عن البيت الدولي . الا ان الرحلـــة كانت تستغرق حوالي عشرين دقيقة بسبب الثلوج . وكانت التدفئة

في قاعات الدرس قوية بشكل خانق ، ولم يكن باستطاعتنا تكييفها . فكنا اذا فتحنا النافذة هاجمنا الصقيع واذا اقفلناها ارتفعت الحرارة الى درجة غير محتملة . وكان برجستراسر لا يعير الموضوع اهتماما . كنا نفتح النافذة حينا ، ثم نغلقها ونخلع طبقات الجرسيات التي كنا نرتديها ، ونعيد ارتدائها والمعاطف فوقها عندما يعود البرد الى الغرفة . وبالرغم من الوقت المبكر ورداءة الاحوال الجوية في قاعة الدراسة وخارجها، فقد تمكنت ، ولاول مرة ، من تفهم فلسفة نيتشه تفهما جيداً.

توثقت عرى الصداقة بيني وبين برجستراسر في الاسابيع الاولى من فصل شتاء ١٩٤٨ . كان يدعوني لتناول القهوة في «الدراج ستور» او الغذاء في نادي الاساتذة (حيث عملت فيما بعد ، فترة قصيرة ، نادلا بعد ان نفذت مواردي المالية) . وكنا احيانا نذهب الى خارج الجامعة ، الى مطعم ايطالي او صيني في الشارع رقم ٥٥ . وكنت اتخوف من هذه المشاوير وأحاول تجنبها قدر الامكان ، لانها كانت تستدعي ركوب سيارة برجستراسر القديمة . ولم يكن قِدَم السيارة هو ما يثير مخاوفي بل أسلوب برجستراسر في القيادة ، خصوصا في الشوارع المغطاة بالثلوج . كنت أجلس بجانبه ، فيدير المحرك ، ثم يدعس على البنزين فتنطلق بنا السيارة تتزحلق فوق الجليد بعنف ، فلا يعير الامر اهتماما ، ويأخذ بالحديث، ملتفتا اليّ بين الفينة والاخرى بعينه الواحدة، وأنا اجلس جامدا أتطلع امامي بهلع ، وأهز برأسي بين الحين والآخر مؤكدا موافقتي على ما يقوله ، الى ان نصل الى المطعم ، فيدعس على الفرامل فتترنح السيارة يمينا وشمالا متزحلقة على الجليد بضعة امتار مصطدمة بمؤخرة السيارة التي يقف برجستراسر خلفها امام المطعم . وعندما نجلس اخيرا الى مائدة الطعام تكون شهيتي قد قضي عليها فلا اتناول من الطعام الا القليل .

كان برجستراسر بالنسبة لي بمثابة المنقذ النفسي والمعنوي في تلك الفترة. ولا اظن اني كنت استطيع التغلب على الصعوبات التي لاقيتها في الاشهر الاولى بالسرعة ذاتها لولا عطفه وتشجيعه ومساعدته . كان بالنسبة لي اخا كبيرا وصديقا استطيع الاعتماد عليه . طيلة حياتي كنت اتكاليا ، بحاجة الى مساعدة الآخرين وعطفهم ، ولم أتخلص من هذه النزعة كليا حتى الان .

مهما كانت الدوافع النفسية التي غذت علاقتي ببرجستراسر، فقد كان هناك ايضا عوامل فكرية اساسية تجمعني به . في هذا المجال ، كان لبرجستراسر تأثير عميق في تحولي الفكري في تلك المرحلة . وقد عثرت بين اوراقي على رسالة ارسلتها اليه بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٤٨ ـ اي بعد ستة اسابيع من ابتداء دراستي معه ـ أعلق فيها على أسلوبه في تدريس نيتشه وأعرض النقاط التي يتوجب علينا التقيد بها . قلت له في تلك الرسالة :

«ان أسلوبك في عرض فكر نيتشه و«عقلنته» يؤدي بنظري الى القضاء على الناحية الفذة في نيتشه . نيتشه يكتب بالامثال (لا بطريقة التحليل) وبلغة السحر . لذلك فان معالجة كتاباته يجب ان تكون بروح زرادشت ، اي بروح ايجابية» .

ثم سردت الشروط التي يجب التقيد بها وأهمها ان يكون الاستاذ ، حسب التعبير الذي استعملته ، «نيتشيا» في تفكيره واسلوبه .

«اني أعتقد انه من المستحيل لمن كان من أتباع نيتشه ـ وعلى الاستاذ المحاضر ان يكون من أتباع نيتشه ـ ان يناقش افكاره في قاعة الدراسة دون ان يسمح لروح نيتشه ان تسيطر سيطرة كاملة على جو المناقشة . ولا يمكن تحقيق هذا دون ابراز الناحية الوجودية من حياته ـ عذابه ومرضه ، ووحدته القاسية ، وهيامه الدائم في جبال الالب وعيشه في الغرف المستأجرة المظلمة في ايطاليا ـ امام مخيلة الذين يدرسون

نيتشه بجدية وعمق ... انه من الممكن اشعال نار الفلسفة في قلوب الطلبة اذا كان الاستاذ نفسه متفهما لفكر نيتشه وتشتعل في قلبه شعلة هذا الفكر . واني أعتقد ان رفع هذه الشعلة ، التي تضيء فلسفة نيتشه كلها ، هو الشرط الاساسي لتفهم نيتشه فيلسوفا وشاعرا ونبيا ...»

وانهيت رسالتي بهذه الكلمات :

«انهي هذه الملاحظات ، يا استاذي ، متمنيا لك ، بصفتك مدرس نيتشه ، العديد من الطلاب النبهاء القادرين على الجلوس تحت الشجرة على التل» (١) .

وبعد يومين وردني رد برجستراسر . ولعلي لا ابالغ اذا قلت انني لم أستلم رسالة قط كان لها الوقع الفكري الذي تركته هذه الرسالة في نفسي . فلقد وضعتني ولاول مرة ازاء مشكلة المنهجية التي لم أجابهها حتى ذلك الحين .

ناقض برجستراسر في رسالته كل ما تعلمته في الجامعة الاميركية في بيروت فقال :

«لا يمكن للجامعة في هذا العصر ان تسمح لنفسها ، في أسلوب طرحها للقضايا الفكرية وطرائق معالجتها لهذه القضايا ، الا ان تنطلق من موقف نقدي غير متحيز . ان معالجة فلسفة نيتشه معالجة الملتزم ، كما تقترح في رسالتك ، انما هو امر يتعارض كليا مع هدف الجامعة ومهمتها ... ان اتباع أسلوب كهذا يؤدي حتما الى اتخاذ موقف متحيز ازاء كل فلسفة او اتجاه فكري ، اذ انه يفترض على الاستاذ ان يكون من المؤمنين بتلك الفلسفة او الاتجاه الفكري ويدرسها كعقيدة وايمان ، الامر الذي يؤدي بدوره الى نسف الاسس الفكرية المستقلة التي تقوم

---

١ ــ المقالة الثامنة من الكتاب الاول في **هكذا تكلم زرادشت** .

عليها الجامعة ، كمؤسسة ثقافية مستقلة ، وفي مقدمتها الحفاظ على لغة فكرية مشتركة وقدرة على التفاهم المتبادل الذي يقوم على التحليل الموضوعي والحوار المفتوح» .

وميَّز برجستراسر في رسالته بين امرين : بين حاجة المثقف لاتخاذ مواقف ايديولوجية فكرية معينة ، ومهمة الجامعة في تزويده بأدوات الفكر والتحليل التي تمكنه من اتخاذ هذه المواقف على أسس فكرية واضحة وقال :

«ان مهمة الجامعة تتركز في تأمين المجال العلمي للمثقف ليتمكن من تفهم القضايا التي يدور حولها النقاش في عصرنا الحاضر ومن تحليلها بروح نقدية صحيحة ... ان وضع مثل هذه الحدود حول مهمة الجامعة التثقيفية قد تغرس في نفس الجيل الجديد بعض الشك في قيمة الدراسة الجامعية . فالجامعة لا تقدم له الحل الذي يسعى اليه بل فقط الاسلوب والمنهج . وما تقوله في رسالتك انما يعبر عن شعور عام . والوضع الذي انت فيه يمكن ان يكون وضعا منفتحا وخلاقا اذا كان لدى الذين يعانونه الشجاعة والثبات الكافيين لمجابهته . وهو وضع ينبثق عن ازمة فكرية حادة لا تقبل الحلول السهلة ، خصوصا تلك التي تقدمها النظريات التي تدعي امتلاك الحقيقة الشاملة . ان الموقف الشجاع الثابت الذي يتطلبه هذا الوضع ليس فقط الاعتراف بالصعوبات والمخاطر المحيقة به ، بل السعي لكشفها ومجابهتها والسير بها «خطوة للامام» للتغلب عليها وتجاوزها» .

واختتم رسالته بقوله :

«أي طريق اخرى قد تريحه وتشبع حاجاته النفسية لكنها ستقوده الى اتخاذ نظرية «طائفية» ضيقة ، الامر الذي يؤدي الى تعدد الطوائف الفكرية . والطائفية الفكرية تخلق في الانسان قاعدة فكرية محدودة ذات شرعية محدودة ، وتشكل بالوقت ذاته نفيا لوجود حقيقة عامة يقدر العقل الانساني على تفهمها

واستيعابها .

«اني أود ان ابحث هذه المسائل معك شخصيا . فأرجوك ان تتصل بي تلفونيا بين الساعة الثامنة والتاسعة صباحا في اي يوم من ايام الاسبوع» .

مع الوقت مكنتني المنهجية الموضوعية ، التي بدأت باستيعابها منذ الاشهر الاولى من التحاقي بجامعة شيكاغو ، من التخلص من أدران ثقافتي الماضية ، وخطوت بواسطتها خطوات فكرية كبيرة «الى الامام» . الا اني لم أتوصل الى موقف نقدي تجاهها ، ولم أكتشف دورها في دعم الفكر المسيطر والواقع السياسي الاجتماعي القائم ، الا بعد مرور سنوات عديدة . في ذلك الوقت غابت عني النواحي اللاموضوعية في «الموضوعية العلمية» ، فحجبت عني حقيقة «حيادها» الفكري ، الذي اخفى في طياته التزاما مسبقا بوجهة نظر معينة ، تعبر عن الايديولوجية المسيطرة ، وطابعها التأملي التجريدي ، الذي يميز الفكر البورجوازي بأكمله .

وقد أدى بي هذا الى عدم رؤية حقيقة المواقف الليبرالية المحافظة التي اتخذها معظم اساتذتي ، فكنت أتقبلها دون تساؤل . فصار تفكيري مشبعا بالنظرة الليبرالية الاميركية (الانجلوسكسونية) ، واتخذت موقفا معاديا للشيوعية والاتحاد السوفياتي ، وقبلت بنظرية التنافس الحر والديمقراطية البرلمانية دون اي تساؤل او تردد .

الا انه في تلك المرحلة تكسرت القوالب النفسية العتيقة التي زرعتها ثقافتي الاجتماعية القديمة التي جلبتها معي . وكان برجستراسر السبب المباشر في هذا ، كما كان في انتقالي من دراسة الفلسفة الى دراسة فلسفة التاريخ والحضارة الاوروبية. ولعل هذه الخطوة كانت اهم خطوة اتخذتها في دراستي الجامعية ، فتخلصت من النظرة الفلسفية التجريدية التي

ترعرعت عليها وبالتالي من مصير الفيلسوف المحترف . وتفتحت امامي آفاق وطرق جديدة ادت الى اكتشافي العلوم الاجتماعية وأسسها الحسية العلمية التي حجبتها عني الفلسفة الوجودية المثالية المتعالية عن كل ما هو علمي ومحسوس .

- ٦ -

في الستينات ، وكنت قد اصبحت استاذا في جامعة جورجتاون ، قامت بيني وبين زميل لي اسمه هاينريخ رومن ، صداقة متينة كالتي قامت بيني وبين برجستراسر . كان رومن مثل برجستراسر المانياً لا يهوديا ، وهاجر مثله من المانيا بسبب الحكم النازي . وكانت صداقتي به كأنها تكملة لصداقتي ببرجستراسر . كنا نجلس في مقهى يؤمه الطلبة بالقرب من الجامعة يسمى «تيهان» (يملكه شخص لبناني اسمه طحّان) ونشرب البيرة ونتبادل الحديث . كنت اسأله عن حياته في المانيا وعن الحرب العالمية الاولى وعن النازية ونتحدث في كثير من الموضوعات التي كنت أتحدث فيها مع برجستراسر . وعندما اشرف رومن على التقاعد ، اسبغ عليه مجلس الجامعة لقب «استاذ جامعة ممتاز» ★ .

وكان مولع بتدخين السيجار ، وكنت كلما أحصل على سيجار هافانا (وكان ممنوعا في الولايات المتحدة آنذاك) أهديه لرومن . وكان يدخن السيجار باستمرار . ويوما أحس بألم في صدره ، فذهب الى المستشفى ، وأجريت له الفحوص . واكتشف انه مصاب بسرطان الرئة . فمنع عن التدخين ، الا ان

★ Distinguished University Professor.

المرض كان قد استفحل ولم يعد هناك امل بشفائه ، وبقي رومن يدرّس الى آخر يوم من حياته .

ذات يوم ، قبل دخوله المستشفى للمرة الاخيرة في خريف سنة ١٩٦٦ ، كنا نتمشى في حرم الجامعة سويا ، وكان الطقس باردا واوراق الخريف تتناثر حولنا ، فسألته عن صحته ، فأجاب بشيء من الاقتضاب ، كأن الامر لم يعد يهمه ، بأن كل شيء على ما يرام . ثم التفت الي وقال :

ــ لقد قمت بترتيب كل شيء بالنسبة لزوجتي . التأمين على حياتي وراتب التقاعد ، وقد سجلت البيت باسمها .

كانت زوجته سيدة المانية ، قصيرة القامة ، تتكلم الانكليزية بلهجة المانية ثقيلة ، كأنها وصلت من المانيا لتوها . وكانت في أسلوبها وكلامها وحركة يديها تبدو ضائعة كأنها لا تدري اين هي وما الذي تفعله . تحدث رومن عن زوجته بشيء من اللهفة والقلق ، كمن يشعر بأن الفراق بات قريبا .

تحدث الي عن الماضي وعن ايام دراسته وعن التقائه بزوجته وعن حياتهما سويا . وبدا امامي هذا الرجل الشيخ المريض ، شابا في مطلع حياته ، ممتلئا قوة وحيوية . يتحدث عن زوجته كأنها ما زالت تلك الصبية الحسناء التي احبها منذ اكثر من اربعين سنة . انه يرى نفسه شابا في هذه اللحظة . كيف يهزمنا الزمن . نهرم ونشيخ وتبقى قلوبنا على حالها ، لا يغيرها الزمن ، ولا يزول منها ما عانيناه من حب وألم . كلما سارت بنا السنون الى الامام كلما اقترب منا الماضي بأحزانه وأفراحه وذكرياته .

قال :

ــ قبل ان نعقد قراننا ، قلت لها انني لا استطيع ان اعدك بحياة ملأى بالسعادة والفرح . لكنني اعدك وعدا قاطعا بأنها ستكون حياة ملأى بالمغامرات الممتعة . وقد وفيت لها بوعدي .

رأيته للمرة الاخيرة في مستشفى جورجتاون ، وكان ملقى في السرير في حالة تقرب من اللاوعي ، بسبب الادوية المخدرة لايقاف الالم في صدره . نظر اليّ ، ولاول وهلة لم يعرفني . أغمض عينيه ، ثم فتحهما ببطء ، ولاحت على وجهه شبه ابتسامة .

ـ أتريد ان تعرف كم سيجار أدخن في اليوم هذه الايام ؟

(كنت دائما اسأله كم سيجار دخنت اليوم) .

وابتسمت مشجعا :

ـ كم سيجار ؟ أخبرني .

فأدار وجهه ، يحاول تمالك نفسه من الالم . لم أدر ما أفعل . لم اكن قادرا على فعل شيء . شعرت ان صديقا عزيزا على وشك الرحيل ، واني لا استطيع وداعه . سيغادر دون كلمة اخيرة بيننا تذكره بالمحبة التي كانت تربطنا .

في اليوم الذي توفي فيه رومن ، التقيت بزوجته قادمة من المستشفى ، تسير بسرعة بخطواتها الصغيرة . لما اقتربت منها رأيت عينيها محمرتين من البكاء . وعندما رأتني توقفت ، وسألتها :

ـ هل أقدر ان اساعدك بأي شيء ؟

فنظرت اليّ دون ان ترد . لا اظن انها عرفتني . قالت «شكرا» . وسارت في طريقها .

عانيت في الاشهر الاولى من دراستي في جامعة شيكاغو الكثير من عسر الهضم الفكري . كانت المواد التي درستها في الفصل الاول اكثر مما كان بوسعي تفهمه او استيعابه . وفي حين كان برجستراسر يعالج الامور من وجهة النظر الحضارية التاريخية ، كان موريس يتناولها من وجهة النظر الذرائعية وماكيون وفال من الموقف الفلسفي التحليلي . وكنت كثيرا ما أشعر في قاعة الدراسة كأني في حلم ، خصوصا خلال الاسابيع الاولى ، لا ادرك تماما ما يدور حولي . وزادت بلبلتي شعوري

بالوحشة . الا انني صبرت على الوحشـــــة ، وتحملت عسر الهضم . لم يكن لدي خيار في الامر ، الى ان اخذت الغيـــوم تنقشع وتتضح الاشياء رويدا .

لا أذكر في شيكاغو استاذا دخل قاعة الدرس خالي اليدين او القى محاضرته وهو يلوح بسلسلة مفاتيحه ، كما كان يفعـل اساتذتنا في بيروت ، الا استاذا واحدا هو مورجانتاو . كـان مورجانتاو يلقي محاضراته ارتجالا دون ان يرتكب غلطة فـــي المضمون او التعبير او التنظيم الفكري . كان يحاضر كأنه يقــرأ نصا مكتوبا امامه . يورد الارقام والتواريخ والنصوص عن ظهر قلب . وكنت احضر بانتظام احدى المواد التي درسها ، رغم اني لم اخترها رسميا . وحضرت كذلك محاضراته العامة التي كان يلقيها في اكبر قاعات الجامعة . كان يدخل القاعة العامة ويده في جيبه ، ويقف امام الجمهور كما كان يقف في قاعة الدراسة، ويلقي محاضرة ساعة كاملة دون توقف ، بأسلوب ادبي ساحر . وكان يكتب مقالاته بالطريقة نفسها : يمليها على سكرتيرته وهو يسير ذهابا وايابا في مكتبه ، فتطبعها على الآلة الكاتبة وتقدمها له جاهزة للنشر .

ورغم انه كان يهوديا ، لم تصدر عنه في تلك الفترة كلمـة توحي بالعطف على اسرائيل او بمساندة الصهيونية . وربما كان سبب ذلك طموحه في ان يصبح مستشارا في وزارة الخارجية الاميركية او البيت الابيض ، كما فعل فيما بعد زميله اليهودي الالماني هنري كيسنجر . لكنه بعد ان تقاعد وفقد كل امـــل بمنصب حكومي ظهر على حقيقته صهيونيا كاملا .

- ٧ -

كنت اتتبع باستمرار المحاضرات العامة والندوات الخاصـــة

التي كانت تعقد اسبوعيا في الجامعة . وكانت الندوة المفضلة الي ، والتي كنت أحضر جلساتها الاسبوعية بانتظام ، هي ندوة «الفكر الاجتماعي» ★ ، وكانت تعقد مساء كل اربعاء في الساعة الثامنة في غرفة تقع في الطابق الثاني من بناية هابر هول . وكان عدد الحضور في الندوة لا يزيد عادة عن اثني عشر او ثلاثة عشر شخصا ، معظمهم من الطلبة ، يجلسون جميعهم حول مائدة مستديرة تملأ قاعة الاجتماع ويجلس على رأسها جون نيف ، رئيس لجنة الفكر الاجتماعي . كان نيف يبدأ الاجتماع بتقديم الموضوع ثم بتقديم الطالب الذي تكون مهمته معالجة موضوع تلك الجلسة . وبعد العرض ، الذي يستغرق حوالي الساعة ، يبدأ النقاش ويشترك به من يشاء من الحضور . وكنت في هذه الاجتماعات أجلس صامتا أتتبع ما يجري دون ان اجرؤ على المشاركة . كان النقاش دائما هادئا ، فلا صوت عاطفي ولا خلاف في الرأي يصبح معركة كلامية . لم تكن الاختلافات في وجهات النظر تؤدي الى التناقض والصدام ، بل تدفع بالمتناقشين الى زيادة في التفصيل والتوضيح لمواقفهم وبالتالي الى تفهم افضل وأعمق للموضوع . كان زملائي الاميركيون ، جميعهم من عمري او اكبر سنا بقليل ، يعالجون القضايا المطروحة بثقة وهدوء ويتحدثون الى الاستاذ نيف دون خشية او حذر كأنه زميل لهم . وكنت اقارن بين سلوكي المتخوف الخجول وسلوكهم الطبيعي المطمئن . وأتساءل عن اسباب هذا الفارق ، فلا اجد جوابا .

وكان يحضر ندوة الفكر الاجتماعي بين آن وآخر بعض الطلبة العرب . يحضرها الواحد منهم مرة او مرتين ثم يتوقف

★ Committee on Social Thought .

عن الحضور . ولم يزد عدد الطلبة العرب في اية جلسة عن اثنين او ثلاثة ، وكانوا ، في الغالب من طلبة الاقتصاد والعلوم السياسية .

يجلسون جنبا الى جنب ، يتهامسون ويتضاحكون . كلما اشترك احدهم في النقاش ، كنت أتمنى ان تنشق الارض وتبتلعني . كان الواحد منهم يقدم رأيه بشكل قاطع جازم ، بلغة انكليزية مكسّرة وبلهجة عاطفية خطابية . كان نيف يتيح لهم دائما مجالا للاشتراك في النقاش ويصغي اليهم بانتباه ، مما كان يزيد من غرورهم وتماديهم في التعليق على كل ما كان يطرح من افكار او يتخذ من مواقف .

أتيحت لي الفرصة في تلك الندوة وخارجها ان اراقب عن كثب سلوك زملائي العرب وأقارنه بسلوك زملائي الاميركيين . وكان اول ما لفت نظري في السلوك الاميركي روح الالتزام والشعور بالمسؤولية . كانت الدراسة والمطالعة والتحضير بالنسبة للطالب الاميركي مهمة اساسية تخضع لها كل الاعتبارات الاخرى . فكان عندما ينفرد في غرفته او في زاوية من المكتبة، لا يثنيه عن الدرس والمطالعة شيء ، فلا يسمح لنفسه بالراحة والترفيه الا بعد ان ينهي ما يتوجب عليه . وكان سلوك الطالب العربي على عكس ذلك تماما . كان دائما على استعداد لان يضع كتبه جانبا اذا سنحت الفرصة لتناول فنجان قهوة مع فتاة . كان حسه بالمسؤولية مرتبطا بما هو خارج عنه ، بسلطة تقف فوق رأسه ، لا بدافع داخلي يلزمه ذاتيا . فاذا غابت عنه السلطة الخارجية (سلطة الأب او الاستاذ) حلت محلها نزعة فوضوية تدفع به الى التهرب من المسؤولية والسعي نحو اللذة . واذا وجد نفسه حرا عجز عن استعمال حريته .

انني اشعر حتى هذا اليوم بأن هناك عينين صارمتين تراقبان كل ما افعل وتقدم كل ما أنتج . ما زلت أحس بالقلق والخوف اللذين كنت أشعر بهما وأنا على مقاعد المدرسة ،

فأتساءل دائما ، هل انا على خطأ ؟ هل قلت ما يغضب ؟ هل قمت باللائق واللازم ؟ اني أتوقع الحكم والتقديم من الآخرين ، ونظرتي لنفسي تكونها نظرة الآخرين الي (تعود بي الذكرى وأنا أخط هذه السطور الى المدرسة الاستعدادية والى استاذنا وهو يسير بين مقاعدنا ، يملي علينا ما يخطر على باله من اقوال ، فنكتب ما يمليه علينا حرفا حرفا وكلمة كلمة ، واذا ما اقترف احدنا خطأ يتوقف عن السير ويمسك بأذن الطالب ويدعكها دعكا مؤلما) . وبعد هذه السنين كلها ، اجد نفسي احيانا ، القي على طلبتي في الجامعة ، دون قصد ، اسئلة كالتي كان يلقيها علينا اساتذتنا في المدرسة ، والروح المتغطرسة ذاتها ، كأني اريد ان أذكرهم من يملك السلطة ، كما كان يفعل اساتذتنا معنا .

- ٨ -

فشل كثير من الطلبة العرب في دراستهم الجامعية ولم يتمكنوا من الحصول على شهادتهم العليا ذلك ان النظام التعليمي الذي نشأوا عليه حدّ من قدرتهم على استيعاب الاسس في حقول اختصاصهم وعن تفهم مناهجها الفكرية . هناك فئة منهم نجحت في الحصول على الشهادات العليا لا بفضل جهودها بل بفضل عطف الاساتذة الاميركيين على الطلبة الاجانب وتقويم مجهودهم الدراسي على مستوى ادنى عن مستوى الطلاب العام . وقد عاد هؤلاء الطلبة الى ديارهم يحملون شهادة الدكتوراه دون ان يتغير في نفوسهم الشيء الكثير . الا ان لقب «الدكتوراه» أسبغ عليهم مكانة علمية تمكنهم من نشر افكارهم المنقولة وغير المكتملة بين ابناء الجيل الطالع . ولو علم الاساتذة الاميركيون ان معاملتهم الحسنة هذه ستؤدي الى هذه النتائج السيئة لفرضوا على طلبتهم العرب المتطلبات نفسها التي فرضت على زملائهم

الاميركيين ولعاملوهم معاملة أقل تساهلا .

لكن هناك فئة اخرى من الطلبة العرب ، وهـــي الاقلية ، نجحت في تكييف نفسها وقامت بواجباتها الدراسيـــة كاملة ، فلم تحتج الى معاملة خاصة ، وحصل أفرادها على الشهـــادة بعرق جبينهم . ان أفراد هذه الفئة هم الخميرة الطيبة ، الذين حررتهم ثقافتهم الجديدة ، فعادوا الى ديارهم يعملون بما اوتوا من قوة دون مكابرة او استعلاء .

واسترعى نظري بالاكثر ، عند مقارنتي سلوك الطلبة العرب بسلوك زملائهم الاميركيين ، ظاهرة خاصة لم اعرف كيف أحللها آنذاك ، هي ظاهرة الرياء . الطالب العربي يموّه ويخادع ، حتى زملاءه العرب . كان يفعل ذلك تلقائيا ، عن لاوعـــي . كان اذا سأله اميركي عن نفسه او عن اهله او عن بلده او عن اي امـــر آخر خادع وكذب في إجابته . ولقد تكشّف لي ان هذه الظاهرة تعود الى فقدان الشعور بماهية ذاتية واضحة . ومن لا يستطيع ان يحدد موقفا واضحا تجـاه نفسه (تجاه ماضيه) وتجـــاه الآخرين ، يحاول ان يكون شخصا آخر . يظل فاقد الثقـــة بالنفس وبحاجة الى دعم خارجي : يختلق ويموّه دون سابـق تصميم ، ويكذب ويخادع دون شعور بالذنب .

- ٩ -

كنت مثل زملائي في مثل هذا الضياع .. بدات بالتغلب عليه بدراسة مسلك زملائي العرب وتحليل ما كنت أشعر بـه ذاتيا . رايت سلوكي متجسدا امامي فـي سلوكهم . هـــذا ساعدني على التفهم الذاتي ، ومع الوقت على تخفيف نزعـــة الرياء في نفسي ، التي لم اقض عليها كليا حتى الان .

اتساءل ، كيف للفرد في مجتمعنا ان يعرف ذاته علـــى

حقيقتها ، وهو منذ الصغر محاط بأفراد لا يعرفون ذواتهم ، يعيشون في عالم يقوم على الكذب وخداع النفس والآخرين ؟ كل من عرفت من ابناء مجتمعي يود ، بشكل او آخر ، ان يكون انسانا آخرا . يتظاهر بأنه غير الشخص الذي هو اياه . لا ثقة له بنفسه ، يحتقر نفسه عن وعي وعن غير وعي .

لم يكن باستطاعتي في تلك المرحلة من حياتي اختـــــراق الاقنعة التي يستتر خلفها الآخرون . لم اكن استطيع التمييز بين الكاذب والصادق ، بين المخلص والمخادع . بقيت زمنـــــا طويلا لا أعرف احدا على حقيقته. عرفت الآخرين فقط كما بدوا لي من خلال اقنعتهم وسذاجتي .

كانت تساؤلاتي حول شخصية زملائي ــ حول طفولتهـــم ومحيطهم العائلي واختباراتهم الاولى ــ ترتـــــد الى نفسي ، فأتساءل عن طفولتي وعن الاحداث التي أثرت في نموي النفسي وفي تكوين شخصيتي .

بعث الماضي عملية صعبة . لكن لا مهرب من الماضي . واذا قصدنا التحرر الذاتي لا بد من العودة الى الماضي ، لكشفـــــه وتجاوزه .

- ١٠ -

حصلت على شهادتي بعرق جبيني لا بعطـــف اساتذتي او تسامحهم . خلال اشهر قليلة شعرت اني تغيرت . الا ان هـــذا التغيير اقتصر على الناحية الفكرية فقط . شخصيتي لم تتغـير (وما زالت بتركيبها الاساسي ، على ما كانت عليه منذ السـن التي تعلمت فيها ان أقرأ على نفسي ومنـــــذ ان اكتشفت ان البنات جنس آخر) . كل ما هنالك ان اختباراتي في شيكاغـو سارعت في عملية نضوجي الفكري ، فأصبحت اكثر قدرة على

التفكير النقدي واكثر واقعية في مجابهة المصاعب . وقد مكنتني هذه الواقعية من تقبل الامور كما هي ، وعلى وضع الاوهام جانبا (وعندما تجاوزت منتصف العمر ، مكنتني من تقبل مر السنين دون تأفف او ندم ، فلا يتعسني الان اني أمضيت من عمري اكثره دون ان احقق القليل من احلامي وآمالي) .

اين الغد الذي حلمنا به وأعطيناه حياتنا ؟ انه ، اليوم ، حاضرنا .. انه امسنا . لم يبق منه الا ومضات خافتة ، تأتينا حين لا نتوقعها ، وتعيد الينا اصواتا حبيبة غابت عنا ، ووجوها جميلة نسيناها ، وحبا قديما فقدناه ..

في أعين اولادنا نرى اشباح احلامنا ونحن صغارا ، وفي ابتساماتهم صور المستقبل الذي تركناه ورائنا ..

في تلك الاشهر في شيكاغو اكتشفت بأني انطوائي" بطبيعتي (انتروفرت) ، واني عصابي" في استسلامي للقلق والانقباض . وادركت حدود امكانياتي ، مما جعلني مع الوقت اختار نمطا من الحياة ينسجم مع طبيعتي وامكانياتي : التدريس الجامعي والكتابة والبحث العلمي ، والحياة المنطوية على نفسها .

- ١١ -

يقول نيتشه في سيرة حياته Ecce Homo انه يبتعد عن الكتب والمطالعة عندما يكون منغمسا في التأليف والكتابة ، فيقول : «ان يقرأ المرء في الصباح الباكر عندما يكون ، كالفجر، في قمة قواه ــ ان هذا عمل شرير» . ويقول : «ان الذي لا يستطيع التفكير الا اذا كان في يده كتاب يفقد قدرته على التفكير المستقل ويصبح فكره مجرد رد فعل للعوامل والمؤثرات الخارجية» .

اني من النوع الذي لا يستطيع التفكير الا اذا كان في يده كتاب يطالعه . كل افكاري هي ، بشكل او بآخر ، نتاج ما اقرأ. لم تصدر عني فكرة يمكن وصفها بأنها فكرة اصيلة او ملهمة . كل ما اكتبه هو نتيجة عمل متواصل وساعات من البحث والقراءة والتفكير . كتابة مقال او اعداد محاضرة يستغرق اياما وأسابيعا من العمل المستمر . اما تأليف كتاب فيتطلب اشهرا من الانقطاع التام على مدى سنوات . فقد استغرق انجاز كتابي «المثقفون العرب والغرب» ست سنوات ، وهو لا يتعدى المائة والخمسين صفحة في نصه الانكليزي . لقد أمضيت من عمري سنين عديدة في انفراد تام بسبب هذا العمل . ولم يتغير روتيني اليومي على مر السنين : يبدأ يومي في الساعة التاسعة وينتهي في الخامسة ، مع فاصل قصير لغذاء خفيف من الساندويش ، أحضره بنفسي ، وقليل من الفاكهة . حصيلة اليوم الواحد لا تتعدى عادة ست صفحات او سبعا وتشكل «مسودة» اولى ، أعيد كتابتها مرتين وثلاثا قبل دفعها للطباعة على الآلة الكاتبة .

يقول تشارلز ديكنز ليس النبوغ الا المقدرة على تحمل الجهد المستمر (taking pains) . اذا كان هذا صحيحا ، فاني لا شك قد لامست حدود النبوغ . المهم هو اخضاع النفس واتباع نظام معين ، والمثابرة في العمل رغم كل شيء . هذا النظام ، وما يترتب عليه من سيطرة ذاتية ، اكثر اهمية كما ارى من القدرة الفطرية على «الخلق» و«الابداع» . ففي آخر المطاف ، ما نحققه في هذه الحياة هو الشيء الموضوعي المحسوس ، وليس ما نكنه من نيات وأحلام وتأملات .

كان اكثر الشباب العرب الذين عرفتهم في شيكاغو على جانب كبير من الفطنة والذكاء ، لكن ذكاءهم كان فطريا ، غير خاضع لنظام عقلي او ارادة واعية . كانت لديهم مقدرة كبيرة

في الامور العملية والتعامل مع الناس على الصعيد الشخصي . الا ان معظمهم كانوا فاشلين فيما كانت تتطلبه دراساتهم من نظام عقلي . كانوا يهتمون بالاشخاص لا بالقضايا . يضجرون بسرعة من الامور النظرية ، التي يميل اليها زملاؤهم الاميركيون، ويفضلون مجالسهم الخاصة ليتاح لهم التحدث بالعربية في موضوعاتهم المفضلة ــ القصص والنكات والفضائح .

ليست مصادفة ان يكون مجتمعنا ، منذ اليقظة ، قد عجز عن انتاج مفكر او عالم او كاتب واحد على مستوى عالمي . فموهبة الابداع لا تكتسب ولا تستورد ولا تدرس في الخارج . المقدرة الخلاقة تكمن في أعماق الفرد ، فاذا أتيح لها المحيط الملائم نمت وترعرعت وازدهرت . وإلا اختفت وقضي عليها قبل ان يعرف احد بوجودها . والجو الملائم يقدمه المجتمع بأخلاقه وقيمه وطرق التربية فيه . فاذا كان المجتمع يخاف الابداع ويرى في قوى الخلق خطرا عليه (على تقاليده وتراثه) عمد الى القضاء عليها بالوسائل كلها . وأنجح هذه الوسائل هي قهر الفرد في صغره ، ومن ثم تكبيله فكريا ونفسيا في الكبر . كم من شكسبير واينشتاين وماركس قضي عليهم في مجتمعنا قبل ان يصلوا الى سن المراهقة ...

- ١٢ -

أمضيت فصل الشتاء في وحدة وتقشف وفي حنين مستمر الى بلادي وأصدقائي ..

كنت أستيقظ في السادسة والنصف صباحا ، على صوت الماء الحار يقرقع في انابيب التدفئة (الذي استيقظت عليه فزعا اول يوم وصولي الى شيكاغو) . فأستحم وأرتدي ملابسي وأنزل الى الكافيتيريا ، وأتناول فطورا سريعا ، ثم اعود الى

غرفتي وأرتدي جزمتي الثقيلة ومعطفي الشتوي السميك وأضع الصمامات الصوفية على أذني والشال حول رقبتي والقبعة على رأسي ، فأصبح كالدمية السمينة يصعب عليّ الحراك . وأنزل بالمصعد لا ألتفت يمنة او يسارا .

كنت عندما أفتح الباب الخارجي للانترناشيونال هاوس وأخرج الى العالم المعتم أشعر بوحدتي القاسية بشكل خاص . احس بالريح الجليدية تلطمني في وجهي . تترقرق الدموع على وجنتي ، وأمسحها بطرف الشال وأسير خافضا رأسي منحنيا الى الامام ضد الريح .

بعد انتهاء درس برجستراسر في التاسعة كنت أذهب الى المكتبة ، وأطالع وأستعد لدروس اليوم التالي . كانت المكتبة في الطابق الثاني من سويفت هول ، تفصلها عن هاربر هول ، حيث يوجد صف برجستراسر ومكتبه ، ساحة صغيرة في منتصفها كنيسة صغيرة شيدت على النمط الغوطي . اسير تحت أغصان الشجر المثقلة بالثلوج نحو الكنيسة ، وأتوقف هناك بضعة دقائق وأصغي الى رنين اجراس كنيسة روكفلر تأتي خافتة عبر الثلج المتراكم . ثم أغرس رأسي بين كتفي وأهرع الى المكتبة .

كانت المكتبة ملجئي في الفصل الاول . كنت أمضي هناك ساعات أتنقل فيها بين رفوف الكتب التي سحرتني بكثرتها ونوعيتها . عدد الكتب في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت لم يتعد بضعة آلاف في مختلف الحقول . هنا في المكتبة المختصة بالفلسفة وحدها عشرات الآلاف من المجلدات. هذه اعمال نيتشه الكاملة بالاصل الالماني وبالترجمتين الانكليزية والفرنسية . تليها ، في رفوف متراصة ، مؤلفات بلغات مختلفة عن حياة نيتشه وفلسفته . وهكذا بالنسبة الى جميع الفلاسفة من سقراط الى المحدثين .

كنت اتناول طعام الغذاء في كافيتريا للطلبة تقع على

الشارع ٥٩ في بناية لا تبعد كثيرا عن المكتبة تدعى أيدا نويس هول . وحتى الساعة ، كلما جلست في كافيتريا وتناولت طعامها تذكرت ايدا نيوس والوجبات الصامتة التيكنت اتناولها فيها . كانت الوجبة المؤلفة من صحن لحم وخضار وصحن سلطة وقطعة حلوى مع فنجان قهوة تكلف حوالي ٥٠ سنتا . كنت أنتقي طعامي واضعه على صينيتي وأجلس الى مائدة فارغة وأفتح كتابا وأقرأ فيه وأتناول طعامي . كان احيانا يجلس الى طاولتي بعض الطلبة والطالبات ، فلا أرفع رأسي عن الكتاب الا اذا باداني احدهم الحديث . وبعد الغذاء أذهب الى قاعة الدرس اذا كان لدي حصة ، او اعود الى المكتبة وأمضي فترة بعد الظهيرة بالمطالعة . وفي الخامسة أرجع الى الانترناشيونال هاوس ، وأصعد الى غرفتي لاستريح قليلا او لأكتب بعض الرسائل . ومرة في الاسبوع أحمل ملابسي الملوثة الى الطابق الارضي حيث توجد الغاسلات الكهربائية وأقوم بغسلها وتوضيبها . وحوالي الساعة السادسة كنت اتناول العشاء في الكافيتيريا ثم أذهب الى غرفة المطالعة وأقرأ الصحف والمجلات مدة نصف ساعة ، ثم اعود الى غرفتي وأطالع حتى الحادية عشر والنصف ثم آوي الى فراشي .

- ١٣ -

كانت تلك الاشهر اختبارا جديدا وقاسيا بالنسبة لي. حتى ذلك الحين كنت دائما امضي وقتي بصحبة اصدقائي . كنت دائما منهمكا في اجواء أعهدها وأستريح اليها . اصبح وقتي الان كله ملكا لي ، غصبا عني ، أملؤه بنفسي ، بما أفعل وأفكر . اصبحت الأنا رفيقي الوحيد .

الوحدة التي فرضت عليّ آنذاك اجبرتني على مجابهة افكار

واختبارات لم يكن لي عهد بمجابهتها . لم يكن هنــاك اصدقاء اسعى اليهم عندما أشعر بعجز او ضيق ، كما كنت أفعل فـــي بيروت ، فنجلس في مطعم فيصل او نقوم بمشوار او نذهب الى السينما . هنا لا مهرب من نفسي ومما أجابهه ليل نهار . ففي بيروت كانت حياتي الاجتماعية تملأ اوقات فراغي كلها وتحول بيني وبين القراءة والتفكير . كم مرة في اللودج خرجت حاملا تحت ابطي كتابا لأقرأه في مقعد على البحر . ولم اقرأ منه كلمة واحدة ... اذ ما هي الا دقائق حتى يمر صديق ويجلس الــى جانبي ونبدأ بالحديث وأغلق الكتاب دون اي شعور بالذنب . وبعد قليل نذهب الى فيصل او الى الميلك بار لننضم الى جمع من الاصدقاء يشربون القهوة ويتبادلون النكات . اضع كتابـــي على الطاولة وأعد نفسي بقراءته في المساء او في اليوم التالي..

في شيكاغو لم يكن امامي الا المكتبة او غرفتي — او الصقيع في الخارج . امضيت الفصل الاول كله في الدرس والمطالعة ، تسع او عشر ساعات في اليوم . كنت أجلس للقراءة وأستمر فيها دون مقاطعة احد . وهكذا تعلمت القراءة الجدية ، عرفت ما الذي عناه نيتشه بقوله ان القراءة هي «فن المضغ ، الذي لا تجيده الا البقرة» . كانت القراءة بالنسبة لي في السابق شيئا أود الانتهاء منه بسرعة لكي أنصرف الى أمور اخرى ممتعة . في الصغر كان الدرس والطعام يفرضان علينا فرضا ، فيحرماننــا من اللعب والمتعة . وفي المدرسة الداخلية كانت فترات الدراسة المسائية تفرض علينا كل يوم بين السابعة والثامنة والنصـــف وكانت نوعا من الاعتقال اليومي نضطر فيه اضطرارا ان نعــد دروسنا لليوم التالي . ولم يخفف من وطأة هذا الحبس الا كوننا جميعا في قاعة واحدة ، مطمئنين الى انه لا يوجد احد يلعب في الخارج ، ولا شيء يفوتنا . لهذا كان أسلوب القراءة الــذي تعودت عليه منذ الصغر هو تماما عكس أسلوب «المضغ» الذي

تحدث عنه نيتشه . فتعودت ورفقائي في المدرسة ثم في الجامعة ان نقرأ كما نتكلم ، ونكتب كما نقرأ : بسرعة وبأصوات وتعابير خطابية عالية . تعودنا ان نستمع وأن نتفرج ، لا ان نتفهم ونحلل ونفكر .

يعود الى ذهني في هذه اللحظة عمران شفيق (في الاستعدادية ثم في صف الفرشمن) اراه جالسا «يدرس» فوق سريره .. يقلب الصفحة تلو الصفحة ، وهو غارق في احلام اليقظة . ما ان يصل الى آخر صفحة من الدرس المعين لذلك اليوم حتى يغلق الكتاب ويقفز من السرير ، ويقول «خلصنا من الدرس» ، وينصرف الى معالجة الامور المهمة ، كتهيئة فنجان قهوة على المدفئة الكهربائية التي كان يمتلكها ، ولا يمتلك احد مثلها في تومسون هول ، او لزيارة الاصدقاء في غرفة اخرى ، او للذهاب الى الميلك بار . وكان اختبار عمران اختبارنا جميعا. كان هدفه (وهدفنا جميعا) التهرب من عبء السلطة — من الدرس والمطالعة — ليس في الرفض الصريح او المجابهة الواضحة ، بل بالحيلة والمراوغة . وكانت عادة «التفرج» على الكتاب ، عوضا عن قراءته ، وحفظ الدرس ، عوضا عن تفهمه، النتيجة الطبيعية لأسلوب التلقين السلطوي الذي ترعرعنا عليه .

لا أذكر جميع الكتب التي قرأتها في تلك الاشهر الاولى في شيكاغو . كان معظمها يرتبط بمواد دراستي : نيتشه ، ارسطو ، بركهاردت ، وليم جيمس ، شارلز بيرس ، كيركيجارد. لكنني بعد فترة بدأت أشعر بالتعب من المطالعة المستمرة ، وصرت امضي اوقات اطول في غرفة الجلوس في الانترناشيونال هاوس وفي جلساتي مع الطلبة على مائدة الغذاء في ايدانوس . لكني كنت دائما اعود الى كتبي .

رويدا تحول الكتاب بالنسبة اليّ الى شيء حي، الى صديق

حميم ، الى ضرورة حيوية . وجدت نفسي احادث الكتاب مـن خلال الصفحات المطبوعة . لم يعد الاستماع كافيا . تعلمت ان أعيد قراءة مقاطع بكاملها ، كأني اسأل الكاتب ان يعيد اقواله. اخذت أبحث عن المعنى الذي كان بالسابق يفوتني ولا اعـود اليه . لم تعد الفكرة الغامضة تكفي ، اصبحت اسعى لاستيعاب المعنى كاملا وأصر على الوضوح التام .

أغلال خفية كبلت ذهني بدأت تتساقط .. ظـلام سنين عديدة اخذ ينقشع .. تغيرت رؤيتي للامـور ، لا من حيث المضمون فقط بل ايضا من حيث طريقة الفهم والتحليل . صار بامكاني (وربما لاول مرة) رؤية الامور من وجهات نظر مختلفة ، ومن خلال مقاييس وقيم مختلفة .. شعرت فجأة اني اخترقت حاجزا ذهنيا كان يفصلني عن رؤية الامـور على حقيقتها .. وصار بامكاني رؤية ذاتي الاجتماعية (ربما لاول مرة ايضا) من «الخارج» وبروح موضوعية متزايدة .

- ١٤ -

اخيرا جاء الربيع وانقلبت حياتي رأسا على عقب .

في يوم عيد ميلادي (في نيسان) تسلمت علاماتي لفصـل الشتاء ، وكانت مرضية للغاية . فزال عن صدري عبء ثقيل ، واحسست بالثقة تعود الي .

اخذت أقلل من الذهاب الى المكتبة وأمضي الامسيـات بأكملها في قاعة الجلوس مع زملائي الاميركيين والعرب ، وأخرج معهم لتناول القهوة في مقهى «كريزي سبون» واحتساء البيرة في بارات الشارع ٥٥ .

ذهبت في احدى عطل الاسبوع لاول مـرة الى البيهايف ، وهو بار صغير في شارع رقم ٥٥ اشتهر بموسيقى الجاز ، برفقة

صديق اميركي وفتاتين تقطنان معنا في الانترناشيونال هاوس . وبعد ان شربنا بضعة أقداح من البيرة ، شعرت بحاجة ماسة للذهاب الى بيت الخلاء . لكن الحياء منعني فجلست حابسا انفاسي ، لا ادري ما أفعل . وبعد قليل نهضت رفيقتي ، وقالت وهي تدلك أسفل معدتها :

ــ انها البيرة ، يجب ان تجد مخرجا .

احمرّ وجهي خجلا وأنا اقف لها لكي تمر . واغتنمت الفرصة وقمت بدوري الى مكان «الرجال» . وهناك وقف الى جانبي شاب اميركي ، والتفت الي بعد ان فك أزرار بنطلونه وقال والبشر يطفح من وجهه :

ــ هذه هي السعادة بعينها ، أليس كذلك ؟

كان ذلك شعوري بالذات لتخلصي من العبء الثقيل . شعرت بغبطة جعلتني احب العالم بأجمعه .

ومنذ ذلك اليوم لم اعد أتردد عندما تدعو الحاجة ، في السؤال المباشر : « اين المرحاض ؟ » .

- ١٥ -

في فصل الربيع نشأت بيني وبين احدى زميلاتي في دائرة الفلسفة ، وكانت تسكن في الانترناشيونال هاوس، علاقة وثيقة، ما لبثت ان تحولت الى علاقة حب . كانت من كاليفورنيا ومن اصل نروجي واسمها كارول . التقيتها بضع مرات خارج قاعة الدرس ، وتناولنا الغذاء مرة اومرتين في ايدا نوس . واخبرتها عن درس برجستراسر ، فأخذت تتردد اليه . ودعوتها ذات مساء ، وكان يوم سبت ، الى قضاء السهرة برفقتي ورفقة راشد وصديقته . فقبلت الدعوة وكانت بداية العلاقة .

انتظرناها ذلك اليوم انا وراشد وصديقته في غرفة

الجلوس . رأيتها قادمة من بعيد ، تنزل الدرج ببطء وتأني . كدت ان لا أعرفها . حتى ذلك الحين لم أرها الا بملابس قديمة لا تلفت النظر : جرسيه مهلهلة وتنورة صوفية عريضة وكلسات بوبي سوكس وحذاء ذو نعل منخفض . كانت لا تستعمل المساحيق على وجهها . اما الان فكانت ترتدي فستانا ابيض ضيقا وحذاء عالي النعل ومعطفا من الفرو الثمين مسدل على كتفيها ، وعلى رأسها قبعة صغيرة من نفس الفرو ، وقد صبغت شفتيها بأحمر شفاه غامق . كانت بالفعل ملفتة للنظر . كان الشباب الجالسون حولنا يلاحقونها بأنظارهم . ووقف راشد يؤهل بها بحرارة وفي عينيه دهشة ، وشعرت انا بشيء من الارتباك والزهو . وخرجنا من القاعة تتبعنا نظرات الحاضرين .

اشترطت رفيقة راشد ، التي كانت لا تثق بمقدرته على قيادة السيارات ، خصوصا في الليل ، ان نستقل القطار الكهربائي او نأخذ سيارة تكسي . فتطوعت كارول ان تقود سيارة راشد الاولدزموبيل المستعملة ، وجلست بجانبها في المقعد الامامي وجلس راشد وصديقته في الخلف . وكانت تلك المرة الاولى التي انزل فيها الى قلب المدينة . سارت بنا كارول في شارع الاوتر درايف المحاذي للبحيرة . وبدت ناطحات السحاب تبدو عن بعد فوق اضواء المدينة ، والى يميننا امتدت مياه البحيرة السوداء . نظرت الى كارول وهي ممسكة بالمقود وبروفيلها الجميل يبدو واضحا في الظلام . كانت اول فتاة اميركية اقع في حبها . كانت في العشرين وكنت في الحادية والعشرين ...

قادنا راشد الى مقهى يدعى الهاي هات ، في افخم فندق في شيكاغو . وجلسنا الى طاولة صغيرة تتوسطها شمعة ، أشعلها الجرسون ثم وقف ينتظر طلبنا . طلبت كارول والفتاة الاخرى قدحا من الشري وطلب راشد وسكي ، وطلبت انا جين

كولنز (وهو الكوكتيل الوحيد الذي تذكرت اسمه في تلك اللحظة) شربته بسرعة وطلبت كأسا آخر . بعد وحدتي الطويلة شعرت الآن بنشوة عظيمة ، ورحت أتحدث الى كارول ، بينما قام راشد يراقص صديقته . تحدثت الى كارول بلا انقطاع ؛ كل ما تراكم في ذهني في الاشهر الاخيرة من افكار ــ عن نيتشه وكيركيجارد ودوستويفسكي ــ تساقط من فمي سيل من الكلمات . كانت كارول تنظر الي بعينيها الخضراويين ، ولا تتكلم الا لتطرح سؤالا او لتدفعني الى الزيادة من الكلام . وشربت كأسا ثالثا .

بقينا في المقهى حتى الثانية صباحا . وفي طريق عودتنا توقفنا في «الكريزي سبون» وشربنا عدة فناجين من القهوة . وعندما رجعنا الى الانترناشيونال هاوس ، كانت الساعة قد قاربت الرابعة . وفي اليوم التالي استيقظت عند الظهر ، وتحدثت تلفونيا مع كارول لتلاقيني في الكافيتريا . وأمضينا ما تبقى من يوم الاحد سويا . وفي المساء ذهبنا الى السينما . لم أقبلها او ألمسها طيلة ايام ، وأظنها استغربت ذلك ، وربما توجست شرا . لكنها اطمأنت وعاد اليها مرحها عندما اخذتها في أحضاني مساء ذات يوم دافيء في البارك ...

- ١٦ -

كارول والربيع غيّرا نمط حياتي . لكني بقيت على برنامجي في الدروس والمطالعة وحضور الندوات والمحاضرات . وحافظت على اعتدالي في السهر وارتياد المقاهي وتناول المشروب ، وذلك ليس لقوة ارادتي ــ قوة الارادة لا تكفي في اكثر الامور ــ بل لسببين : لنفاذ ما كان في حوزتي من نقود ولنهمي الفكري .

ورغم الضيق المالي الذي رافقني منذ ذلك الحين حتى

عودتي الى بيروت فقد كانت المرحلة الجديدة التي دخلت فيها هانئة خالية من الوحشة والانقباض اللذين عانيتهما في اشهر الشتاء . صرت عندما أفتح باب الانترناشيونال في الصباح يتلقاني نسيم الربيع الطري فأسير الى الدرس بنشوة ، أحيي من ألاقيه في الطريق من زملائي وأبتسم للجميع . وصرت أجلس في الكافيتيريا الى الموائد التي تعج بالطلبة ، وكارول الى جانبي ، وأشترك في الحديث وتبادل القصص والنكات . كان ذلك هو التحول نفسه الذي يحصل في حياة كل طالب عربي بعد مضي الاشهر الاولى الموحشة لقدومه الى الولايات المتحدة .
الا ان خيبتي بأمريكا لم يطرأ عليها تغيير . ما كانت تنقله الافلام والمجلات عن الحياة الامريكية ما هو الا مجرد أسطورة . فقد صورت الواقع الامريكي لا كما هو في الواقع ، بل كما يحلم به الامريكيون . الامريكيون مثلنا ، يذهبون الى السينما ، لا يشاهدون حياتهم على ما هي عليه من قساوة وضجر ، بل ليهربوا منها الى عالم جميل تخترعه لهم هوليود .

ما من طالب عربي الا شعر بخيبة امل بعد مجيئه الى اميركا. وأول ما يكتشفه ان الفتيات الامريكيات ليست كلهن جميلات كما يظهرن في السينما والمجلات ، وان الوصول الى اللواتي على جانب من الجمال امر صعب اذ ان التنافس عليهن شديد . وتمضي شهور قبل ان يستطيع مصاحبة فتاة مقبولة الشكل . أعرف شبابا من بلدان عربية امضوا سنوات في اميركا دون ان يقيموا علاقات عاطفية او ان يمروا باختبار جنسي .

الجمال ، كالخبرة والذكاء والموهبة ، هو في الولايات المتحدة سلعة تباع وتشترى ، لا بالمعنى الاخلاقي فحسب ، بل بالمعنى المادي الذي يفرض على الفتاة الجميلة نمطا من الحياة والعمل لمجرد كونها جميلة . أجمل طالبات شاهدتهن في شيكاغو كن طالبات جامعة نورثوسترن (بالقرب من شيكاغو)

وقد شاهدت بعضهن يعملن راقصات (غير متفرغات) في ملهى ستربتيز في كالوميت سيتي ، وهي بلدة صغيرة تقع الى الجنوب من شيكاغو .

لا انسى المرة الاولى التي ذهبت فيها الى كالوميت سيتي برفقة فوزي كحالة وراشد وطالب عراقي كان يدرس التاريخ القديم في جامعة شيكاغو (اسمه عبد القادر اليوسف) . كان فوزي اكبر منا سنا ويعمل مهندسا في احدى الشركات الهندسية ، وكان يقتني سيارة بونتياك حديثة ، يقودنا فيها بين الفينة والاخرى ويمنعنا من التدخين فيها .

كنا ذات مساء انا وراشد وعبد القادر جالسين نتحدث في قاعة الجلوس في الانترناشيونال هاوس ، واذ بفوزي يدخل علينا قائلا :

ـ مين بدو يجي معي ويشوف شي ما شافه في حياته بعد؟

فقال راشد :

ـ وفين هالشوفه العظيمه ؟

ـ ما بيهم وين . مستعدين تيجوا او لا ؟

ـ مستعدين بس خبرنا وين .

ـ عالستربتيز في كالوميت سيتي .

لم اكن أعرف ما هو الستربتيز . فسألت فوزي ـ فضحك وقال :

ـ ما بتعرف شو الستربتيز ؟ يا عيب عليك . ياللا ، قوموا يا شباب نفرجي هشام شو الستربتيز .

وقمنا الى البونتياك ذات المقاعد الجلدية الفخمة . وأطفأنا سجائرنا قبل ركوبها ، ثم انطلقنا جنوبا نحو كالوميت سيتي التي كانت تبعد حوالي عشرين ميلا .

قادنا فوزي اولا الى مقهى صغير فيه بار دائري عليه مسرح صغير يرتفع فوق البار . وكان المكان شبه خال من الزبائن ،

فجلسنا وطلبنا اربعة أقداح بيره . وما هي الا دقائق حتى صعدت الى المسرح فتاة ممشوقة الجسم ، شعرها قصير على جانب كبير من الجمال . وكانت عارية الا من قطعة قماش لفت حول وسطها وأخذت ترقص على نغمات الموسيقى التي كانت تعزفها اوركسترا مؤلفة من لاعب بيانو وضارب طبل وعازف طرمبون . اخذنا ننظر اليها من موقعنا حول البار ، وكانت تنظر الينا من عل وتبتسم . وعندما وصلت الموسيقى الى ذروتها ، دارت الفتاة حول نفسها دورات سريعة ثم خلعت قطعة القماش الصغيرة حول وسطها ، وغادرت المسرح وهي تستر فرجها بيدها اليسرى وتلوح بقطعة القماش بيدها اليمنى . وبعد فترة قصيرة حلت مكانها فتاة اخرى ، جميلة مثلها ، الا انها كانت ترتدي فستانا للسهرة طويلا . وراحت الاوركسترا توقع لحنا جديدا . وأخذت الفتاة تسير حول المسرح ببطء ، ثم بدأت تخلع ثيابها قطعة قطعة مبتدئة بالقفازات الجلدية . وعندما وصلت الى صدرية الثديين لم يتمالك فوزي نفسه فأخذ يصفق ويهتف بحماسة . وبقينا انا وراشد وعبد القادر ننظر اليها دون أن ننبس بكلمة . وأخيرا خلعت ما تبقى من ملابسها باستثناء خيط رفيع بقي حول وسطها ، وأخذت ترقص امامنا، ثم دارت حول نفسها كما فعلت زميلتها وغادرت المسرح راكضة في حين صوبت على ردفيها دائرة من الضوء الاحمر .

وانتقلنا الى مقهى ثان وثالث ، وشاهدنا المنظر نفسه في أشكال مختلفة: فتيات جميلات يخلعن ثيابهن على انغام الموسيقى ثم ينصرفن راكضات والضوء الاحمر مصوب على أردافهن . وأذكر بالخصوص ، ربما كانت أصغرهن سنا ، شقراء الشعر ، وشقراء الجسد . صعدت الى المسرح في ملابس الهنود الحمر، وأخذت ترقص رقصة هندية وتهتف بين الفترة والاخرى هتاف الهنود الحمر . ثم تخلع زيها الهندي قطعة قطعة الى ان وصلت

الى مشد الثديين ، ففكت الرباط خلف ظهرها فبدا نهداهـا المستديران وقد تدلى من حلمة كل منهما شريط احمر . وفجأة اخذت تحرك صدرها بشكل دائري نزولا وصعودا على وقـع الموسيقى فأخذ الشريطان يدوران حول نهديها كأنهما محركـا طائرة ..

واخبرنا البارمان ان جميع الفتيات هن طالبات في جامعة نورثوسترن ويعملن في ملاهي كالوميت سيتي بضع ساعات في الاسبوع ويتقاضين اجرا يفوق اجر اي عمل آخر يمكنهـن الحصول عليه في الجامعة . وسألته عن الفتاة في زي الهنـود الحمر ، فأخبرني انها من مدينة هيوستون في ولايـة تكساس وعمرها ١٨ سنة .

ولسبب ما لم انس هذه الفتاة وبقيت صورتها عالقة فـي ذهني الى الآن . اراها في احلامي بين الوقت والآخر ، كمـا رأيتها منذ حوالي ثلاثين سنة ، عارية تماما ، الا من الربـاط حول شعرها الاشقر ، والشريطان الاحمران يدوران حـول نهديها كأني اشاهد فيلما بطيء السرعة .

(منذ ان بدأت كتابة هذه الصفحات ، عجت احلامي بأحداث الماضي ، وعادت الي ذكريات ظننت ان الايام قد محتها ...) .

بعد ذلك لم اذهب الى مقهى ستربتيز الا مرة واحدة ، كان ذلك في الخمسينات في نيويورك برفقة يوسف الخال ومانويل يونس . ولكن شتان بين ما شاهدناه فـي كالوميت سيتي ، بطالبات نورثوسترن وجو شارع ٥٥ براقصاته المحترفات . لكن من يدري .. ربما كان بين الراقصات اللواتي شاهدناهن فـي نيويورك فتيات من نورثوسترن اخفقن في دراستهن ولم يجدن عملا غير ممارسة الستربتيز التـي مارسنها هواية فـي كالوميت سيتي .

- ١٧ -

لقد مضى على اقامتي في الولايات المتحدة ، عند كتابة هذه السطور ، ما يقارب الثلاثين عاما . خلال هذه المدة لم تقم بيني وبين اي اميركي علاقة يمكن تسميتها بعلاقة صداقة بالمعنى الذي نفهمه في مجتمعنا العربي . ويعود ذلك لاسباب حضارية واجتماعية ، فالصداقة بين الرجال في المجتمع الامريكي تأخذ شكلا آخرا يختلف عن الشكل الذي تأخذه في مجتمعنا . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فقد كنت دائما أفضّل عشرة المرأة الاميركية على عِشرة الرجل الاميركي ، ليس ذلك لاسباب جنسية او عاطفية ، بل لاني وجدت عند المرأة الاميركية ذكاء وحيوية ومرحا اكثر مما وجدت عند الرجل . اني أشعر بمتعة وارتياح بصحبة المرأة الاميركية لا أشعرهما ابدا بصحبة الرجل الاميركي . لكن بالطبع هناك استثناءات . وأود هنا ان أتحدث عن احد هذه الاستثناءات وهي صداقتي مع مارشال هودجسون، زميلي في جامعة شيكاغو ، الذي اصبح استاذا للتاريخ الاسلامي في تلك الجامعة ، ثم توفي بعد مرض عضال .

تعرفت على مارشال وهو يُعد للدكتوراه في تاريخ الحضارة الاسلامية . وكان يمضي معظم اوقاته في مكتبة المعهد الشرقي، حيث كنت أطالع في كثير من الاحيان . وبسبب انتمائه الى جماعة الكوكيرز (Quakers) فقد كان يمتنع عن شرب الخمرة وعن التدخين وعن اكل اللحوم .

كان مارشال يتناول غذاءه كل يوم على درج المكتبة ، الذي يتألف عادة من ساندويش جبنة وتفاحة او برتقالة يأكلها وهو مستمر في القراءة . التقيت به لاول مرة على الدرج ، وسألني عن حقل اختصاصي وتجاذبنا الحديث، وتوثقت أواصر الصداقة بيننا مع الايام وصرت اشتري ساندويشا (روستو او هام) ونوعا

من الفاكهة او الحلوى وأتناول الغـذاء معه على الدرج .

وسألني مارشال ذات يوم اذا كنت أمارس اي نوع من انواع الرياضة . فقلت له اني أمارس السباحة في الصيف . فقال :

ــ اننا بحاجة الى التمرين ، فالجلوس طيلة النهار يضر بالصحة ويضعف سريان الدم . فما رايك لو اشتركنا في مسبح الجامعة ؟

فوافقت على اقتراحه بحماس . وقمنا لتونا الى جمنازيوم الجامعة ، الذي لا يبعد اكثر من خمسين مترا عن المعهد الشرقي، حيث اعطى المسؤول الرياضي كلا منا مفتاحا وخزانة صغيرة لحفظ اغراضنا ، ودلنا على حوض السباحة ، وكان خاليا تقريبا من السابحين ، واخبرنا ان الحوض يبقى خاليا معظم ايام الاسبوع وباستطاعتنا التسبّح في اي وقت اردنا . منذ ذلك اليوم صرت آتي الى مكتبة المعهد الشرقي ثلاث مرات في الاسبوع ، فأطالع حتى موعد الغداء ، وأتناول الغداء مع مارشال على الدرج ثم نذهب الى الجمنازيوم ونتسبح ، ثم نعود الى المكتبة وندرس حتى الخامسة . وكان مارشال يعد أطروحته حول الحركة الاسماعيلية وكان يحدثني عن العقبات التي يجابهها في بحثه وعن أسلوب المعالجة الذي يتبعه ، ويسألني عن معاني بعض التعابير الدينية ، وكانت لغته العربية في القراءة ممتازة وأن كان لم يحسن تكلمها بطلاقة .

كان مارشال هادىء الطباع ، لطيفا ، لا تخرج من فمه كلمة عابرة. وكان متدينا ، بلا تعصب ، يكره العنف ويؤمن بالغاندية. ورغم التناقض في شخصيتنا ونظرتنا الى الامور فقد نمت صداقتنا بسرعة . طيلة تلك الفترة لم أجتمع بمارشال الا في مكانين : في المعهد الشرقي على درج المكتبة وفي الجمنازيوم ، ولا أذكر اننا اجتمعنا في اي مكان آخر .

بعد سنين تخرج مارشال بتفوق وعين استاذا في الجامعة وأصبح لدى تقاعد جون نيف رئيسا للجنة الفكر الاجتماعي . وفي تلك الاثناء انهى كتابه الشهير «مغامرات الاسلام» ★ في ثلاثة اجزاء ، وهو خلاصة دراساته في الحضارة الاسلامية طيلة عشرين عاما . وَنُشر الكتاب بعد وفاته منذ بضعة اشهر ، وهو بنظري اهم ما كُتب في التاريخ الاسلامي في القرن العشرين .

انقطعت الصلة بيننا بعد مغادرتي شيكاغو سنة ١٩٥١ ولم نجتمع ثانية حتى سنة ١٩٦٣ ، لدى عودتي الى شيكاغو للمرة الاولى منذ مغادرتي لها لحضور مؤتمر حول النظام السياسي في لبنان . لاقيته مصادفة في الميداوي ، فقد خرجت لأتنشق الهواء بعد جلسة ملأى بالتفاهات استغرقت معظم فترة بعد الظهر (وأسهم فيها الدكتور مالك وبأسلوبه المعتاد) ، واذا بصوت يناديني في الشارع . توقفت والتفت الى مصدر الصوت ، فرأيت شخصا يقطع الطريق ويلوّح الي بيده . لم اعرفه لاول وهلة ، وظننت انه يلوح الى شخص آخر . ناداني مرة اخرى ، فعرفته . كان مارشال هودجسون . تصافحنا بحرارة. وتبادلنا الحديث برهة ثم سألته اذا كان ما يزال يتسبح في الجمنازيوم فقال :

ــ كل يوم . وفي الوقت نفسه .

ــ وساندويش الجبنة ؟

ــ كل يوم ، ولكن ليس على درج المكتبة بل في مكتبي .

ــ مع تفاحة ؟

ــ مع تفاحة او برتقالة .

★ Venture of Islam .

ـ وأنت كيف احوالك ، هل تسبح في واشنطن ؟ صحتك تبدو ممتازة .

كان هناك تغير ملحوظ في مظهره ، فقد ضعف وابيضّ شعره وبدا كأنه يكبرني بعدة سنوات . عيناه فقط كانتا كما أذكرهما من وراء النظرات ، وادعتين حالمتين . قال انه في طريقه الى موعد ، وافترقنا على ان نلتقي قبل عودتي الى واشنطن . لكننا لم نلتق ، وبعد مدة قصيرة سمعت ان ابنتيه التوأمين تعانيان مرضا عضالا لا يعرف الاطباء ماهيته . وتوفيتا بعد مدة قصيرة . وأصيب مارشال بالمرض نفسه . وبقي يعاني آلاما مبرحة تحملها بصبر الى ان اراحه الموت .

- ١٨ -

لامس الموت حياتي في فترات مختلفة . فقد اختطف زملاء صغار لي في عهد الطفولة . وفي مطلع الشباب اختطف أعز اصدقائي الواحد تلو الآخر . ثم اختطف سعادة .

وكنت أشعر انه سيخطفني باكرا . وأيقنت عندما صرت في الثلاثين ان حياتي قد قاربت على النهاية . وفي الخامسة والثلاثين اعتقدت اعتقادا راسخا بأن ما تبقى من عمري لا يتعدى السنوات . وتأكدت ان الموت لا مفر منه لما اصبحت في الإربعين، في الحقبة التي توفي فيها كيركيجارد (٤٣) وسعادة (٤٥) وكامو (٤٧) . لكن الموت لم يأت . ومنذ بضعة ايام احتفلت بعيد ميلادي التاسع والاربعين . وها هي الخمسينات اصبحت على الابواب . اصبحت مؤمنا ان الموت قد غض الطرف عني . لهذا لم اعد أتوقعه . وأصبحت ارى المستقبل يمتد امامي الى ما لا نهاية . نهاية الحياة لم تعد تثير في نفسي شعورا مفجعا .

أنظر في المرآة ، فأرى وجهي كما أعهده ، لم يتغير . لا ارى التغيير الا عندما ارى وجوه رفقاء الصبا ، او تلامذتي القدامى. بالامس شاهدت في المصعد احد تلامذتي الاوائل في جورجتاون. لم اره منذ تخرجه في أوائل الستينات . كان حين ذاك شابا جميلا في مقتبل العمر . انه الآن كهلا خط الشيب وجهه . كيف يراني يا ترى ؟.

أحس بالتغيير على شكل آخر .

تمر بي الفتيات في الطريق فلا يرينني . تلتقي عيناي بعيونهن ، ولا ارى ما ينبىء بأنهن يشعرن بوجودي . لقد انقطع التيار السحري ، وانطفئت الشعلة .. هكذا أعترف ان عهد الشباب قد انتهى ...

- ١٩ -

كنت في التاسعة من عمري عندما اختبرت مرارة موت شخص عزيز للمرة الاولى . فقد اختطف صديقا حميما كان معي في مدرسة الفرندز برام الله ، اسمه نقولا تادرس من يافا . وبعد ذلك ببضعة سنين اختطف صديقا آخر هو صبحي قعوار من الناصرة .

ذات يوم اثناء اللعب شعر نقولا بصداع ، فأشار عليه العريف بأن يذهب الى غرفة المرضى لرؤية الطبيب ، واستمرينا في اللعب . وبعد وجبة العشاء علمنا ان نقولا وضع في غرفة المرضى ، فذهبت انا وصبحي لزيارته . لكن الممرضة لم تسمح لنا برؤيته . وفي اليوم التالي جاءت سيارة اسعاف ونقلته الى المستشفى ، وبعد بضعة ايام ، أعلن رئيس المدرسة ان نقولا تادرس قد توفي .

كان نقولا مثلي في التاسعة من عمره . كانت أكلته المفضلة الفاصوليا البيضاء مع الرز . وكان عندما تقدم لنا الفاصوليا في مطعم المدرسة يأتي على كل ما في صحنه ويمسحه نظيفا بالخبز . في يافا سرت في جنازته ، وكانت اول جنازة اسير فيها . أذكر المقبرة تماما . تطل على البحر الازرق ، مـــلأى بأشجار السرو والتماثيل الرخامية . النساء والاطفال تســير بخطى وئيـــدة . وماريوس ابن عم نقولا وزميلنا في الفرندز ، يسير وراء النعش والدموع تسيل من عينيه .

عادت الي ّ هذه الصور بوضوح وانا اسرد قصصا عن تلـك الفترة من حياتي لابنتي ليلى ، وهي الان في السادسة مـــن العمر . تصر علي ّ ليلى كل ليلة قبل ان تنام ان احدثها عـــن حياتي في المدرسة ، وعن مغامراتي مع صديقي نديم ــ وهـــو الاســم الذي اختلقته لنقولا . واخبرتها عن مرض « نديـــم » ووفاته المفاجئة وعن جنازته . وأثّر ذلك في نفسها تأثيرا بالغا وباتت تطالبني كل ليلة ان أحدثها عن نديم . وأصبح نديـــم ــ نقولا ــ بفضل وفاته شخصا مهما في حياتها . كل مساء ، عندما أقص ّ على ليلى ذكريات تلك الفترة من حياتي ، يعود نقولا الى الحياة وكذلك كل زملائي في مدرسة الفرندز . بهذا شاركت ليلى في طفولتي وتعر ّفت الى أصحابي الصغار الذين لا يكبرونها كثيرا وعاشت بالخيال الحياة التي عشتها في رام الله منذ اربعين سنـــة .

واختطف الموت صبحي بعد ذلك ببضع سنوات . كنـــا نجلس في قاعة الدرس جنبا الى جنب نتنافس للفوز بعطـــف استاذ الرياضيات والالعاب الرياضيـــة وكان لبنانيا اسمــــه طانيوس بخعازي . وكان للاستاذ بخعازي مكانة خاصة بيننـــا لسببين : لانه كان رياضيا ولانه كان يدخن بالسر . وكـــان التدخين في الفرندز يعتبر عملا شريرا يوازي بشناعته احتساء المشروبات الروحية ولذلك كان يثير اعجابنا . وكان الاستـــاذ

بخعازي يعير صبحي اهتماما اكثر مني ، مما اثار غيرتي وزاد من جهدي لكسب عطفه . وذات مرة ونحن في قاعة الدراسة حاولت استجلاب انتباهه بالاجابة على سؤال وجّهه الى صبحي ، ولم يستطع صبحي الاجابة عليه بسرعة . فأسكتني ، ولكني استمريت في الاجابة ، فقاطعني بصوت غاضب وطلب الي مغادرة القاعة .

فنهضتُ من مقعدي مصعوقا .

كنت أتوقع ان افوز باعجابه فاذا به يطردني من قاعة الدرس ، امام صبحي وزملائي . سرت نحو الباب وأنا اكاد لا ارى امامي . خرجت لا الوي على شيء أفتش عن مكان اختبىء فيه ، متمنيا ان تبتلعني الارض واختفي من الوجود . (كان ذلك حبي الاول لشخص بديل عن ابي) .

في تلك السنة (١٩٣٨) عندما انتقلت عائلتي الى بيروت ، سجلني والدي في المدرسة الاعدادية التابعة للجامعة الاميركية. ولشد ما كانت دهشتي ، في اليوم الاول ، عندما رأيت صبحي يدخل قاعة الدرس . وناديته وجلس في المقعد الى جانبي . وتجددت الصداقة بيننا .

توفي صبحي خلال العطلة الصيفية في عام ١٩٤٣ . كنت في يافا ، أستعد للذهاب الى عكا عندما وصلني خبر وفاته . نقل الخبر زميل ــ لا أذكر اسمه الآن ــ كان معنا في مدرسة الفرندز . كنت في طريقي الى سينما الحمرا والتقيت بزميلي هذا بالقرب من مبنى البلدية في اول شارع جمال باشا .

ــ سمعت الخبر عن صبحي ؟

ــ صبحي مين ؟

ــ صبحي قعوار .

ــ ما به ؟

ــ صبحي مات .

وأحسست بما يشعر به المرء عندما تهبط به الطائرة في جيب هوائي .

ــ كيف مات ؟

ــ ضربة شمس .

كان في رحلة تسلق ، مع عدد من اصدقائه في جبل صنين . ويبدو انه اضاع قبعته في الطريق وتعرض لضربة شمس ، فلما وصل الى قمة الجبل أحس بدوار ولم يعد يقدر على المشي . فحمله اصدقاؤه الى بسكنتا ثم استقلوا به سيارة الى مستشفى الجامعة . ولكنه ما لبث ان فارق الحياة .

- ٢٠ -

ومنذ بضع سنوات توفي ، هنا في الولايات المتحدة ، صديق عزيز آخر هو ماجد سعيد . كان ماجد من قرية صغيرة بالقرب من رام الله وأول شاب عربي أتعرف عليه في جامعة جورجتاون عندما التحقت بهيئة التدريس فيها سنة ١٩٥٣ . كان يدرس علم اللغات ، في ذلك الوقت ، وبعد حصوله على الدكتوراه عين مدرسا اللغة العربية في جامعة برنستون وتزوج وأصبح لديه طفلتان . وكنت بين الفترة والاخرى اقوم بزيارته في برنستون وكان هو يأتي الى واشنطن لزياراتي . وفي ربيع ١٩٦٦ دعيت للاشتراك في مؤتمر في برنستون (أشرف عليه حنا ميخائيل وكان حينذاك مدرسا في برنستون) . وحال وصولي اتصلت بحنا وسألته عن ماجد ، فأخبرني انه مريض في المستشفى ولا يعرف الاطباء سبب او طبيعة مرضه . وقال انه سيمر عليّ لنذهب سويا لزيارته . وكان المستشفى يقع بالقرب من الاوتيل ، فسرنا اليه مشيا على الاقدام . وصعدنا الى غرفة ماجد وفتح حنا الباب فوجدنا ماجد جالسا في الفراش ،

يستند الى اربع او خمس وسائد ، يقرأ الجريدة . وعندما رآنا طافت على وجهه ابتسامة عريضة . قال انه سيغادر المستشفى خلال بضعة ايام وانه لا يشكو من شيء اطلاقا ، الا من صداع بين الحين والآخر يصاحبه دوران . وبعد عودتي الى واشنطن اتصلت بماجد في بيته ـ كنت واثقا انه قد عاد اليه ـ فاخبرتني زوجته ان مرضه قد استفحل وانه قد نقل الى مستشفى في نيويورك ، واعطتني رقم تلفونه في المستشفى . فاتصلت به حالا . ورد عليّ صوت خافت ضعيف ، ظننت اول الامر ان هناك خللا في الاتصال ، لكنه كان صوت ماجد . كان في حالة ضعف لا يسمح له بالكلام ، فودعته على ان اتصل به في اليوم التالي .

كالمته في اليوم التالي . وكان صوته اقوى وكلامه اوضح . واخبرني ان الاطباء لم يتأكدوا بعد من طبيعة مرضه ، وانهم يقدمون له الادوية المختلفة وبعضها مخدّر يفقده القدرة على الكلام . وكان يبدو في حالة نفسية جيدة ، فاطمأننت عليه ، واخبرته ان جوزيف سلامه ويوسف الخال موجودان في نيويورك وسيزورانه قريبا . واتفقنا ان أهاتفه بعد بضعة ايام . وفي الحال اتصلت بيوسف في نيويورك ـ وكان على معرفة وثيقة بماجد ـ وطلبت اليه ان يذهب مع جوزيف لزيارته والاستفهام من الطبيب المسؤول عن حاله .

وبعد بضع ساعات اتصل بي جوزيف سلامه واخبرني حقيقة الوضع :

ـ ماجد معه سرطان الدم ، ولا امل بشفائه .

كنت أتوقع ذلك .

استمر صراع ماجد مع الموت عدة اسابيع . كنت اتحدث معه على التلفون اسبوعيا وآخر مكالمة معه كانت في ايار سنة ١٩٦٦ من ناجزهيد على شاطىء كارولينا الشمالية حيث كنت

امضي العطلة مع زوجتي . كالمته من غرفة التلفون العامة على قارعة الطريق ، وهبّت في ذلك اليوم عاصفة قوية على المنطقة. كان صوت ماجد يصلني خافتا ، والرعد يقصف بين الحين والآخر فيطغي على صوته . قال ان صحته في تحسن مستمر ، وان كل شيء على ما يرام . كانت آخر مرة اسمع فيها صوته . فارق الحياة بعد اسبوع ، بعد ان فقدت الادوية المخدرة فعاليتها في تخفيف آلامه . وأخبرني احد الذين زاروه في المستشفى قبل وفاته بأنه هزل الى درجة اصبح فيها بحجم الطفل . وسجي جسده قبل دفنه في محل دفن الموتى في برنستون ، حسب رغبة زوجته ، ليتاح لاصدقائه مشاهدته للمرة الاخيرة . لكني رفضت رؤيته على هذا الشكل . وحملنا تابوت ماجد وسرنا به الى المقبرة الواقعة خلف الكنيسة الكاثوليكية في وسط البلدة حيث واريناه التراب .

- ٢١ -

في آخر فصل الربيع انفقت آخر ما تبقى معي من نقود ، الا عشرين دولارا تبقت في رصيدي بالبنك . ومن حسن حظي حزت من الجامعة على مساعدة مالية تكفي لتسديد اقساطي ودفع اجرة غرفتي في الانترناشيونال هاوس . لكني كنت بحاجة الى عمل لتسديد نفقات طعامي ومصروفي اليومي . فرحت افتش عن عمل ، وخففت مصروفي الى أبعد حد ممكن ، وأخذت اتناول طعام الافطار في غرفتي ، وأهيىء ساندويتشا اتناوله وقت الغداء ، وأتناول وجبة المساء فقط في الكافيتيريا . وفي اليوم الذي سحبت آخر ما تبقى من رصيدي في البنك ، اعلمني مكتب التوظيف في الجامعة ان هناك عملا شاغرا في احد مصانع تعليب اللحوم . فتوجهت اليه حالا ، وبصحبتي

كارول . وكان في أقذر أحياء شيكاغو ، حيث تذبح الخنازير والابقار آليا ، وتقطع وتعلب ، فلا يبقى منها الا الجلود والأقدام، التي تغسل وتباع . كانت الرائحة الكريهة تتزايد كلما اقتربنا من المصنع . دخلت مكتب التوظيف بتردد تتبعني كارول ، وفي يدي الرسالة التي زودتني بها مديرة مكتب التوظيف في الجامعة . نظر الرجل الى الرسالة ، ثم رفع نظره اليّ وقال :

ــ ما وزنك ؟

فأجبته :

ــ ١٣٠ باوند .

ــ هل بامكانك رفع ٧٠ باوند ؟

ــ لا ادري . ربما .

كان العمل حمل قطع من لحم الخنزير والبقر (يتراوح بين الخمسين والسبعين باوند) من مكان القطع الى داخل البرادات حيث الحرارة عشرين تحت الصفر . ادركت في الحال اني لن أقدر على هذا العمل .

وقبل ان اجيب قال الرجل :

ــ آسف ، لا اظنك قادرا على هذا العمل .

فعدنا الى الانترناشونال هاوس غير آسفين . وفي صباح اليوم التالي ذهبت الى مكتب التوظيف في الجامعة واخبرت السيدة المسؤولة عما جرى في المصنع . فأخذت بطاقتي ثم نظرت في الملف ، وقالت وهي تبتسم :

ــ انك محظوظ . لقد شغر اليوم عمل في الجامعة لا اظنه يتطلب قوة فائقة . كان العمل في نادي الاساتذة الذي اعرفه جيدا ، فقد تناولت الغداء فيه عدة مرات بصحبة برجستراسر . واستقبلتني السيدة المسؤولة عن النادي في مكتبها الفخم وشرحت لي واجباتي ، وتبين لي ان وظيفتي ان اكون حمّالا .

كان عليّ أن ألبس قميصا كالذي يلبسه جرسون المطعم وانتظر الضيوف في قاعة الاستقبال لحمل حقائبهم الى غرفهم . قالت:

ــ عندما تحمل الحقيبة الى الغرفة افتح النوافذ والستر ، وقف لحظة عند الباب قائلا : ? Will this be all, Sir فاذا منحك الضيف بخشيشا ، اشكره وانصرف . وان لم يفعل ذلك فإياك ان تمد يدك او تقول شيئا آخر ، بل اشكره باحترام وانصرف .

وكان موعد الغداء قد حان ، فقادتني المديرة الى المطبخ وأجلستني الى طاولة مستديرة وتناولت الغداء مع بعض الموظفين . وشعرت بكآبة قوية ، «انا أعمل حمالا» . تمالكت نفسي . في اليوم التالي لم أحضر للعمل .

واخيرا حصلت على عمل مرض في مكتبة الجامعة . عينت حارسا ، أفتش الخارجين من المكتبة للتأكد من انهم لا يسرقون كتبا . كنت اعمل خمس عشرة ساعة في الاسبوع ، موزعة بشكل ينسجم مع برنامجي الدراسي : ساعات المساء من السابعة حتى العاشرة (موعد اقفال المكتبة) خلال ايام الاسبوع ، ويوم السبت من الثانية بعد الظهر حتى الخامسة . في تلك الاوقات كانت المكتبة شبه خالية . كنت أجلس الى طاولتي عند المدخل أطالع وأدرس معظم الوقت . وعندما أتعب من المطالعة ، أتحدث الى زميلاتي اللواتي يعملن في دائرة التوزيع ، فيتركن عملهن ويجلسن معي . لقاء هذا العمل كنت اتقاضى خمسة عشر دولارا في الاسبوع (دون ضريبة الدخل) وكان المبلغ كافيا لتسديد متطلباتي كلها . وبذلك توصلت الى شبه حل لمشكلاتي المالية وسارت حياتي على ما يرام ، الى ان تدهور الوضع في فلسطين .

- ٢٢ -

كان ذلك في مطلع الربيع . حتى ذلك الحين كان الجميع يتوقع انتصارا عربيا في فلسطين ، بالرغم من «النكسات» التي حلت ببعض المدن والقرى الفلسطينية . بعد العشاء كان الطلبة العرب يتجمعون في قاعة الجلوس في انترناشيونال هاوس ويأخذون في تحليل الأخبار . وكان الطلبة المصريون اكثر مرحا في معالجة الموضوع . من ناحية ، كانوا يشعرون ان ليس لهم دخل مباشر في الموضوع (القوات المصرية لم تكن قد دخلت فلسطين بعد) ومن ناحية اخرى كانوا يملئون من الحديث بسرعة، فينصرفون الى الدعابة والضحك والتحدث بمواضيع اخرى .

كنت لا ازال أشعر بالشفقة نحو اليهود في فلسطين . لم أنس الحادثة التي سردها عليّ كامل في عكا قبل سفري . كنت أتمنى ان لا يقسوا عليهم العرب .. يكفي ايقافهم عند حدهم .. لم يخطر ببالي ان الامور ستكون على عكس ذلك ، نحن الضحية وهم المنتصرون القساة .

منذ أواخر آذار بدأت بمطالعة النيويورك تايمس يوميا . وكانت تصل بالطائرة الساعة الحادية عشرة من كل يوم تحمل تفاصيل ما يجري من يوم الى آخر ، ينقلها المراسلان دنا آدم سميث وجين كاريغان .

في نيسان بدأت أحس بالخوف . اصبح واضحا ان اليهود في وضع هجومي . التراجعات العربية ليست مجرد تراجعات تكتيكية . وفي حين كان لدى القوات اليهودية مصفحات ومدافع ، وقيادة عسكرية منظمة كان الوضع العربي متفككا وفي تقهقر وحالة فوضى . وكانت القيادات التقليدية تتصارع فيما بينها ، والقوات العسكرية ، وعلى رأسها جيش الانقاذ ، تقاتل قتالا عشوائيا ، دون اي تنسيق او تعاون فيما بينها .

يقول فوزي القاوقجي في مذكراته ان جيش الانقاذ كان

ينقصه الرجال والذخيرة ، ومواصلاتـــه في فوضى دائمة . عندما تنفذ الذخيرة ويبرق الى القيادة في دمشق ، تأتيــه الوعود ولكن الذخيرة لا تصل ابدا . فيضطر الى الانسحاب من موقع الى آخر .

كان المسرح معدا للمأساة . ايقنت من ذلك وانا أتتبع يوميا تطور الاحداث في النيويورك تايمس .

نيسان كان الشهر الحاسم .

في ٦ نيسان اخترق اليهود الحصار حول القدس ، ودخلتها قافلة محملة بالمؤن والذخائر . وفي اليوم التالي احتل اليهود قريتي خلـدة ودير محسن على طريق القدس .

وفي ٨ نيسان استشهد عبد القادر الحسيني في القسطل.

وفي ٢١ نيسان هاجم اليهود قرية ديرياسين ودمروها تدمـيرا كاملا (لم يكن هناك ذكر للمذبحة في النيويورك تايمس) .

وفي ١٢ نيسان عقد المجلس الصهيوني اجتماعا عامـا في تل ـ ابيب وقرر اقامة دولة يهودية مستقلة على ارض فلسطين في ١٦ ايار ١٩٤٨ .

وفي ١٩ نيسان سقطت مدينة طبريا ، وفي ٢٢ لحقت بها مدينة حيفا . وفي آخر نيسان سقطت يافا .

دانا آدم سميث في تل ابيب يبرق بتاريخ ١ ايار : «رفرفت اليوم نجمة داود فوق حي المنشية في مدينة يافا عندما تسلمت قوات الهاجانا ، باسم الدولة اليهودية المواقع التي كانت قوات الأرجون تزفاي لؤومي قد احتلتها بعد قتال عنيف دام اربعـة ايام . وتساعد السلطات البريطانية الآن سكان مدينة يافا على الجلاء عن طريق البحر بواسطة باخرتين راسيتين في مينائها».

وفي ٢ ايار يبعث بالبرقية التالية :

«قال قائد قوات الأرجون ، وامارات التعب بادية على وجهه وهو يصافح ضابط الهاجانا الذي جاء ليتسلم قيادة المركز الذي

احتلته قواته في يافا :

« ـ اني أسلمك ارضا دفعنا ثمنها باهظا فلا تتخل عنها بسهولة .

«وأجاب ضابط الهاجانا :

« ـ لن نتخلى عن شرف حمايتها .

« حدث هذا التبادل في احدى البنايات المهدمة ، التي تحيط بها المدافع الرشاشة والثقيلة بينما ربض العدو وراء الركام في الناحية الاخرى من الشارع ، حيث لاح على بعد ١٠٠ ياردة البحر الابيض المتوسط بلونه الازرق المائل الى الاخضرار .

« وفي الشارع الواقع خلف جامع حسن بك ، الذي كان يستعمله القناصة العرب لاطلاق النار على تل ابيب ، انتشرت الجثث على الارض وفوق المئذنة ، الى جانب علم الاستسلام الابيض الذي رفعه العرب ، يرفرف علم الدولة اليهودية» .

المنشية ... جامع حسن بك . بالقرب من الجامع ، على بعد حارتين ، كان يسكن الشيخ عباس بيدس صديق ابي وجدّ بيدس بيدس وأخوه برجس زميليّ في مدرسة الفرندز .

كان بيتنا لا يبعد عن بيتهم كثيرا .. نقلنا اليه وانا في الثالثة .. وكان يقع بالقرب من «البحر الازرق المائل الى الاخضرار » .

أتذكر بحر يافا جيدا .. انه بحر طفولتي .. أشتمّ رائحته في هذه اللحظة .. أتذوق طعمه المالح .. أحس بهوائه على وجهي .. كان لونه بالفعل ازرق مائلا الى الاخضرار عندما يكون هادئا .. أما في العواصف فكان يتغير الى لون رمادي غامق . تعلمت فيه السباحة ، وابتلعت من مياهه كميات وافرة . في ايام الصيف في الصباح الباكر كان أخويّ الكبيران نظام ونظيم وأولاد الجيران (بيت يوسف طالب) يركضون الى الشاطيء ليسبحوا ، فألحق بهم رغم تهديدات والدتي ووعيدها . كنا نخرج من الباب الى البحر مباشرة . كان الكبار يركضون نحو

الامواج ، ويقفزون فوقها ويسبحون عبرها الى ان يصلوا الى حيث المياه هادئة . الحق بهم وأحس بالملح في حلقي . أسعل ويمتلىء أنفي بعبير البحر وتدمع عيناي وأنظر حولي فأرى عن بعد ميناء يافا وفوقها المدينة القديمة ناتئة في البحر (انها اليوم «مدينة الفنانين» و«السوّاح») . والى يميني ارى الشاطىء يمتد الى تل ـ ابيب .

كان بيتنا في الطابق الثاني ، فوق بيت يوسف طالب، لصق بيت ملص ويطل على شارع المنشية الرئيسي . وكانت دائرة البوليس وصيدلية المغربي لا يبعدان عنا كثيرا . وفي الجهة المقابلة كان هناك دكان صغير كنت اشتري منه بتعريفة واحدة (نصف قرش) شوكولاته كادبري وعلكة «أوه بوي» .

ومن جهة البحر ، على حافة الشاطىء ، كانت تقوم مدرسة الروضة التي وضعت فيها قبل ان أنقل الى المدرسة الانكليزية في شارع التميمي . انتقلت الى المدرسة الانكليزية في سن الرابعة او الخامسة من عمري باصرار والدتي ، التي كانت ترغب في تنشئتي نشأة حديثة ـ اي على يد المدرسات الانكليزيات . كنت أذهب الى المدرسة برفقة خالتي نعمت (وكانت حينئذ فتاة في الثانية عشرة او الثالثة عشرة من عمرها تدرس في القسم الاعدادي من المدرسة نفسها) . وكانت تأتينا كل يوم في الساعة السابعة والنصف صباحا عربة حنطور تنقلنا الى المدرسة وتعود بنا الى البيت بعد الظهر . وفي الطريق ذات يوم وقع اصطدام ، فتوقفنا عن السير . نظرت من الحنطور ورأيت رجلا ملقى على الارض والدم يسيل من رأسه . كانت اول مرة ارى فيها دما يسيل . كان أحمر قانيا يختلط بالتراب ويصبح بنيا غامقا . كانت الناس تتصايح وتتدافع الى ان اتى البوليس وعاد السير الى الحركة .

اذكر اليوم الذي دشن فيه خط باصات المنشية ـ تلك

الباصات التي صُنعت خصيصا لشوارع المنشية الضيقة . كانت الاجرة بتعريفة واحدة ولم يكن هناك في باديء الامر مواقف للباص . فكان من يريد الركوب يقف على قارعة الطريق حيثما اتفق ويمد يده بقطعة النقد . وكثيرا ما كان يحدث ان لا يتوقف السائق اذا كان مستعجلا ، او ان يتوقف لكل من كان يلاقيه في الطريق اذا كان لديه فائض من الوقت . وكان احيانا اذا دعاه الاصدقاء لشرب فنجان قهوة ، يوقف الباص وينزل ويجلس في المقهى والركاب بانتظاره .

كانت عربة الحنطور في تلك الايام بمثابة التاكسي . وكان والدي لا يركب الباص لمنزلته الاجتماعية وكان عندما يستأجر عربة حنطور يسمح لي احيانا بأن أجلس بجانب «العربجي» . وكانت تلك سعادتي العظمى .

كان اولاد الحارة يركضون وراء الحنطور ويتعلقون به من خلف . فينادي بعض المارة «وراك عربجي اضرب ...» فيضرب السائق بكرباجه خلف الحنطور ، وأحيانا يصيب هدفه فيقفز المتعلقون وهم يصيحون ألما ، وأحيانا اخرى يخفق ، فيبقون متعلقين حتى نهاية الشارع . وكانت الخيل كثيرا ما تراودها الطبيعة اثناء سيرنا فترفع ذيلها ، الذي لا يبعد عن مقعد العربجي كثيرا ، وتبرز كرات مستديرة تقع على الارض كالقنابل . كلما صعدت الى انفي رائحة روث الخيل الحلوة تعود الي ذكرى المنشية وصورها .

قيل ان احتلال المنشية تم بظرف ايام قليلة ، ورحل سكان يافا عن باقي المدينة خلال ٢٤ ساعة ، وأعلنها اليهود «مدينة مفتوحة» .

- ٢٣ -

كل يوم أجلس في الميدواي وأقرأ تفاصيل الكارثة ويتفاقم

يأسي . اهلي اصبحوا لاجئين .. شعبي اصبح بلا وطـــن .. اصبحت انا بلا مأوى .

لم ينقذني من حالة اليأس هذه سوى ايماني بالحزب . كنت أعتقد مخلصا بأن الحزب سيحرر فلسطين ويزيل العار الـذي احق بنا . وبقيت على هذا الايمان الى أن اغتيل سعادة سنـة ١٩٤٩ وسُحق الحزب فـي لبنان ووقّعت الدول العربيـــة معاهدات الهدنة مع اسرائيل .

- ٢٤ -

مضى اكثر من ستة اشهر على وصولي الى شيكاغو ، دون ان ارى خلال هذه المدة شيئا من هذه البلاد الشاسعة سـوى هذه المدينة ، او بالاحرى بعض ضواحيها .. لم أشعر بأيــة رغبة في مشاهدة اي شيء ... مغادرتي لهذه المدينة ستكون لكي اعود الى بلادي .. قلبي وعقلي هناك . ما يحدث هنــاك اصبح هدف اهتماماتي كلها .. كل يوم يمر يقرب موعـــد العودة .. لم أرجع عن قراري الذي اخذتــه يوم وصولي .. سوف أتوقف عند شهادة الماجستير .. لا أريد الدكتوراه .. ما حاجتي اليها الان ؟ سأنهي في هذا الفصل ــ فصل الصيف ــ المتطلبات الاساسية ، وفي الفصل القادم سأكتب الأطروحة . وقبل بدء عطلة عيد الميلاد سأتقدم للامتحانات النهائيـة . واذا سارت الامور كما يجب فسأتخرج قبل نهاية العام ويصبـــح بامكاني العودة في مطلع ١٩٤٩ .

بدأت فصل الصيف بعزم وثقة . أحتاج الى تسع نقـــاط دراسية فقط ، اي الى انهاء ثلاث مواد . وعند التسجيل لـم يعذبني ، لاول مرة ، همّ دفع الاقساط . وبالاضافـة الى المـواد الثلاث المطلوبة أسجـل في درس يقدمه استاذ في دائرة الفلسفة

اسمه ت. ف. سميث حول كتاب «الاخلاق» للفيلسوف البريطاني ت. هـ. جرين .

كان صف سميث ينعقد في الساعة الثانية بعد الظهر ، في عز الحر . وفي ذلك الوقت لم يكن هناك مكيفات تبريد في الجامعة ، وكان صيف شيكاغو حارا رطبا ، بالاخص بعد الظهر. دخلت القاعة للمرة الاولى متوقعا ان اجد حالة من التأفف بين الطلبة مثل التي عهدتها في الجامعة في بيروت عندما يقترب فصل الصيف . (كنا في بيروت نلحّ على الاستاذ ان نخرج الى الهواء الطلق لنجلس في ظل شجرة مطلة على البحر ، ونصرف ما تبقى من الدرس في التمدد على الارض والغرق في أحلام اليقظة) لكني وجدت الطلبة ، وكان عددهم يقارب العشرين في وضع تيقظ كامل .

كان الاستاذ سميث في الخمسين من عمره يرتدي بدلة صيفية انيقة ورباط رقبة ينسجم مع لون بدلته ، وكان محاضرا خلاّبا ، يفرض الانتباه على السامع بصوته وأسلوب القائه . كان الطلبة يتتبعون كلماته باهتمام كامل ويسجلون ملاحظاتهم في دفاتر يبللها العرق . كنت بين الحين والآخر أتلفت حولي لأرى عما اذا كان احد منهم يتثائب ، لكنهم كانوا جميعا يكتبون او يصغون بانتباه .

كنت قبل الذهاب الى درس الاستاذ سميث أتناول ساندويتشا مع مارشال ثم أتمشى قليلا في الميدواي حتى الساعة الثانية . وفي ايام الفراغ بعد الظهر كنت ألتقي بكارول في المكتبة ظهرا ونذهب الى السوبرماركت ونشتري ما نحتاج لصنع الساندويش ونذهب الى ستوني ايلاند بارك ، وهي حديقة عامة بالقرب من البحيرة ملأى بالاشجار والزهور وخالية تماما من الناس في تلك الفترة من النهار ، ونجلس في ظل شجرة ونتناول طعامنا في خلوة تامة .

وفي الايام الشديدة الحر كنا نذهب الى شاطيء البحيرة ، ونخلع ثيابنا ونتمدد فوق الرمال . ولا يستحم في بحيرة مشيغن الا القلة بسبب برودة الماء . ولم اكن أعرف ذلك . وفي مشوارنا الاول الى الشاطيء كانت حرارة الطقس فوق التسعين فارنهيت. وعندما وصلنا الى الشاطيء خلعت بنطالي وقميصي بسرعة – كنت مرتديا مايوه السباحة – ورحت أركض نحو الماء . سمعت كارول تناديني :

– انتظر قليلا . لا تخط في الماء .

لكني لم أتوقف . دخلت الماء ركضا ، كما كنا نفعل في بيروت ، الى ان غمرتني الى وسطي . عندئذ توقفت .. شعرت أن نصفي الاسفل قد تجمد وفقدت القدرة على الحركة . ولاحظت ان احدا لا يسبح في الماء .. المستحمون جميعهم جالسون على الشاطيء . حاولت تحريك قدمي فلم استطع . ايقنت اني اصبت بشلل .. رأيت كارول واقفة على حافة الشاطىء تغالب ضحكها . كان منظري المؤلم مثيرا للضحك .. اخيرا دفعت نفسي نحو الشاطىء ، الذي لم يبعد اكثر من بضعة أمتار ، وأخذت كارول تُدلك قدميّ وساقي بالمنشفة ، وأحسست بالدم يسري في عروقي من جديد . تلك كانت المرة الاولى والاخيرة من سباحتي في بحيرة مشيغن ..

– ٢٥ –

في حزيران أُعلنت الهدنة الاولى في فلسطين . مضت اشهر لم أستلم خلالها رسالة واحدة من اهلي .

آخر ما وصلني هو ان والدتي وأخي الاصغر خالد كانا في عكا عند بيت جدي . وفيما بعد ، عندما هاجم اليهود عكا ، التجأوا جميعا الى بيروت وأقاموا عند سيدة من اقرباء جدتي

اسمها خيرية خانم ، تسكن في شقة صغيرة في رأس بيروت بالقرب من طلعة شوران ، وبعد ذلك انتقلوا الى شقة صغيرة في حي البسطة تقع على خط الترام . وخلال بضعة اشهر توفي أخي خالد ثم تبعه جدي ولم يبق من العائلة سوى النساء ، امي وجدتي وعمتي (شقيقة جدي) وخالتي .

وكان ابي وأخي الاكبر نظام في يافا عندما هاجمها اليهود . والتجآ الى نابلس ، مسقط رأس والدي ، وأقاما هناك بضعة اشهر ثم انتقلا الى عمان ، وأقاما عند عمي شكيب ، وكان يسكن عمان منذ ما قبل الحرب .

- ٢٦ -

لم أدرك في بادىء الامر ، ان ما نزل بنا في فلسطين كان ضربة تختلف عن كل ما اصابنا في السابق . ماضينا كله سلسلة من المصائب . لكن المصائب كانت تأتي وتروح ، وتبقى حياتنا على حالها . اما الآن فقد اقتلعت جذورنا وفقدنا الارض التي تنغرز فيها حياتنا ..

عندما اندلعت ثورة القسام سنة ١٩٣٦ كنت في التاسعة من عمري وتلميذا داخليا في مدرسة الفرندز . كان السفر ممنوعا في الليل ، وكانت الاسواق مغلقة ليلا نهارا . لكن في مدرسة الفرندز كان كل شيء متوفرا . كانوا يقدمون لنا «العصرونية» كالعادة ، الزيت والزعتر في الخبز الافرنجي الطازج . وأحيانا دبس مع طحينة او لبنة . اللبنة كان فيها حموضة قوية .. في عطلة عيد الميلاد والربيع كنت اعود الى يافا حيث كان فيلم فلاش غوردن المسلسل يعرض في سينما الحمرا . اما عطلتا الربيع والصيف فكنت اقضيهما في عكا . عند المغيب في عكا كنا نشاهد الدوريات البريطانية تغادر كامب

المفجر باتجاه صفد وقرى الجليل . كانت تتألف عادة من مصفحة او مصفحتين تتبعهما سيارة باص محملة بالجنود . فوق سطح الباص كان يتمدد جنديان خلف مدفع برن مركّز الى سقف الباص . وكان منظر الجنود ، بالاخص الجنديان فوق سطح الباص ، مثيرا للغاية . كنا نقلدهم في العابنا على سطح سيارة مهملة امام بيت كامل وأكرم .

لم ينقصنا شيء خلال ثورة ١٩٣٦ . كان الخطر بعيدا عن الطبقات الميسورة . فقط الفلاحون والطبقات المحرومة قاتلت وتعذبت ، ودفعت ثمن الثورة . المثقفون والافندية كانوا يتتبعون اخبار الثورة في صحيفتَي «فلسطين» و«الدفاع» . كنا نسمع ان فلانا قتل ، او بيتا نسف ، او ثائرا أعدم ، فنلعن الانكليز .. لكن حياتنا بقيت تسير على نمطها المعتاد .

في صيف ١٩٣٨ وقع حادث كان له تأثير كبير على مجرى حياتي . فقد حاول مجهول اغتيال عمر البيطار ، صديق ابي الحميم وأحد زعماء المعارضة في فلسطين (ومن الذين استمروا في تحدي الثوار بارتداء الطربوش) .

وحين سمعت امي بالخبر اخذت تحزم حقائبنا .

ــ لازم نترك حالا . دور ابوك جاي .

وفي الصباح استقل ابوزكي وزوجته سيارة الى لبنان . وفي اليوم التالي لحقنا بهم ، انا وأبي وأمي . وفي عاليه وضع ابوزكي وأبي الطربوش على رأسيهما وسارا الى المقهى المطل على بيروت وجلسا الى طاولة صغيرة مستديرة وأخذا يدخنان نرجيلتهما بلذة وصمت . ولسان حالهما يقول : العالم بألف خير .

في نهاية الصيف نزلنا الى بيروت واستأجر والدي شقة صغيرة بالقرب من المنارة عند آخر خط الترامواي ، وألحقني بالمدرسة الاعدادية التابعة للجامعة الامريكية . وفي السنة التالية عادا ابي وأمي الى يافا ودخلت القسم الداخلي في المدرسة .

وبقيت في بيروت طيلة سنوات الحرب وحتى تخرجي من الجامعة الامريكية سنة ١٩٤٧ . وفي هذه الاثناء لم أرجع الى فلسطين الا لقضاء بعض العطل المدرسية .

لامست الحرب العالمية الثانية حياتي ملامسة طفيفة . السكّر تغير لونه ، والخبز الابيض اصبح اسمر والاضواء صارت زرقاء خافتة ، وغير ذلك لم يحدث شيء يذكر . من الحرب نفسها شاهدت القليل . في صيف سنة ١٩٤١ رأيت من فوق سطح بيت جدي في عكا الطائرات الايطالية الصغيرة تقصف مصافي البترول بالقرب من حيفا ، فتتصاعد سحب الدخان الصغيرة ، وتنتهي الغارة . ومرة أطلقت صفارات الانذار في بيروت ، فهرعنا الى الملاجيء في ملعب كرة القدم ، وشاهدنا على علو شاهق طائرتين ، قال مستر اسعد استاذ العلوم الطبيعية، انهما المانيتان . كانت تلك المرة الاولى والاخيرة التي نذهب فيها الى الملجأ .

وفي صيف ١٩٤١ احتل الحلفاء سوريا ولبنان . كنت حينذاك في عكا ، اسبح وأتصيد السمك وأركب الدراجات مع كامل وأكرم . ولما عدت الى بيروت في اواخر ايلول وجدت كل شيء على حاله ، الا كثرة الجنود البريطانيين وتغيّر الافلام السينمائية من فرنسية الى اميركية وبريطانية .

ثم وقعت كارثة ١٩٤٨ ، ولم يصبني منها الا الرذاذ . وفي سنة ١٩٤٩ ، التي حطّم فيها الحزب (بعد عودتي من شيكاغو ببضعة اشهر) أُصبت بضربة مباشرة . ورغم ذلك فقد نجوت بنفسي وعدت الى اميركا ، في حين اعتقل معظم اصدقائي وقتل البعض . ومنذ ذلك الحين وحتى سنة ١٩٦٧ تحولت حياتي الى حياة صمت في المنفى .

في اشهر صيف ١٩٤٨ استولت عليّ في شيكاغو ، بسبب الاحداث في فلسطين ، حالة من الانقباض لم اكن استطيع خلالها عمل اي شيء او رؤية احد . كنت أذهب مع كارول الى

شاطىء البحيرة وأجلس بجانبها صامتا لا أنطق بكلمة ، ينهشني الهم والافكار السوداء . وكانت كارول تحاول من حين لآخر ان ترفه عني ، فأصدها بصمتي وانقباضي ، فتعود الى كتابها ، وأبقى عابسا أتطلع الى الافق البعيد كأني نابليون في سجنه في جزيرة سانتا هيلينا !

- ٢٧ -

نهاية الصيف . بدأ الجو يتغير ، وازدادت الرطوبة وتكثف الضباب .. لون الشجر اخذ يتغير ايضا ، اوراقه الصفراء والحمراء تتساقط تحت المطر .. لم يبق الا ثلاثة اشهر ، ثم اعود الى بلادي .

امس وصل عبد اللطيف سكّر من كاليفورنيا عائدا الى دمشق . كان صديق لبيب زوينا الحميم في الجامعة الاميركية في بيروت ، وشريكه في غرفة في البريتيش هوستيل . كتب الي منذ بضعة ايام قائلا انه كلّ من الدراسة ولا رغبة له في الاستمرار ، وقرر العمل في التجارة مع والده في دمشق .

ذهبنا بعد الظهر في نزهة باتجاه البحيرة . عبد اللطيف يقص عليّ القصة تلو القصة . لا يكل عن الحديث . لا يعرف الصمت او الضجر . كل موضوع يبدو له مهما وممتعا . ليس هناك فترات صمت ينقطع فيها حديثنا ، او بالاحرى حديثه . مغامراته الغرامية في هوليود تذهلني . ما مدى صحتها ؟ بعد زيارته لباريس صيف سنة ١٩٤٦ ، بقي يحدثنا عن مغامراته الغرامية عدة اشهر . اسمع الآن تردادا لبعض التفاصيل الجنسية انما على خلفية اميركية .. أود لو يبقى عبد اللطيف في شيكاغو .. ألح عليه ، لكنه يصر على السفر في اليوم التالي حسب برنامجه .

في اليوم التالي ذهبت معه الى محطة القطار . كنت منقبضا لفراقه ، وكان هو يتحدث بمرح كعادته . قال وهو يصعد الى عربة القطار :

ـ سأراك في بيروت بعد ثلاثة اشهر .

والتقينا بعد ثلاثة اشهر في نيويورك لا في بيروت . كان يقيم في جريت نك في جزيرة لونج ايلند خارج نيويورك عندما توقفت لزيارته في مطلع كانون الثاني سنة ١٩٤٩ في طريق عودتي الى بيروت . قال انه عزف عن فكرة التجارة وقرر العمل في الحقل الديبلوماسي . اصبح موظفا الآن في سكرتيرية الامم المتحدة ، في منصب حصل عليه بواسطة فارس الخوري .

وما يزال عبد اللطيف يعمل موظفا في الامم المتحدة حتى كتابة هذه السطور . اجتمعت به آخر مرة في صيف ١٩٧٣ في بيروت ، وكان قد انتقل الى السعودية ليرئس احد مكاتب الامم المتحدة هناك . أخبرني انه تزوج وطلق مرتين وانه تزوج مرة ثالثة ولديه ابنتان من زوجته الثالثة . قال انه ينوي ان يتقاعد قريبا ، وانه بنى بيتا في برمانا ليقيم فيه عند تقاعده . وقادني في سيارته الفخمة الى رأس بيروت . تواعدنا ان نلتقي قبل عودته الى السعودية وقبل عودتي الى واشنطن . الا اننا لسبب ما لم نلتق ، ولم أره منذ ذلك الحين .

بعد مغادرة عبد اللطيف شيكاغو وصلت أم كارول من كاليفورنيا . كانت تريد ان تسكن بالقرب من ابنتها . كانت امرأة في منتصف العمر ، عليها مسحة من الجمال . شعرت بانقباض عند رؤيتها . لم يكن لدي قدرة على المجاملة . حملت حقائبها بصمت الى الشقة التي استأجرتها في الميدواي مقابل الانترناشنال هاوس ، ثم ذهبنا الى دراج ستور قريب لتناول شيء من الطعام . لا قابلية لدي لتناول الطعام . كآبة عميقة تغمرني وأنا أحتسي القهوة . أصغي الى حديث الأم وابنتها

وعقلي شارد في عالم آخر .

وبعد بضعة ايام وصل محسن مهدي ، فارتفعت معنوياتي . حال وصوله استأجر غرفة في بيت قريب من الجامعة . وأخذته في اليوم التالي الى الجامعة وعرّفته على برجستراسر وعلى اساتذتي الآخرين . وسرعان ما استقر ونظّم أموره . وكان في ذلك استقرار لي فقد اصبح الآن احد اصدقائي المقربين يشاركني منفاي ..

- ٢٨ -

برغم محسن وكارول بقيت وحيدا فيما يتعلق بأحداث بلادي . كارول تجلس بجانبي صامتة وأنا اقرأ النيويورك تايمس وزملائي العرب ، ومن بينهم محسن ، يتحدثون عما يجري كأن لا علاقة مباشرة لهم بالموضوع .

في حزيران عقدت الهدنة الاولى . اليهود يبنون جسرا جويا الى تشيكوسلوفاكيا فتتدفق اليهم الاسلحة والمعدات . وتنتهي الهدنة ، ويشن اليهود الهجوم على جميع الجبهات . العرب يتراجعون على جميع الجبهات . ثم تعلن الهدنة الثانية في تموز . اليهود يحتلون ٧٠ بالمئة من ارض فلسطين .

اقرأ في النيويورك تايمس ان جثث الجنود العراقيين وجدت في خندق بالقرب من طولكرم . كانوا مقيدي الايدي والارجل ولم يستطيعوا الهرب . لا أدري مدى صحة الخبر . أتذوق طعم الانكسار .. بداية الذل . ما الذي سينتج عن انتصار اليهود ؟

اعود الى الانترناشونال هاوس فأجد بعض زملائي العرب يتناقشون في قاعة الجلوس وأصواتهم تعلو فوق جميع

الاصوات . هناك خلاف حاد بين الطلبة المصريين من ناحيـــة والطلبة العراقيين من ناحية اخرى . يتحول النقاش الى شتائم . اخيرا يكل المناقشون والمستمعون ، وينصرف الجميع الـــى غرفهم .

أصعد الى غرفتي وأحاول القراءة فلا استطيع .. الكلمات تمر امام عينيّ ولا افهم منها شيئا . اضـــع الكتاب جانبا ، وأبحث عن دفتر مذكراتي . أدون بعض الافكار ثم اضعه جانبا . أخرج من الغرفة وأسير باتجاه البحيرة . في مقاعد الحديقـــة العامة يجلس العشاق يتهامسون ويتعانقون .. نسمة بـــاردة تهب من البحيرة .. أرجع الى غرفتي وأخلع ثيابي وأستلقي في فراشي الى ان يغلبني النوم .

- ٢٩ -

جاء الخريف بسرعة .. تبدل الجو بشكل مفاجيء .. صفت السماء وأصبحت زرقاء شديدة الزرقة ، وامتلأت بالغيـــوم الكبيرة البيضاء وعلت أمواج البحيرة وصار رذاذها يصل الـــى شارع الاوتر درايف ويجعله زلقا للسيارات . وتغير لون اوراق الشجر وصارت ذهبية صفراء . ذكرّني خريف شيكاغو بشتاء بيروت . أتمشى كل يوم على شاطيء البحيرة ، وقد خلا مـــن الناس . أجلس على مقعد قريب وأدع رذاذ الماء يبلل وجهي . اتخيل نفسي على الكورنيش في بيروت في يوم عاصف كهذا ..

كل يوم يقرب موعد عودتي .. بقي أقل من ثلاثة اشهر . صور الاشخاص والاماكن التي كبتها في أعماقي تعود الى سطح الوعي . وجوه اصدقائي ورفاقي .. وجه سعاده .. شوارع رأس بيروت .. مقاهي الروشة .. مطعم فيصل .

أطلق لاحلامي العنان لاول مرة منذ وصولي الى شيكاغو ..
احن لسماع لغتي ، يتكلمها اهلي واحبائي وابناء أمتي . فجأة تغير كل ما يحيط بي في شيكاغو . صرت انظر الى الاشخاص والاشياء حولي نظرة المسافر على اهبة السفر .

تسلمت علاماتي لفصل الصيف واذ بها ممتازة . ويطلب مني الاستاذ المشرف تعيين موضوع أطروحتي . أفكر اياما واخيرا اتقدم بموضوع يقبله مباشرة : «مشكلة القيم في فلسفة نيقولاي هارتمن وسي. آي. لويس» .

كان هارتمن مثاليا في اسلوبه ، بالرغم من كونه من أتباع هوسرل ، الذي كان له تأثير كبير في الفلسفة الوجودية المعاصرة (هايديجر ، سارتر ، ميرلو - بونتي) . واعتبر هارتمن القيم الاخلاقية - كالعدالة ، والشجاعة ، والمحبة ، والصداقة الخ - مثلا موضوعية لا تتغير بتغير المكان والزمان ، وتتمتع بوجود أبدي دائم ، كالمثل الافلاطونية . اما أسلوبه ، فكان في غاية الدقة والاناقة والجمال . ولعل هذا ما جذبني اليه بالاكثر ، بالاضافة الى انه ألّف كتابه اثناء الحرب العالمية الاولى ، وهو جندي يحارب في الخنادق .

وفي حين مثّل هارتمن التراث الفلسفي الاوروبي بأعمق معانية ، كان سي. اي. لويس يعبّر عن روح الفلسفة الذرائعية الانكلو - اميركية بأقوى اشكالها . وكانت نقطة الاختلاف بينهما تبدو اكثر وضوحا في مشكلة القيم ، حيث كانت في نظرة لويس نسبية ، تقررها تجربة الفرد ، فالجيد او الحسن (او المرغوب به) لا معنى له خارج التجربة المباشرة . ومع ان لويس حاول الحفاظ على صفة الموضوعية للقيم ، مصرا بأنها ليست مجرد أحكام ذاتية ، فانه انتزعها من الارضية الفلسفية التي ارتكزت عليها في نظرة هارتمن وأخضعها لمنطق تجريبي لا يقبل الموضوعات او المثل خارج التجربة الحسية المباشرة .

أتساءل ، لماذا اخترت هذا الموضوع بالذات .

لست أدري تماما . ربما لاني اردت ان أبرهن ان هارتمن كان على صواب وان القيم مطلقة وليست نسبية . كنت ، برغم تأثير سعادة وفلسفته المشبعة بالنظرية التاريخية الالمانية ، ما زلت متأثرا بالفلسفات المثالية التي طبعت عليها منذ ثقافتي الاولى والتي عززتها دراستي في الجامعة الاميركية . كان موقفي تجاه فلسفة لويس موقف الرفض المسبق ، وتجاه فلسفة هارتمن القبول المسبق ، وأردت ان أستعمل الواحد لدحض الآخر . ما الذي توقعته من فعل ذلك ؟ لست ادري ..

كان عليّ ان أنهي الاطروحة قبل اول تشرين الثاني ، لأتمكن من التخرج في نهاية ١٩٤٨ . حبست نفسي في غرفتي طيلة اربعة اسابيع ، من منتصف ايلول حتى منتصف تشرين الاول، بعد ان اخذت من المكتبة كافة الكتب والمصادر التي كنت بحاجة اليها ، بالاضافة الى مجموعة كاملة من مجلة « الاخلاق » (Ethics) التي كانت وما تزال تصدر عن دائرة الفلسفة في جامعة شيكاغو . وكان يومي يبدأ في الساعة السابعة والنصف صباحا ، فأعيد مراجعة الملاحظات التي وضعتها في الليلة السابقة (المستمدة من قراءاتي لمجلة «الاخلاق» والمصادر الاخرى) ثم آخذ في الكتابة من الساعة التاسعة حتى الواحدة عندما يضطرني الجوع الى التوقف ، فأنزل الى الكافيتريا وأتناول طعام الغداء وحيدا ، اذ يكون معظم الطلبة قد تناولوا طعامهم . بعد الغداء اعود الى غرفتي ، وآخذ في المطالعة وتدوين الملاحظات مدة ساعتين ، ثم اعود الى الكتابة حتى الساعة الخامسة . وفي الخامسة اخرج الى الميدواي وأتمشى حتى موعد العشاء في السادسة . اتناول عشاء خفيفا ، ثم أصعد الى غرفتي وأعاود المطالعة وتدوين الملاحظات حتى منتصف الليل .

احاول الآن ، اثناء كتابة هذه السطور ، استعادة التجربة

التي مررت بها خلال كتابة أطروحتي . امامي نسخة من الاطروحة احتفظت بها طيلة هذه السنين . اقرأ فيها الان بضع صفحات وأتعجب لمتانة لغتها وقوة تركيبها . هل هذه الافكار والتحليلات بالفعل من صنعي ، ام انني استقيتها من الكتب والمقالات التي قرأتها ودونت منها ملاحظاتي ؟ ما الحد الفاصل بين السرقة «الادبية» والسرقة المجردة ؟

وقبلت الاطروحة دون اعتراض ، وحدد موعد الدفاع الشفهي بعد ظهر يوم في كانون الاول في مكتب رئيس دائرة الفلسفة . وكان هناك ثلاثة من زملائي قدموا أطروحاتهم وحدد موعد امتحانهم في الوقت نفسه . جلسنا ننتظر في القاعة الخارجية . كنا نرتدي افضل ما لدينا من ثياب . كان رباط العنق يشد على رقبتي ، والعرق يتصبب من جبيني . التدفئة اللعينة مرتفعة كالعادة . وينادي رئيس الدائرة احد زملائي ، فيدخل الغرفة ويغلق الباب خلفه . وننتظر بصمت . وبعد نصف ساعة يخرج وعلى وجهه ابتسامة شاحبة . نسأله عن الوضع :

ــ هناك اربعة اساتذة ، وأحدهم رودلف كارناب ، احد اعضاء دائرة الفلسفة وأشهر اساتذة الفلسفة في الولايات المتحدة . كان كارناب نمساوي الاصل وزميل فيتزنستاين وأحد أقطاب فلسفة المنطق الايجابي (Logical Positivism) والتجأ الى الولايات المتحدة بعد دخول النازيين النمسا ودرّس في جامعات اميركية مختلفة الى ان استقر في جامعة شيكاغو.

واشتد قلقنا لهذا الخبر . كان دوري الثالث . ومضت الدقائق ثقيلة منهكة الى ان انتهى امتحان الطالب الثاني وخرج يمسح العرق عن جبينه . وناداني رئيس اللجنة . دخلت الغرفة وقلبي يدق بشدة . جلست على الكرسي امام الاساتذة الاربعة، وأول من وقع نظري عليه هو كارنب . كنت اراه في بهو سويفت هول ، ولم أحضر ايا من دروسه . كان في الخمسينات من

عمره يضع نظارات . ابتسم عندما نظرت اليه . لكن ذلك لم يزل خوفي . وفتح رئيس اللجنة باب الاسئلة . لا اذكر الآن من الاسئلة الا انها تناولت أسلوب البحث وبعض القضايا المتعلقة بمقولات التحليل التي اعتمدت عليها في بحثي . ولما جاء دور كارناب ، كلمني بلهجة هادئة وبلطف بالغ . كنت ادرك ان موقفه الفلسفي يتعارض كليا مع الموقف الذي تبنيته ، وهو موقف هارتمن . لكنه لم يثر هذه الناحية اطلاقا ، وحصر اسئلته في النواحي التفصيلية وفي التحديدات النظرية وكان يهز رأسه بالايجاب على اجوبتي ، مما جعلني أسترجع شيئا من شجاعتي وأتكلم بشيء من الاسهاب . وانتهى الامتحان بسرعة مدهشة . وخرجت والافكار تدور في رأسي بسرعة ، معيدا الاجوبة التي كان بامكاني اعطاؤها ولم أعطها متمنيا لو تتاح لي الفرصة مرة اخرى لكي اجيب عن الاسئلة التي طرحت عليّ .

أقيمت حفلة التخرج في ١٩ كانون الاول في كنيسة روكفلر ، وتسلمت شهادة الماجستير من يد روبرت هاتشنز رئيس الجامعة . كانت تلك آخر حفلة تخرّج يترأسها هاتشنز . فقد قدم استقالته في نهاية الفصل بعد ان مضى ما يقارب عشرين سنة في رئاسة الجامعة . كان في الثلاثين من عمره عندما عين رئيسا . بدا هاتشنز شابا وهو يصعد المنصة بقامته العريضة . وألقى خطابا قصيرا وانتهت الحفلة في خلال نصف ساعة .

بعد الحفلة ازدحمت باحة الكنيسة بالطلبة وذويهم ، يتبادلون التهاني ويتحادثون ويضحكون . ووقفت انا جانبا مع كارول ، وكانت تنتظرني عند المدخل . كان في يدها غلاف كبير حوله رباط ملون . وقبلتني على وجنتي قائلة :

ـ بمناسبة تخرجك .

كانت هديتها كتاب بولفنش في الاساطير الاغريقية ، طبعة

خاصة انيقة ، سررت بها سرورا عظيما . لقد فقدت هذا الكتاب بين الكتب التي تركتها للحفظ في الانترناشنال هاوس لدى مغادرتي شيكاغو . وقد تقاسم هذه الكتب فيما بعد اصدقائي في شيكاغو ، ولا اعرف من حظي بالكتاب الذي قدمته الي كارول عند تخرجي سنة ١٩٤٨ ...

- ٣٠ -

انتهى عيد الميلاد وسأسافر بعد بضعة ايام . عليّ ان انهي امورا عديدة قبل مغادرة شيكاغو ..

كم هو غريب الشعور الذي غمرني في الايام الاخيرة . مع اقتراب موعد سفري بدأت أشعر بغصة الفراق . اخذت انا وكارول نودع الاماكن التي امضينا فيها ساعات الصيف الطويلة والتي بدت الآن سعيدة .. ذهبنا الى حديقة ستوني ايلاند وكانت خالية من الناس .. اشجارها الباسقة عارية والاوراق تكسو ارضها التي كانت ملأى بالزهور والحشائش الخضراء . وكانت البحيرة قد اصبحت جليدا ، والريح الباردة تصفر فوقها . وهطل علينا المطر فجأة ونحن نسير على الشاطىء المهجور ، فعدنا راكضين الى الانترناشنال هاوس .

استدنت من محسن اربعمائة دولار ، دفعت منها ثلاثمائة دولار ثمن تذكرة درجة ثالثة في باخرة ايطالية من نيويورك الى جنوا ، وعشرين دولارا ثمن تذكرة القطار من شيكاغو الى نيويورك وتبقى معي ثمانون دولارا . كانت خطتي التوقف في سويسرا لمدة اسبوع لزيارة اسامة (وكان قد انتقل الى القنصلية العراقية هناك في العام السابق) وأتدبر امري من جنوا الى بيروت .

يوم السفر استيقظت باكرا . نظرت حولي في الغرفة

وتذكرت يوم وصولي الى شيكاغو والوعد الذي قطعته على نفسي بأن اعود بظرف سنة . لقد بررت بوعدي لكنني لا أشعر بالانتصار . الالم ، كالشهوة يتغير بمرور الزمن ويحد من شدته . حملت حقائبي ونزلت الى قاعة الجلوس . كانت خالية الا من كارول . كانت تجلس في مقعد ضخم في زاوية بعيدة من القاعة . لم ترني . كانت ترتدي معطف الفرو والقبعة اللتين ارتدتهما عندما امضينا السهرة سويا لاول مرة في الهاي هات.. بدت ضائعة صغيرة الحجم في المقعد الكبير اصبحت وحيدة قبل ان اتركها .. شعرت بي فالتفتت نحوي وابتسمت عندما رأتني. حملت حقائبي الى التاكسي الذي كان ينتظرنا امام الباب . كانت مصرّة ان تذهب معي الى المحطة . بعد ان ركبنا التاكسي قالت وهي تضع يدها بيدي :

ـ لا تنس ان تبعث برسالة حال وصولك الى برن .

ـ سأكتب لك من الباخرة رسالة كل يوم . وسأبعث بها دفعة واحدة عند وصولي الى جنوا .

ولم نتكلم كثيرا في التاكسي .

كانت المحطة تعج بالناس . اخذ الحمال حقائبي وسرنا انا وكارول وراءه . وصلنا الى العربة ووضع الحمال حقائبي في مكاني المحجوز مسبقا . ثم تعانقنا بصمت ، وصعدت الى القطار ووقفت في النافذة انظر اليها . وعندما بدأ القطار يتحرك قالت شيئا لم اسمعه من خلف زجاج النافذة .

لوحت لها بيدي . رأيتها تأخذ منديلا من حقيبة يدها وتمسح عينيها . الدموع التي حبستها ساعة الفراق تسيل الآن . ظلت تلوح بالمنديل حتى اختفت عن ناظري الى الابد ...

في نيويورك كان عبد اللطيف ينتظرني في محطة جراند سنترال عند وصولي في صباح اليوم التالي . نقلنا حقائبي الى شركة البواخر. ثم ذهبنا الى الامم المتحدة حيث عرّفني على

زملائه وأراني مكتبه المطل على النهر . كان فخورا بمنصبه ويريد ان يبرهن لي على مدى نجاحه. دخلت احدى السكرتيرات فأخذ يكالمها بأسلوبه الخاص ، ليعطي الانطباع بأن له علاقة خاصة بها .

بعد الظهر قادني بسيارته الجديدة الى بلدة جريت نك في لونج ايلند التي تبعد حوالي ثلاثة ارباع الساعة عن نيويورك حيث كان يقيم في شقة واسعة . وجلسنا نتحدث حتى حان موعد العشاء ، ثم ذهبنا الى مطعم قريب من بيته وتناولنا العشاء . بعد ذلك ذهبنا الى السينما المجاورة حيث شاهدنا فيلما اميركيا مملاً . وعندما آوينا الى فراشنا كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل .

استيقظنا في اليوم التالي باكرا . كان عليّ ركوب الباخرة قبل التاسعة صباحا ، فتناولنا فطورنا بسرعة وهرعنا الى السيارة وعبد اللطيف يشرب قهوته من فنجان اخذه معه الى السيارة . كان الجو غائما ينبيء بالمطر . عندما دخلنا المرفأ في مرسى رقم ٤٢ كان الركاب قد بدأوا يصعدون الى الباخرة الايطالية التي بدت كبيرة وفخمة . كان اسمها مكتوب بأحرف ضخمة في مقدمتها : Vulcania توقف عبد اللطيف امام مدخل السلم ، وودعني بحرارة . وصعدت السلم ووقفت على حاجز الباخرة ألوّح له بيدي . ثم ركب سيارته وانصرف . ورحت أبحث عن المكان المحجوز باسمي ، فالتقيت بأحد ضباط الباخرة وأظهرت له تذكرتي فقال :

ـ هذه تذكرة الدرجة الثالثة . انت الآن في الدرجة الاولى . عليك بالنزول الى آخر السلم ثم التوجه يسارا الى مؤخرة الباخرة .

نزلت السلم وسرت في ما يشبه السرداب الى ان وصلت الى باب مغلق ، ففتحته ووجدت نفسي في قاعة واسعة وضعت فيها أسرّة مزدوجة ، السرير فوق السرير ، تتسع لاكثر من

مئة شخص. وكانت القاعة تعج بالناس ، اكثرهم من الايطاليين. فوقفت برهة لا ادري ما أفعل . كيف سأقيم في هذه القاعة أحد عشر يوما .. وكانت معظم الاسرّة قد احتجزت ، وبعد عناء وجدت سريرا علويا فارغا فوضعت حقيبتي عليه ووقفت انظر حولي ، وقد غمرني انقباض عميق . وفجأة تبادر اليّ انه لا بد ان يكون هناك مكان يشرف على البحر استطيع الجلوس فيه اثناء النهار على الاقل . فخرجت من الباب الذي دخلته ، فبادرني ضابط بقوله :

ــ الى اين ؟

ــ أريد ان أتنشق الهواء الطلق ، اكاد أختنق .

ــ ممنوع على ركاب الدرجة الثالثة مغادرة هذا المكان . اذا اردت استنشاق الهواء فعليك الذهاب الى مؤخرة الباخرة . الطريق من هنا .

ودلني الى المكان ، وكان فسحة في ذيل الباخرة لا تعلو كثيرا عن سطح البحر . وكانت الارض مملوءة بالحبال . ورأيت في احدى الزوايا كرسيا من النوع الذي يستعمل على البلاج ، فأخذته الى الجرسون الايطالي الذي كان يشرف على قاعة الطعام وقلت له اريد ان أحتجزه لنفسي طيلة الرحلة ، وأعطيته بضعة دولارات . امضيت معظم الرحلة في هذا الكرسي ولم اغادره الا لتناول الطعام وعند غياب الشمس ، اقرأ وأفكر وأراقب البحر يعلو ويهبط حولي . وكان معي كتابان ، احدهما «أوليفر تويست» لتشارلز ديكنز والآخر «الجبل السحري» . وضعت كتاب ديكنز جانبا وأخذت اقرأ «الجبل السحري» ، وكان يتألف من عدة مئات من الصفحات بالحرف الصغير . بطل الرواية هانز كاستروب شاب من الطبقة المتوسطة يصاب بالسل وينصحه الطبيب بالذهاب الى مصح يقوم في قمة جبل من جبال الالب في سويسرا . وهناك ، في العالم السحري الذي يحيط بالمصح ، يتعرف هانز على عدد من نزلاء المصح ، يمثلون

بأفكارهم وأذواقهم وأنماط حياتهم المجتمع البورجوازي الاوروبي كما كان قبل الحرب العالمية الاولى . ويدخل معهم في احاديث ومباحثات طويلة تشكل صلب الكتاب ، وتتناول ماهيــة الحضارة الاوروبية والنظريات السياسية والدينية المسيطــرة آنذاك . وتنتهي الرواية باندلاع الحرب العالمية الاولى ، وانخراط هانز في الجيش الالماني ومصرعه في مطلع الحرب .

كنت عندما يصيبني الكلل من القراءة ألتف" بالبطانيــة الصوف التي دبرها لي الجرسون وأغمض عيني وأحاول استراق بضع دقائق من النوم . وبقي معظم المسافرين في عنبر البــاخرة لتزايد البرد وهطول المطر . وقبل ان نصل الى مضيق جبــل طارق هبت عاصفة هوجاء فالتجأ معظم المسافرين الى أسر"تهم مصابون بالدوار والتقيء . وأصبح المطعم خاليا من المسافرين ما عدا اثنين او ثلاثة كانوا يجلسون الى المائدة التي أجلس اليها ، ونأكل ونحن نمسك بصحوننا كيلا تنزلق الى الارض . وبالرغم من العاصفة فقد ثابرت على الجلوس في الخارج ووجدت لنفسي ملجأ بالقرب من باب العنبر أتقي به المطر . في تلك الجلسات لم أقدر على القراءة ، كان الرذاذ يبلل صفحات الكتاب اذا فتحته فأضطر الى وضعه جانبا . وكانت الريح تشتد احيانا الى درجة لا أتمكن فيها من امسـاك صفحات الكتاب دون اهتزاز . فكنت اجلس هكذا والريح تصفر حولي دون حــراك ساعــات طــوال . وكلما تعود بي الذاكرة الى تلك الساعات ، أشعر بشيء مــن الخجل . اظن انني مررت بأشبه ما يكون بالتجربة الدينية ... عدت القهقرى ، الى سن المراهقة التي يمر فيها الفرد بأصعب حياته العاطفية والفكرية . كنت في تلك السن ، لا اقوم بعمل ما الا بعد قراءة الفاتحــة ثلاث مرات و « قل هو الله احد » مــرة واحــدة على الاقــل وذلــك بشــكل جبــري **Compulsive** لا استطيع مقاومته . كنت أفعل ذلك قبل كل درس ، وقبــل النوم ، وقبل ركوب الترامواي ، وقبل التسبح . وعدت ايضا

الى سن ما قبل المراهقة ، الى سن الطفولة ، والى صور وتخيلات الطفولة التي كانت تحميني وتعيد الى نفسي الثقة والاطمئنان . واتجهت افكاري الى موضوعات دينية ، وتركزت حول النبي محمد ، فبرز في ذهني بطلا هاديا مخلّصا ، وتركت نفسي ترسو رويدا في عالم بعيد معهود حبيب ...

كانت تلك التجربة مجرد حالة نفسية عارضة ما لبثت ان تبددت لدى وصولنا الى جبل طارق . لكنها كشفت عن زاوية في نفسي لم اكن أعلم بوجودها ، وأدركت ان نزعة العودة الى الماضي (عند الفرد والجماعة) هي نزعة عميقة متأصلة في النفس ، تبرز في حالات الخطر وفي حالات الوحدة والقلق ويجب اتقائها ..

في حياتنا اليومية الرتيبة قلما ندرك مواطن الضعف والخوف المعشعشة في أعماق انفسنا . في اللحظة التي تخرج فيها حياتنا عن النمط اليومي المعهود ـ في مثل حالات السفر البعيد ، او المرض ، او الاعتقال ـ تنهار استحكاماتنا الداخلية، ونصبح عرضة للخوف والقلق . عند ذاك نعود الى طفولتنا والى الاعتقادات والتعاويذ الدينية التي تعلمناها في الصغر ونصبو الى أحضان الأم وحماية الاب ومن يمثلها في حياتنا . وبمقدار ما يكون الخوف والقلق هما الدافع الاساسي في العودة الى الماضي تكون العودة عصابية neurotic وفي طبيعتها ، تجعلها اقرب من حالة المرض منها الى الصحة . فهي تمثل هروبا من حاضر او وضع معين ورفض مجابهة الواقع . لقد مر زمن طويل قبل ان أتفهم معنى هذه التجربة الغريبة واستوعب حقيقتها . ولست ادري حتى اليوم ما مكنني من مقاومة هذا الجذب السلفي ورفض اوهام الطفولة والسير في طريق العقل الموضوعي ..

الفصل الرابع

- ١ -

كانت الساعة الخامسة والنصف صباحا عندما رست الباخرة الايطالية في مرفأ بيروت . كانت الشمس لم تطلع بعد من وراء صنين ، لكن ضوء الفجر الرمادي بدأ يتحول الى نور وردي يقشع الضباب الذي امتد على طول الشاطىء من خليج جونيه حتى نهر بيروت ويملأ السماء بألوان الفضة والذهب .

اتفحص الواقفين على رصيف المرفأ بجانب الدرج الذي أنزل من الباخرة ، فلا ارى احدا من اصدقائي . توقعت ان يكون جوزيف او رجا او فؤاد ، او جميعهم ، بانتظاري . شعرت بخيبة امل . فجأة سمعت صوتا يناديني ، فرايت رجلا لا اعرفه يتقدم نحوي . قال ان رجا ارسله ، وكان يشتغل في مكتب رجا مخلّص بضاعة . سألني عن حقائبي ، فأشرت الى حقيبتي

الوحيدة التي كانت بجانبي ، وخرجنا من الجمارك خلال دقائق، وركبنا سيارة تاكسي الى رأس بيروت .

كانت شوارع بيروت خالية في تلك الساعة . في شـــارع ويغان كان رجل يفتح محله ، وفي باب ادريس المحل الوحيـــد الفاتح كان محل حلوى ... مدرسة الفرير بعد حاووز الساعاتية مغلقة .. محطة جراهام .. المستشفى ... شارع بلس .. فيصل .

قلت لسائق التاكسي ان يسير في شارع جان دارك . كان جوزيف يقيم في بيت أم فخري الواقع في ذلك الشارع . قرعت الباب بشدة ، وعندما دخلت دبَّت الحياة في البيت ، وعــــلا الضحك وانساب الكلام اسئلة واحاديث ونكات . قال جوزيف ان احدا لم يستقبلني لان وصولي كان متوقعا بالامس . وبالفعل نزل الجميع لاستقبالي في السادسة صباحا ، ولكن الباخرة لم تصل . وعندما اعلن ممثل الشركة انه لا يعرف موعد وصولها عهد رجا الى موظفه متابعة مواعيد وصول البواخر القادمة من ايطاليا ثاني يوم ، واستقبلني . تناولت فطوري الاول في بيروت مع جوزيف وأخيه جورج ، وفوزي معلوف . زيت وزعتر وجبنة بيضاء وزيتون ودبس خرنوب مع طحينة . بعد الترويقة قادني جوزيف بسيارته الفورد القديمة الى حيث كانت والدتي تقيم مع عائلة جدي .

استقبلتني والدموع تسيل من عينيها . كان اخي خالد توفي قبل يومين . تعذب عذابا شديدا . كان عمره ١٨ سنة . فـــي جيبي هدية له : ساعة جيب مستديرة . كان يحب الساعـــات على انواعها ، ويقتنيها . ربما لو أتيحت له الحياة لكان اصبـــح ساعاتيا . لم أعرف احدا اراد هذه المهنة عملا له في الحياة .

قبَّلت يد جدتي كما كنت أفعل منذ الصغر ، وعانقت عمتي وخالتي . سألت عن جدي ، فقالت جدتي ان صحته ليست على

ما يرام . رأيته جالسا في زاوية مظلمة من الغرفة يراقب ما يجري كأنه لا يدري ما يحصل . لست متأكدا انه عرفني . تغيَّر كثيرا خلال عام واحد . شعره الابيض لم يقربه مقص الشعر منذ زمن طويل . روبه اصبح قديما ممزق الاطراف ، وهو الذي كان دائما يرتدي افخم الملابس ويعتني بمظهره احسن اعتناء. سلّمت على خيرية خانم ، وقبلتني وهي تبكي . بيتها المؤلف من غرفتين ومطبخ وحمام ، كان كما اذكره تماما ، عندما كنت ازورها وأنا تلميذ في الاستعدادية ، كانت في الاعياد تعطيني ليرتين، فأشعر بالغنى الفاحش لعدة اسابيع .

بعد الظهر ذهبت الى بيت الزعيم (وكان لا يبعد كثيرا عن بيت خيرية خانم) . كان الزعيم يتوقعني عندما دخلت . رفعت يدي بالتحية الحزبية . كم حلمت بهذه اللحظة في شيكاغو . عانقني وسألني عن احوالي وعن موعد وصولي وعن رحلتي . ثم دخلنا الى مكتبه وجلسنا ما يقارب الساعتين ، عرض عليّ خلالهما حالة الحزب والوضع السياسي في البلاد ، وموضوع فلسطين، الذي كان يستحوذ على كل اهتمامه . وقال :

ـ ان القيادات الحاضرة كلها افلست . هي التي اوصلتنا الى هذه الكارثة ، كيف يكون الانقاذ على ايديها .

كان الامل الوحيد بنظره هو الحزب . يجب تغيير الاوضاع ليستلم الحزب زمام السلطة .

ـ الصراع المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين .

وبقي على هذا الايمان حتى النهاية .

وقال وهو يودعني :

ـ اريدك هنا غدا صباحا . هناك اعمال كثيرة تنتظرك .

- ٢ -

استيقظت باكرا في صباح اليوم التالي في الغرفة التي

استأجرتها لي والدتي في بيت سيدة سورية يقع في منتصف نزلة المسبح العسكري قريبا من المكان الذي تقوم فيه اليوم صيدلية المنارة . استحممت وارتديت ثيابي وسرت في شارع بلس ، ولما وصلت امام مخفر حبيش رأيت الترامواي يتوقف في المحطة المحاذية للمخفر . فركضت نحوه ، وقد عاود سيره ، وتعلقت بالمدخل الخلفي ، وبقيت واقفا على الدرج الى ان وصلنا محل جبران فقفزت من الترامواي قبل توقفه بالطريقة الحذقة التي اتقنّاها ايام الجامعة . وكان جبران كعادته الى اليوم ، يفتح محل الحلاقة الذي يمتلكه عند الفجر . فسلمت عليه وتحدثنا قليلا ثم تابعت طريقي الى بيت ام فخري حيث تناولت الافطار مع جوزيف وجورج وفوزي .

وعندما قاربت الساعة الثامنة كانت الحياة قد دبت في شوارع رأس بيروت . فأوصلني جوزيف بسيارته الى بيت الزعيم ، وافترقنا على ان نلتقي ظهرا عند فيصل .

كان بيت الزعيم يعج بالناس . فقد وصل صباح ذلك اليوم وفد حزبي من دمشق . فجلست في غرفة الجلوس انتظر الزعيم . رأيت عن بعد جورج عبد المسيح . كان قصير القامة ، قصير الشعر ، يتحدث الى من حوله بصوته الخافت الخشن . سرت نحوه ، وعندما رآني اضاءت وجهه ابتسامة واسعة وعانقني بحرارة . تبادلنا كلمات قليلة (طيلة الفترة التي عرفته فيها كان الكلام بيننا دائما قصيرا ، بضع كلمات كانت كافية ليفهم احدنا الآخر) . ثم خرج ليتأكد ان سيارة الزعيم جاهزة .

وبعد حوالي نصف ساعة انتهى الزعيم من اجتماعه مع الوفد السوري («الشامي») وخرج من مكتبه وأشار اليّ أن أتبعه . وركبنا السيارة التي كانت بانتظارنا الى مكتب «الجيل الجديد» في خان انطون بك . جلس جورج عبد المسيح بجانب السائق وجلست انا في المقعد الخلفي الى يسار الزعيم . كان

الزعيم دائما يحب الجلوس في المقعد الخلفي الى ناحية اليمين.

خان انطون بك بناية عثمانية قديمة هي من اجمل البنايات الاثرية في بيروت يقع في آخر نزلة شارع باب ادريس ويشرف على البحر شمالا وغربا . وقد بني الخان في منتصف القرن التاسع عشر على الطراز العثماني القديم ، تقوم في وسطه باحة كبيرة تحيط بها الدكاكين والمحلات التجارية والمقاهي والمطاعم في الطابق الارضي ، والشقق المستخدمة لاغراض مختلفة في الطوابق العليا . وكان مكتب «الجيل الجديد» ومطبعتها (مطبعة جريدة «الشمس») يقومان في احدى الشقق في الطابق الثالث. كانت المطبعة القديمة تقع في وسط القاعة، وكانت الغرف حولها تستعمل مكاتب تحرير ، واحداها في اقصى اليمين مكتبا لرئيس التحرير يستعمله الزعيم عند حضوره الى الجريدة . وكانت الآلات عندما تبدأ طباعة الجريدة عند الظهر تصمّ الآذان بدويها وتهز الارض بوقعها المنتظم. وكنت اخاف احيانا ان تنهار بنا الارض ونسقط جميعا مع المطبعة والمكاتب فوق الذين يقيمون في الطابق الثاني والارضي . وكنت الح على الزعيم ان ننتقل الى مطبعة اخرى ، الى ان رضي بذلك . وكان ذلك بداية سلسلة الاحداث التي أدت بنا الى الكارثة .

- ٣ -

لم يكن للحزب في ذلك الوقت دخل مالي غير الاشتراكات والهبات التي كانت تصله من الرفقاء في المهجر . واقتصر دخل بيت الزعيم على ما كان تستلمه زوجته من اهلها في الارجنتين، ولم يكن ذلك كافيا لسد حاجات العائلة والضيافة . وعجزت عمدة المالية عن حل هذا المشكل الذي اخذ يتفاقم يوما بعد يوم. وجاء الحل على نحو غير متوقع ، بفضل ذكاء فايزة انتيبا، احدى

الرفيقات الاوائل في الحزب وشقيقة فخري معلوف ، التي اخذت على عاتقها تنظيم سلسلة من حفلات الشاي تقام كل يوم احد في بيت احد القوميين في منطقة بيروت يحضرها الزعيم ويدعى اليها القوميين وأصدقائهم ويتبرع كل منهم بليرة واحدة. وتحولت هذه الحفلات في شتاء وربيع ١٩٤٩ الى اجتماعات حزبية كبيرة اشترك فيها ألوف من القوميين ومناصري الحزب، وألقى بها الزعيم خطبا وأحاديث تكوّن في مجموعها جزءا اساسيا من كتاباته في هذه الفترة الاخيرة من حياته .

داومت على حضور هذه الحفلات مع الزعيم منذ الحفلة الاولى ولم أتغيب عن واحدة منها . واذكر احدى هذه الحفلات بشكل خاص ، ربما لانها كانت في مطلع الربيع او لانها اقيمت قبل وقوع الكارثة بمدة قصيرة . كان مكان الحفلة في بيت احد الرفقاء في الشويفات ، فركبنا السيارة حوالي الساعة الرابعة وسرنا عن طريق الروشة باتجاه الرملة البيضاء . وكان الزعيم يجلس صامتا ينظر الى البحر الى يمينه ، وكان هادئا بعد عواصف الشتاء ، لونه بلون حشائش الربيع الخضراء . وفجأة انفجر الزعيم بالغناء بالايطالية .. كان يغني مقطعا من مقاطع اوبرا لفردي .. نظرت اليه بعجب ، فالتفت نحوي مبتسما واستمر بالغناء بأعلى صوته .. من يسمعه يظن ان لا هم له في الدنيا .. في الواقع ، اني لم اره مرة واحدة يستسلم للهم او القلق . كانت شؤون الساعة تستحوذ على كل اهتماماته ويضع ما مضى وما سيأتي جانبا . اني لا اعرف انسانا عاش حاضره ــ لحظة لحظة وساعة ساعة ــ كما عاشه سعادة . لم يهمه الموت كما لم تعن له الحياة كثيرا ..

كنا دوما عندما نصل الى مكان الاحتفال نجد جمعا حاشدا ينتظرنا خارج الدار. كان القوميون ينظمون حرس شرف ويؤدوا للزعيم التحية الحزبية . كنت اسير خطوات قليلة خلف الزعيم،

فأرى عيون القوميين المصوبة اليه ، وهو يستعرضهم ، رافعا يده بالتحية . في نظراتهم كنت ارى العزة والكبرياء . وكان هو عندما يقف ليخطب بهم ، يرى امامه أبطالا مقاتلين ، منقذي الامة الوحيدين . كانوا يستمدون منه الثقة بالنفس وكان يستمد منهم الثقة بالحزب .

- ٤ -

استدعاني سعادة يوما الى مكتبه في البيت ، فوجدته جالسا يقرأ «الجيل الجديد» ، ولما رآني وضع الجريدة على المكتب وقال ، وهو يشير الى مقال في الصفحة الثالثة من الجريدة :

ـ هل قرأت هذا المقال ؟

كان مقالا بقلم جورج عطية يتناول عبد الرحمن الكواكبي .

ـ نعم قرأته .

ـ هل لديك اية ملاحظة حوله ؟

لا ، لم يكن لدي اية ملاحظة حول الموضوع . كان واضحا ان شيئا في المقال يشغل بال الزعيم . ما هو ؟ في تلك اللحظة قرع الباب ودخل لبيب زويا (وكان قد بدأ يعمل في عمدة الثقافة لبضع ساعات في اليوم) وسأله الزعيم اذا كان قد قرأ المقال :

ـ مقال جيد ، يا حضرة الزعيم .

وبان على وجه الزعيم بعض التأفف . واخذ يقرأ المقال بصوت عال ، ووصل الى قول جورج بأنه (اي جورج) اكتشف عبد الرحمن الكواكبي . وتوقف الزعيم وقال :

ـ اذن جورج عطية هو الذي اكتشف هذا الفيلسوف السوري ، وهو اول من يكتب عنه !

وفجأة ادركت ما كان يرمي اليه . ليس جورج عطية بل هو الذي كشف عن اهمية الكواكبي وأول من كتب عنه .. وللحقيقة، فقد ذكره سعادة في عدد من مقالاته ، وكان على جورج ان يشير الى ذلك . وكان عدم اشارته سبب هذا المشهد المتعب . كأن الزعيم اراد ان يذكّرنا ان سعادة هو مصدر كل شيء في الحزب: هو القائد والمنظّر والشارع وباعث الامة ، ولا احد ينافسه في ذلك ..

- ٥ -

مرت الايام بسرعة ، واستقرت حياتي على روتين يومي يدور حول الامور الفكرية والثقافية في الحزب . في مطلع الربيع بدأت أكتب مقالا اسبوعيا في «الجيل الجديد» بعنوان «حياتنا الجديدة» بامضاء «زينون» . وأعطيت المقال الاول لوديع الاشقر (المسؤول عن التحرير) فنشره دون تعليق في الصفحة الرابعة . وظهر المقال الثاني والثالث في المكان نفسه . اما المقال الرابع فقد فوجئت برؤيته في الصفحة الاولى وفي الزاوية المخصصة لافتتاحيات الزعيم . كان ذلك بأمر من الزعيم ، كما علمت فيما بعد . وبقيت «حياتنا الجديدة» تصدر في هذا الشكل البارز حتى آخر عدد من «الجيل الجديد» الذي أحرق مع مكاتب الجريدة في ١٠ حزيران سنة ١٩٤٩ . في تلك الاثناء اصدر الزعيم قرارا بتعييني وكيل عميد الثقافة ورئيس تحرير مجلة الحزب الشهرية «النظام الجديد» .

صرت صباح كل يوم بدل ان اذهب الى بيت الزعيم انزل مباشرة الى مكتب الجريدة في خان انطون بك ، فأجلس مع وديع او جورج في الغرفة المطلة على المرفأ ونتباحث في أمور الجريدة والمجلة . كان الزعيم احيانا يتصل تلفونيا بالمطبعة

ليسأل عني فأبقى في المطبعة حتى يحضر . وعندما يحدث ذلك امضي معظم فترة قبل الظهر في الجريدة . كان الزعيم ينسى موعد الغداء اذا كان مشغولا ، فأتأخر في تناول طعامي حتى الثالثة او الرابعة ، وكنا عند ذاك نطلب لحما مشويا مع حمص من المطعم ونأكل وقوفا حول احد المكاتب والارض تهتز بنا من المطابع .

كنت في الايام التي لا يستدعيني فيها الزعيم اذهب الى المطبعة التي تطبع فيها «النظام الجديد» ، وكانت تقع في احد الشوارع الضيقة المتفرعة عن ساحة الدباس . فكنت احيانا اركب الترامواي من باب ادريس الى البرج وأحيانا اخرى أذهب سيرا على القدمين عن طريق شارع المعرض والفراند تياتر ثم خلف اللعازارية الى ان اصل الى ساحة الدباس . كانت «النظام الجديد» قبل عودتي الى بيروت تطبع في مطبعة الجريدة ، دون تصميم او اخراج فني ، وقررت بعد استلامها ان أطبعها بحلة جديدة ، وبغلاف ملون وأحرف جديدة . فتعاقدت مع مطبعة صغيرة يملكها شاب قومي من ديك المحدي قريب لأسد الاشقر . وصدرت «النظام الجديد» بحلتها الجديدة في مطلع حزيران ، واحدثت ضجة واسعة في داخل الحزب وخارجه .

وتصدرت العدد محاضرة الزعيم الخامسة التي القاها في الندوة الثقافية (التي عادت الى الانعقاد سنة ١٩٤٨) والتي فصّل فيها مبادىء الحزب وأهدافه الاجتماعية والسياسية (نشرت هذه المحاضرات في دمشق سنة ١٩٥٠ بعنوان «المحاضرات العشر في الندوة الثقافية سنة ١٩٤٨» وأعيد طبعها عدة مرات) . والجدير بالذكر ان هذه المحاضرة كانت الاخيرة التي أتيح للزعيم مراجعتها قبل نشرها ، اما المحاضرات الخمس الباقية فقد دفعت للطبع كما دوّنها جورج عبد المسيح دون ان يراجعها الزعيم او ينقحها .

وكتبت انا ، بالاضافة الى افتتاحية العدد ، مقالا بعنوان «فلسفة القيم في المدرسة المدرحية» بامضاء «وكيل عميد الثقافة والفنون الجميلة» .

في الافتتاحية تناولت دور الحزب في الازمة التي كانت تمر بها البلاد ، وقلت :

«عند احتدام ازمة فلسطين في اوائل سنة ١٩٤٨ ارسلت منفذية حيفا العامة الى المركز تطالب بشدة ان يتقدم الحزب لانقاذ القضية الجنوبية بالتدخل المباشر في الاعمال العسكرية التي كانت قد ابتدأت آنذاك . وكان جواب الزعيم الى منفذية حيفا العامة هو ان القوميين الاجتماعيين يشكلون في الصراع الصفوف الثانية ــ والاخيرة . وان سقوط الصفوف الاولى المحتم سيجعل من صفوف القوميين الاجتماعيين امل الامة الوحيد .

«والآن وقد سقطت الصفوف الاعتباطية الاولى كما تنبأ الزعيم اصبحت الحركة القومية امل الامة الوحيد » .

واختتمتها بقولي :

«ان سوريي الامس ، سوريي الفشل والذل والانكسار، يحتضرون ويموتون، ويقوم في صميمهم، سوريو الغد ، سوريو العز والمجد والانتصار .

«ان القوميين الاجتماعيين هم أبطال عصر «النهضة» وخالقو المثالية السورية» .

وفي المقال تناولت الفلسفة المدرحية (المادية ــ الروحية)

وكانت تلك بداية تخصصي في المدرحية ، واصبحت بعدها الخبير الوحيد في الحزب الذي باستطاعته فك ألغاز هذه الفلسفة الجديدة . كان جورج عبد المسيح ، بعد اعادة بناء الحزب في دمشق سنة ١٩٥٠ ، يقول للذين يسألونه «ما هي الفلسفة المدرحية» ، كما حصل ذات يوم مع حنا دميان : «انتظروا حتى يرجع هشام من اميركا فيشرحها لكم» .

وكتب في هذا العدد من «النظام الجديد» انعام رعد مقالا بعنوان «احزاب التسوية في الميزان» وكتب جورج عطية تحليلا لملحمة جلقامش ، وفاروق نصار قصيدة بعنوان «هبة الدهر» . وكان هناك ثلاث مراجعات كتبت دون امضاء، اثنان منهما ــ حول «طريق الخلاص» للدكتور جورج حنا ، و«معنى النكبة» للدكتور قسطنطين زريق ــ اظنها كانت كلها بقلم الزعيم .

- ٦ -

قبل صدور «النظام الجديد» ببضعة ايام أقيم اجتماع في بيت هاني بلطجي في رأس بيروت ، القى فيه الزعيم خطابا اعلن فيه ان الحزب قد عيل صبره ، وان المجابهة مع الزمرة الحاكمة لا مهرب منها . وقد كان لهذا الخطاب تأثير مباشر على قرار السلطة بضرب الحزب .

وصلنا الى بيت هاني حوالي الساعة السادسة . وكان الجو عاصفا . هطل المطر برهة ثم توقف ، لكن الريح استمرت تهب بشدة . كانت القاعة والغرف المحيطة بها تعج بالقوميين ، في حين امتلأت بهم الحديقة الصغيرة المحيطة بالدار . وقبل دقائق من القاء الزعيم خطابه دخل القاعة جورج عبد المسيح وأسرّ بأذن الزعيم بصوت سمعه كل من حوله ، ان قوى الامن تتمركز في الشارع امام المنزل ، وتمنع القوميين الاجتماعيين من الدخول ،

وان الضابط المسؤول يطلب فض الاجتماع حالا والا اضطر الى استعمال القوة .

وانتشر الخبر بسرعة البرق في القاعة والغرف المجاورة وانتقل الى الحديقة . خيم الصمت على الجميع ولم يعد يسمع الا صوت الشرطة في الخارج وصفير الريح في الاشجار المحيطة بالمنزل . رأيت الدم يتصاعد الى وجه سعادة واستولى عليه غضب جامح . غير انه تمالك نفسه بسرعة وابتسم ابتسامة صغيرة كما كان يفعل عندما يكبت انفعالا قويا في نفسه . وقال لجورج عبد المسيح ان يحاول تهدئة القوميين الاجتماعيين ومنعهم من التحرش برجال الشرطة مهما كانت الظروف . كان واضحا ان هدف السلطة هو خلق حادث يبرر فض الاجتماع .

كنت جالسا بالقرب من اخوين كانا رفيقين في الحزب ، وكان في حوزة الاصغر منهما مسدس اخرجه من جيبه . وكان الاخ الاكبر يريد المسدس لنفسه لينضم الى حرس الزعيم في الخارج ، وكان اخوه الاصغر يعارضه في ذلك لانه يريد ان يفعل الشيء ذاته . وكان المسدس ينتقل من يد الى يد ، والنقاش يحتد ، فخفت ان تنطلق منه رصاصة تصيب احد الحاضرين ، فاقترحت عليهما ان يلتحقا سوية بالحرس ويشتركا معا في استعمال المسدس اذا اشتعل اطلاق النار . فنظرا الي لحظة ثم هرعا سوية الى الخارج دون ان يتفوها بكلمة .

كان التوتر في القاعة يزداد حدة . رأيت حراس الزعيم من النافذة وهم يقيمون الاستحكامات في الحديقة. ولمحت مسدسا ورشاشات من نوع «التومي» كالتي كان يحملها القوميون الاجتماعيون في الجبال اثناء ملاحقة الزعيم . قلت في نفسي «هالمرة ستعلق» وتملكني الخوف وأخذ قلبي يخفق بشدة .

ثم فجأة خيم الصمت في القاعة وامتد الى الغرفة المجاورة والى الحديقة ومنها الى الشارع ، كالريح الساكنة . والتفت

فرأيت الزعيم واقفا فوق طاولة في منتصف القاعة ، ينظر الى الحاضرين ، ولا يبدي حراكا . بقي كذلك لحظات ... هدوء شامل .. عيون شاخصة .. أنفاس محبوسة .. قلوب تخفق ..

لفظ اولى كلماته بصوت هادىء رصين ، كأنه يتحدث في قاعة الدراسة وأخذ صوته الجهوري يملأ السكون . وما هي الا لحظات حتى انقلب الجو . زال التوتر وحل محله شعور بالثقة والاطمئنان . رأيت التحول في وجوه القوميين الاجتماعيين ، في نظراتهم وفي طريقة وقوفهم حول الزعيم .

«نشأنا نبحث عن القتال ولا يبحث عنا القتال ابدا . نشأنا، وفي نشأتنا عز هو كل معنى وجودنا ولسنا بمتنازلين عن معنى وجودنا لشيء في العالم ... اننا جنود نهضة تحارب في جميع الجبهات ، لأن حربها هي حرب لهذه الامة ، حرب انتصار الامة على الغايات الإجنبية والغايات الداخلية التي تعمل على اذلال الامة التي تأبى الذل .

«... نحن القوميين الاجتماعيين ، نحن الذين حاربنا الاستعمار والاحتلال الاجنبي ، يوم كانت جموع وجموع تعمل متحالفة مع الاجنبي لتحكيم الاجنبي في هذا الوطن لقاء منحة او منفعة خصوصية يمنحها اياها على حساب الشعب ومصلحة الامة .

«نحن حاربنا ونحارب الاستعباد الداخلي الذي يتخذ من الاقطاعية والرأسمالية والتكالب على المصالح والمنافع واسطة وشكلاً ، الاستعباد الداخلي الذي كان حليفا للاستعباد الخارجي والذي لولاه لما فقدنا كيليكيا والاسكندرون وفلسطين .

«... ان مرجل النهضة يغلي وان هذه النهضة تزمجر ، فانويل ثم الويل لمن يحاول الوقوف في طريقها» .

قال الجملة الاخيرة بقوة وعنف ، وفي لهجة تهديد واضحة.

وأرتجت القاعة بالهتاف .. ورأيته يرفع يده طالبا السكوت . كان غضبه قد تحول الى نار باردة تحترق في عينيه . وقال بصوت شق الصمت المطبق :

«ان أمرّ حرب هي الحرب الداخلية ، الحرب التي يثيرها علينا الذين يدعوهم الشرف القومي الى المحاربة معنا ، فلا يحاربون الا ضدنا .

«ان زمن القطعان قد انتهى ، وابتدأ زمن الجماعة المدركة الحية ...

«اننا لم نتعد على احد ولم نهاجم احدا ولكننا لسنا نعاجا اذا هوجمنا بل أسودا» * .

وضجّ القوميون الاجتماعيون بالهتافات من جديد . وانتهى الاجتماع وخرج الزعيم يحف به الحرس ، وكنت أسير خلفه . وعندما خرجنا الى الشارع تسمّر رجال الشرطة في اماكنهم ، وسار الزعيم امامهم ببطء ، كأنهم فرقة شرف جاءت لتقديم التحية ...

- ٧ -

بعد بضعة ايام احتفلنا بأول آذار ١٩٤٩ . كان الزعيم في الخامسة والاربعين من عمره . من كان يدري انه سيكون الاحتفال الاخير ؟ كان المستقبل يمتد امامنا الى ما لانهاية ...

من كان اعداء الحزب ؟ من هم الذين ارادوا القضاء عليه ؟

ماذا تعني هذه الاسماء اليوم : رياض الصلح ، بشارة

---

* **النظام الجديد** (حزيران ١٩٥٠) «فقرات من خطاب سعادة في رأس بيروت بمناسبة اول مارس ١٩٤٩» ص ١١١ — ١١٣ .

الخوري ، حسني الزعيم ، محسن البرازي ؟.

لكنهم نجحوا في مسعاهم .

لقد تمكنت القوى الطائفية والاقطاعية والرجعية التي كانت تتصارع فيما بينها باستمرار ، من الايقاع بالحزب والتخلص من انطون سعادة .

كيف نجحت هذه القوى ؟

عندما أستعيد بذهني ما كان يقوله الزعيم في خطبه وأحاديثه عن حجم الحزب وقوته ، يبدو لي انه كان مخطئا في تقويمه للحزب ولقوته الحقيقية . ربما كان يضخم حجم الحزب عن قصد . مثلا في احتفال اول سنة ١٩٤٣ في الارجنتين يتحدث عن «عشرات ومئات الالوف من السوريين الذين اعتنقوا الايمان القومي الاجتماعي» مؤكدا لمستمعيه في مدينة كوردوبا (قرطبة) انهم جزء من كل كبير عظيم القوة : «انكم تجتمعون هنا لتضموا ارادتكم الى ارادة مئات ألوف القوميين الاجتماعيين الذين أشعر وأعلم انهم معنا في هذا الاجتماع كما اننا معهم في اجتماعاتهم» ✱ .

كان يتحدث عن الحزب كأنه دولة قائمة ، على وشك ان يتسلم الحكم . كان يسلك في تصرفه الشخصي وفي مواقفه العامة سلوك رجل الدولة . كان الحزب بنظره القوة السياسية الوحيدة التي وقفت بوجه الاستعمار وحققت الاستقلال ، والتي ستحرر فلسطين . اظن ان سعادة لم يسبر تماما عمق الشعور الطائفي والعشائري والاقطاعي في البلاد . من هنا كانت حيرته في تفسير تردد جماهير الشعب من الالتفاف حول الحزب .

✱ **النظام الجديد** (حزيران ١٩٥٠) «خطاب الزعيم في اول مارس ١٩٤٣» ص ٩١ .

فبالرغم من العطف الذي كان يلاقيه الحزب في بعض الاوساط فان عدد اعضائه لم يصل الى «عشرات ومئات الالوف» ✱ . كان نموه ، بعد الطفرة التي تبعت عودة سعادة سنة ١٩٤٧ ، بطيئا ومنحصرا في مناطق وطبقات معينة . كان فشله الاكبر في جذب الطبقات العمالية والزراعية الفقيرة اليه ، فبقيت نسبة العمال والفلاحين في صفوفه منخفضة ، في حين سيطرت الطبقة البرجوازية الصغيرة على قيادته وصفوفه في المديريات والمنفذيات والمراكز .

لم ادرك كل هذا في ذلك الحين . كنت اريد ما كان يريده غيري من أفراد الجيل الصاعد الذي انتميت اليه : **تغيير هذا المجتمع الفاسد من اساسه** . كنا نريد الثورة . لكن الثورة كانت بالنسبة لنا شيئا نظريا ، حدثا رومانطيقيا : نتسلم الحكم ونغير مجرى التاريخ . لم يكن هناك دور واضح للجماهير . كان الحزب نخبويا في تركيبه ونظامه وعلاقات اعضائه ، بعيدا كل البعد عن المنظور الطبقي . كانت الامة ، لا الطبقة الثورية، هي محور عقيدته . رفضنا المفهوم الطبقي لانه يناقض المفهوم القومي وينفي نظرية الامة . وهكذا حجب صنم الامة حقيقة الجماهير عن ناظرنا ، وفصل الفكر المثالي بيننا وبين واقعنا الاجتماعي المحسوس . وبقي الحزب حركة محدودة الحجم والعدد عاجزة عن تعبئة الجماهير ، وعن خوض المعركة السياسية التي فرضت علينا بعد عودة الزعيم وبالتالي عن تحقيق الانتصار الذي ظن سعادة انه في متناول ايدينا .

✱ المصدر نفسه .

- ٨ -

كنت خارج اوقات العمل امضي معظم ساعات فراغي في بيت الزعيم . لا ادري كيف دبرت معيشتي من يوم الى آخر .. ولم اقم بمسؤوليتي نحو عائلتي ، التي فقدت كل ما تملك .. فقدت كل طموح شخصي ، واستحوذ الحزب على كل نشاطاتي.

كان الزعيم يدعوني احيانا في عطلة الاسبوع للسير معه على الكورنيش . كنا نسير ذهابا وايابا من عين المريسة الى المسبح العسكري دون ان نشعر بمرور الوقت وكان يرافقنا حارسه الخاص واسمه علي (كان فلسطينيا من عكا انضم الى الحزب وهو جاويش في قوى البوليس البريطاني) اراه امامي الآن في معطفه العسكري القديم الذي يصل الى كاحله ، يرفع ذراعه بالتحية الى الزعيم كلما درنا لنعاود سيرنا على الكورنيش . احيانا يوم الاحد قبل الظهر كنا نذهب الى الشاليه سويس في الدورة او الى مقهى الغلاييني في الروشة ، وكان الزعيم لا يمانع اذا رافقنا احد من اصدقائي مثل جوزيف سلامة او لبيب زويا وبالطبع فؤاد نجار ، فنقضي ساعات قبل الظهر في الحديث واحتساء القهوة او الشاي . في تلك الايام كانت بساتين البرتقال تمتد من انطلياس الى الدورة وسن الفيل . وكانت رائحة زهر البرتقال تفوح في الجو وتملأ السيارة كلما ذهبنا الى الشاليه سويس . رائحة زهر البرتقال تذكرني بطفولتي في يافا وبالزعيم في آخر ربيع من حياته ...

لنعد الى احتفال اول آذار الاخير . كنا نريد اقامته في اوتيل النورماندي ، ومنعتنا السلطة عن ذلك ، فأقمناه في بيت فؤاد واسكندر شاوي (وصلني منذ ايام ان اسكندر قد قتل في لبنان بعد اصابته بشظية صاروخ) . كان المطر يهطل غزيرا تلك الليلة . الدعوات التي أرسلت الى العديد من

الشخصيات خارج الحزب الفيت ، ولم يحضر عدد آخر من المدعوين بسبب تغير الموعد والمكان ، فكان حجم الحضور أقل بكثير مما كنا نأمل .

وبالرغم من هذا فقد اكتظت قاعة الدار بالحضور . جلس الزعيم في صدر القاعة وكان على غير عادته في مثل هذه المناسبات ، صامتا غارقا في التفكير . لم اعهد فيه مثل هذا الوجوم من قبل . لكنني لم أعر الموضوع كثيرا من الاهتمام لانني اعددت خطابا كان عليّ أن ألقيه بعد بضع دقائق . سبقني في الكلام عدد من الخطباء وكان عبد الله قبرصي آخرهم . وعندما جاء دوري وقفت امام الزعيم ، وكانت تلك هي المرة الاولى التي القي فيها كلمة بحضور الزعيم ، فابتسم مشجعا . وكان الفائي مليئا بالاغلاط النحوية . قلت اشياء لا أذكرها الان . كل ما بقي في ذاكرتي هو السكون الذي خيم فجأة عندما نادى العريف اسمي لالقاء كلمتي ، وصوت المطر يقرع على النوافذ المغلقة ، ووجه الزعيم في بقعة من الضوء الخافت وقد احاطت به وجوه رفقاء اعزاء ، اختفى منها العديد منذ تلك السنة المشؤومة ، ووجوه اخرى لا أعرف ما حل بأصحابها حتى اليوم. كان سعادة ينظر اليّ بانتباه ، منصتا لكل كلمة اقولها . صفق بشدة عندما انتهيت ، وقام وضمني الى صدره برفق وهو ينظر الى الحاضرين كأنه يفخر بي . انه بالنسبة لي الآن ، بعمر اخي الاصغر ، لو كتب لأخي خالد أن يبقى على قيد الحياة . اراه الآن ، في اول آذار ، ينظر الى الحاضرين ويده على كتفي . ويخيل اليّ انه يودعهم لشعوره بقرب النهاية . لعلني أتخيل كل هذا بعد مضي هذه السنين الطوال . لكنها صورة لا تفارقني وأنا اكتب هذه السطور .

وقام سعادة لالقاء خطابه التقليدي . اعدت قراءته صباح اليوم . انه بالفعل الكلمة الاخيرة للزعيم ، فهو آخر ما صدر عن

الزعيم الى جانب «بيان الثورة القومية الاجتماعية الاولى» الذي وزّع عند اعلان الثورة في آخر حزيران ١٩٤٩ .

كان الخطاب شاملا تناول فيه امورا وقضايا لم يعالجها في السابق ، ربما لو انه عاش وتابعها ، كانت قد أدت الى تغيرات اساسية في ايديولوجية الحزب ، والى سيره باتجاه اشتراكي. تعرض سعادة ، ولاول مـــرة للقضية الطبقية ، فهاجـــم «الراسماليين» ونعتهم «بالطبقة الفاسدة» ونادى بحق «العمال» و«الفلاحين» . لا اظن ان سعادة كان على وشك تبني المفهـــوم الطبقي والتخلي عن المفهوم القومي الاجتماعي . كان لا يـــزال بعيدا عن كل هذا . الا انه كان في بداية تحول جذري في تفكيره، كالتحول الذي أدى به في الاربعينات الى تعديل نطاق الوطـــن السوري واعتماد نظرية الهلال الخصيب ، واتخاذ النظـــرة الاجتماعية الى جانب النظرة القومية اساسا للعقيدة الحزبية .

مهما يكن من امر ، فقد كان الخطاب مليئا بالمنطلقات الفكرية الجديدة ، وبعضها كان من أعمق ما قاله سعادة .

كعادته ، لفظ كلماته الاولى بصوت خافت ، بلهجة الحديث العادي ، لا حدة فيها ولا غضب . اخذ يستعيـــد ذكرى اول احتفال أقيم في اول آذار . ذكر «الكوخ القائم خلف بناية فـــي رأس بيروت» حيث اقيم الاحتفال الاول بأول آذار ، و«الرفقاء الأُوَل في الحركة القومية الاجتماعية ... يحملون باقة زهـــر لمايدتي ذلك المساء» والقسم الذي قدمه لهم و«للحزب للأمـــة جمعاء» الذي ثبّت فيما بعد في دستور الحزب .

«اقسمت غير شاعر انني أقدم منّة للامة ، اقسمت شاعرا اني اعطي الامة ما يخصها . كل ما فينا هو من الامة وكل ما فينا هو للأمة ، الدماء التي تجري في عروقنا ليست ملكنا ، هـــي وديعة فينا، ومتى طلبتها وجدتها... ان الذين يعيشون لذواتهم يعيشون في نطاق الانانيات الصغيرة المحدودة . (انهم) يطلبون

الفخفخة ويطلبون جاها لاشخاصهم يشترونه بآلام الشعب ... قلت ان الحياة تعني لنا وقفة عز فقط . وقلت ايضا أننا نقتل العيش لنقيم الحياة ... اننا اردنا حياة لا عيشا ... الحياة لا تكون الا في العز ، اما العيش فلا يفرق بين العيش والذل . وما أكثر العيش في الذل حولنا» .

ثم هاجم الطبقات الحاكمة ، التي «لا تتألم لألم الشعب... (التي) تفتك بموارد حياة هذا الشعب (و) تقف منتصبة امامنا ، تصارع بسلاح اللؤم والغدر ، وتهلك موارد الامة في حربها اللئيمة الذليلة» . وقال ان هذه الطبقات هي «يهودنا الداخليون» و«ان مصيبتنا بيهودنا الداخليين اعظم من بلائنا باليهود الاجانب» . وقال ان لا مهرب للنهضة من الدخول مع هذه الطبقات الحاكمة في صراع حياة او موت . واذا لم تنتصر النهضة «ينتصر الانحطاط وتغلب الرجعية ...» ✶ .

نظرت في الوجوه الشابة حولي : فشل النهضة لا يخطر على بال احد ، والانتصار لا مهرب منه ..

ما الذي كنا نريده من الحياة ؟ كان اهلنا ضد كل ما نفعل. كانوا دائما لا يريدوننا ان «نتدخل في السياسة» .

ــ اياك والسياسة .

تقولها كل ام لابنها .

ــ شو بدك بهالأمور يا بني .. أمور الدولة ليست من شأنك . هناك من يقوم بتدبيرها .. واجبك هو تدبير مستقبلك .. الدراسة وتحصيل الشهادة ونيل الوظائف العليا. يقولها كل اب حكيم لابنه .

✶ **النظام الجديد** (حزيران ١٩٥٠) «خطاب سعادة في اول آذار ١٩٤٩» ص ١١٤ ــ ١١٨ .

خرقنا اوامر آبائنا واصممنا آذاننا عن توسلات أمهاتنا .
كنا نرمي ، بلا وعي واضح ، الى قلب سلطة الاب وكسر طوق العائلة ، والتخلص من قيم البيت . كنا نريد استبدال العيش الفردي الذي ترعرعنا فيه ضمن محيط العائلة الآسن بحياة المجتمع الواسع الغني . فسرنا في طريق العمل الحزبي ، ودفعنا ثمن «تدخلنا في السياسة» غاليا . أتكلم ، ليس فقط عن القوميين الاجتماعيين، بل عن القوميين العرب، والشيوعيين، والبعثيين وجميع الذين انضموا الى الاحزاب والحركات العقائدية التي قامت في تلك الفترة .

اين هم زملائي وابناء جيلي ، طلائع ذلك الجيل الجديد ؟

تبعثروا وتفتتت احزابهم . وفي طليعتهم الحزب السوري القومي الاجتماعي ، اول من دفع ثمن الثورة .

اننا الان ابناء ذلك الجيل في الاربعينات والخمسينات من العمر . حياتنا اصبحت وراءنا ، مستقبلنا صار ماضينا . ماذا كانت حصيلة صراعنا ؟

احيانا اقول لنفسي ان الغلطة كانت غلطتنا واننا نحن المسؤولين عما حصل . كان باستطاعتنا ان نتفادى الكوارث التي تعرضنا لها .. لكني اعود وأقول ، لم يكن هناك مهرب .. لم يكن خطؤنا اننا قمنا بالثورة ، بل في اننا لم نعدّ لها بما فيه الكفاية ، لا بالنظرية ولا بالسلاح ..

في تلك الايام كان هناك شبح يرافق الزعيم أينما حل ، احيانا تراه وأحيانا لا تراه ، هو جورج عبد المسيح . كنت اراه في بيت الزعيم كلما جئت اليه . وفي مكتب الجريدة كلما ذهبت اليها . كان ينام في قاعة الجلوس في بيت الزعيم ، بعد ان ينصرف آخر ضيف ، ويستيقظ قبل طلوع الشمس . يلبس ثيابا قديمة ولا يهتم بمظهره . كان القومي المثالي بنظر الجميع . بعد مقتل الزعيم وانتقال مركز الحزب الى دمشق، استلم جورج

عبد المسيح مقاليد الامور واصبح خلَف الزعيم ورئيسا للحزب. في عهده تفتت الحزب وقُضي عليه . نزلت الضربة القاسمة سنة ١٩٥٥ عندما اغتيل عدنان المالكي برصاصة قومي اجتماعي من «رجال» جورج عبد المسيح المخلصين .

في تلك الايام، اي قبل مقتل الزعيم، كان جورج عبد المسيح لا يكتب ولا يدّعي الفكر . اذكر انه كتب بضع مقالات في الاقتصاد (كان ذلك حقل دراسته في الجامعة الاميركية) نشرت في «الجيل الجديد» تحت عنوان «حياة الامة العمل» . كانت افكاره غامضة وطريقة تعبيره صعبة وملتوية . لكن ذلك لم يثنه عن الاستمرار في الكتابة .

بعد الانتقال الى دمشق ، اخذ يكتب في الجريدة يوميا بأسماء مستعارة ، احيانا عدة مقالات في اليوم . فكان يكتب الافتتاحية ، و«حياة الامة العمل» ومقالات تحليلية اخرى ، واتسع أفقه ، فأخذ يكتب في السياسة المحلية والعلاقات الدولية والفلسفية والزراعة بالاضافة الى الاقتصاد . كان يريد ان يحتل مكان سعادة ويكون مثله قيادة وفكرا . في سنة ١٩٥٤ اقمت في دمشق ما يقارب السنة في بعثة دراسية . وكنت أزوره كل يوم تقريبا . كان مصابا حينذاك بمرض جلدي في يديه . كان يجلس وراء مكتبه ـ مكتب الزعيم ـ ويأخذ بفرك يديه بشدة وهو يتحدث الى الحاضرين . كان ذلك بالطبع ملفتا للانظار . فلا يلبث ان يسأله احد الحاضرين عن يديه ويتحول الحديث الى هذا الموضوع . كان يقول : المسألة بسيطة الداء هو الورق الذي يكتب عليه .

وكيف ذلك ؟ لانه يكتب عشر ساعات في اليوم دون انقطاع. يداه يجرحهما الورق الخشن من كثرة الكتابة . وقال مرة لسعيد

تقي الدين في حديث اجراه معه سعيد في سنة ١٩٥٣ ✱ :
«أكتب نحو من عشر ساعات وأطالع خمس ساعات ، وأحاضر ويأخذني التنظيم ساعات ، وفي بعض الليالي انام» .

وليس لدي شك الان ان جورج عبد المسيح أصيب بنوع من الهوس بعد تبوئه مركز الرئاسة . كان يريد ان يبرهن لنفسه وللحزب انه سعادة آخر ، ومن هنا انفجر ذلك السيل الذي لا ينقطع من الكتابة . أفكار ناقصة ، غامضة ، غريبة ، اربكت القراء وأدت الى بلبلة فكرية واسعة في صفوف الحزب . لكن نتائج سياسته الحزبية كانت أتعس وأشد وقعا على الحزب . داخليا كان هو المسؤول عن الفرقة والعداء في مجالس الحزب التشريعية والتنفيذية وخصوصا في المجلس الاعلى . وعلى الصعيد السياسي كان مسؤولا عن عداء الحكم القائم للحزب ، مع ان اديب الشيشكلي كان في مركز السلطة . ورغم كل هذا فقد كان في معاملته لي افضل ما يكون . كان يعاملني دائما برفق ومحبة ــ ربما لان الزعيم عاملني هكذا ...

قررنا في ذلك الوقت ــ اي بعد مرور بضعة اسابيع على احتفال اول آذار ــ نقل الجريدة الى مطبعة حديثة تقوم في حي الجميزة ، يملكها ميشال فضول ، قريب اسد الاشقر . (من يعرف بيروت يدرك فورا ان المطبعة تقع في الناحية الشرقية من المدينة وفي وسط منطقة حزب الكتائب الماروني ، عدو الحزب اللدود) . كان ذلك خطأنا الاكبر ، ودليلا على سذاجتي . ذهبت الى المطبعة لاول مرة سيرا على الأقدام من ساحة البرج بعد ان نزلت من الترامواي عند سينما روكسي . عبرت ساحة البرج مارا بمطعم ابو عفيف الى مفرق سينما امبير ثم سرت في

✱ سعيد تقي الدين ، **الكتابات الكاملة** (بيروت ١٩٦٥) ص ٧٨ ــ ٩٠ .

طريق النهر باتجاه الدورة . كانت تلك المرة الاولى التي أدخل فيها المنطقة الشرقية من بيروت سيرا على القدمين . اخذت انظر الى البنايات القائمة على جانبي الطريق والمبنية على الطراز الفرنسي في العشرينات والثلاثينات وأخذت أتفرج على الحوانيت الصغيرة المتلاصقة في أسفلها . أحسست بأني في مدينة اخرى غير بيروت . وبالفعل عندما زرت باريس لاول مرة ، بعد عدة سنوات ، وزرت بعض أحيائها الفقيرة شعرت اني أعرف هذه البنايات واني رأيتها من قبل ، وتذكرت طريق النهر .

كانت المطبعة تقع في شارع ضيق يتفرع عن طريق النهر ، مقابلها مقهى صغير . صعدت الدرج ودخلت الغرفة الاولى الى اليمين (كانت المطابع في الطابق الارضي) ورأيت رأفت بحيري منصبا على المكتب وظهره نحو الباب . كانت الغرفة خالية من الاثاث ما عدا الطاولة التي كان يشتغل عليها وكرسيين . وعندما سمع وقع خطواتي استدار . ودون ان يحييني او يسأل عن صحتي حسب عادته ، قال :

ــ لن تصدر الجريدة اليوم ... مش ممكن .. كل شيء ناقص في المطبعة ..

كان غاضبا .. فأخذت أخفف عنه :

ــ بالطبع كل شيء ناقص . النقل دائما صعب . ستمر ايام وأسابيع قبل ان نعود الى الروتين الطبيعي .

كان رأفت من اشهر فناني لبنان في ذلك الحين ، ومن محبذي الحزب ، تطوع للاشراف على اصدار «الجيل الجديد» بحلتها الجديدة . وكانت مسؤوليتي التعاون معه وتسهيل مهمته . بقينا نشتغل في تلك الليلة حتى بعد منتصف الليل ، الى ان جهز كل شيء ولم يبق الا الطباعة . فقلت لرأفت اني تعب وبحاجة الى النوم . وكان هو في حالة نشاط ومرح ، فقد شرب العرق حتى الحادية عشر ثم اكل صحن حمص وأخذ يشرب البيرة دون توقف .

ـ روح نام . انا سأبقى حتى اتأكد من سير الطباعة .

نزلت الى الشارع الخالي من المارة ، وسرت باتجاه ساحة البرج ، من طريق اخرى تمر بسوق المومسات . كانت الطريق خالية الا من بعض السكارى النائمين في مداخل البيوت . رأيت وجوها تراقبني من وراء نوافذ البيوت الرخيصة . اما البيوت الغالية فكانت كلها مغلقة . مررت بماريكا ، اشهر بيت للدعارة في بيروت في ذلك الحين ، وتذكرت زيارتي الاولى له بصحبة عبد اللطيف ولبيب وجورج سلامة ، بعد حفلة التخرج سنة ١٩٤٧ . وفي ساحة البرج وقفت بالقرب من مركز الشرطة أنتظر تاكسي . وما هي الا دقائق حتى رأيت تاكسيا آتيا من جهة سينما روكسي ، فأوقفته وركبت فيه دون ان اشارط السائق . سمعت ساعة الجامعة تدق دقة واحدة عندما نزلت امام البيت الذي أقيم فيه . اعطيت السائق ليرة ودخلت غرفتي ونزعت ثيابي وآويت الى فراشي وقرأت كعادتي حتى غلبني النوم ، فأطفأت الضوء واستسلمت لنوم عميق لم أستيقظ منه الا على صوت بائع الجرائد ينادي «الجيل الجديد» ، طلعت «الجيل الجديد» .. ظننت بادىء الامر انني أحلم ... ففتحت عيناي ونظرت الى الساعة . كانت العقارب تشير الى السابعة . فقفزت من الفراش وفتحت النافذة وناديت بأعلى صوتي :

ـ جرايد ، جرايد .

واشتريت خمسة اعداد بخمسة وسبعين قرشا . وفرشتها على الطاولة ورحت أتفحصها . كان الاخراج بالفعل جميلا . اللونان الاحمر والاسود يطغيان على الصفحة الاولى ويعطيانها قوة جذابة . اما العناوين التي انتقاها رأفت فقد كانت في غاية الاناقة ، البعض بالخط الرقعي والبعض الآخر بأحرف المطبعة من الحجم الكبير . لا شك اننا نجحنا نجاحا باهرا . ستصبح «الجيل الجديد» في طليعة الصحف البيروتية ..

ذهبت الى مكتب الجريدة بعد الظهر . كان اليوم الخميس في ٩ حزيران . لم اجد رأفت في مكتبه ، فسألت عنه فقيل لي انه لم يحضر بعد . فجلست الى مكتبي وكتبت مقالي «حياتنا الجديدة» . وعند حوالي الساعة السابعة وصل رأفت وكان وجهه يفيض فرحا .

ـ كيفني معك ؟

وقبل ان اجيبه قال :

ـ لم تر شيئا بعد .. هناك اشياء لازم ان افحصها .. الجريدة كما هي بذهني لم تتحقق بعد .

ـ انا راضي بها مثل ما هي .. لا تغير شيء ، ارجوك .. لكن اخبرني ، فين كنت طول النهار ؟ ما حدا شافك .

ـ كنت في السان سيمون .. نمت على الرمل النهار بكامله .. خرجت من هنا الساعة خمسة ، وتروقت عند العجمي . بعدين رحت عالبيت وغيرت ثيابي ورحت للسان سيمون ، وكانت الجريدة نزلت للسوق والبياعين بدأوا ينادوا عليها . شو رأي الزعيم فيها ؟

ـ عجبته كثير . لم اره اليوم بعد . تكلمت معه على التلفون.

ـ على فكرة . انا وداخل هلق شفت ناس متجمعين قدام البناية .. شو في ؟

كانت اصوات خطب وهتافات تصل عبر الشارع . لم أنتبه الى ذلك عند وصولي الى المطبعة . فتحت النافذة ، فرأينا جمهورا صغيرا يتجمع في المقهى وامام المدخل .

وفي تلك اللحظة وصلت سيارة الزعيم . رأيته يخرج منها ومعه علي فقط . هرعنا لاستقباله . حيا رأفت وشكره ، ثم تفقد المطابع وهنأ العمال ، ثم صعد الى مكتب رئيس التحرير وجلسنا نناقش محتويات العدد الثاني . وكان معنا في الغرفة فاروق نصار وجورج عطية ولبيب زويا . وبعد حوالي نصف ساعة قال سعادة انه يتوجب عليه العودة الى منزله ، وطلب

اليّ مرافقته . رأيت ونحن نستقل السيارة شبابا يهرعون من المقهى المقابل ويتجمعون عند المدخل وهم يشيرون بأصابعهم نحونا . لم ينتبه الزعيم لما يجري ، وسارت بنا السيارة دون ان يحدث شيء .

في اللحظة التي وصلنا بها الى بيت الزعيم دق جرس التلفون . رفع الزعيم السماعة . وديع على الخط يقول بصوت متهدج ان عناصر من الكتائب هاجمت مقر الجريدة واطلقت النار على العمال في الطابق الارضي وان البناية محاصَرة . رأيت الزعيم يخفض السماعة عن أذنه ، وقد اكفهر وجهه ، ثم يرفعها ثانية ويقول :

ــ اتصل بمخفر البرج حالا واطلب النجدة .

اخبره وديع انه اتصل بالمخفر ، لكن الشرطة لم تحضر .

وعلمنا بالتفاصيل فيما بعد .. أشعل الكتائبيون النار في الطابق الارضي حيث تقوم المطبعة .. ثم وصلت الشرطة ، وأمر الضابط القوميين الاجتماعيين المتجمعين في الطابق العلوي بالنزول الى الشارع ، واعتقلهم جميعا . وكان بينهم جورج وفاروق ولبيب .. اما الكتائب فلم يعتقل منهم احد .

كان واضحا ان الحزب يتعرض لخطة مدبرة .. لقد قررت السلطة تنفيذ المؤامرة . ما هي الا ساعات حتى كان بيت الزعيم يعج بمئات القوميين الاجتماعيين . وامتلأ الشارع امام البيت بالسيارات والرجال المسلحين اتوا من ضواحي بيروت والجبل . بقيت اتنقل بين البيت والشارع الى ما بعد منتصف الليل . حوالي الساعة الواحدة رأيت الزعيم ينزل الدرج وخلفه علي يحمل حقيبة يد بنية اللون . ولم ينتبه اليهما الا الذين كانوا امام الدرج . فهرعت اليه وسرت بجانبه ، كأنني ذاهب معه ، لكنه التفت اليّ وقال باقتضاب :

ــ لا اريدك ان تأتي معي .. سأتصل بك فيما بعد .

وأدار ظهره وسار باتجاه «الفرن الحديث» الـــذي ما زال قائما في شارع الصيداني، وخلفه علي . كانت بساتين الباذنجان والقرنبيط ما زالت تملىء تلك المنطقة . واختفى الزعيم فـــي الظلام .. شعرت فجأة بتعب شديد .. تلفت حولـــي فرأيت القوميين متجمعين حلقات هنا وهناك .. ورأيت فؤاد يتحدث بحماس في احدى الحلقات . قلت في نفسي أفضل شيء ان انام قليلا وغدا نرى ما يجدّ . وسرت في شارع بلس باتجـــاه المنارة . كان الشارع خاليا والظلام كثيف . وعندما وصلت الى نزلة شوران سمعت اصوات سيارات تأتي من بعيد . لم أدر انها كانت محملة برجال الشرطة ، وانهم يحاصرون بيت الزعيم وعلى وشك اعتقال كل قومي اجتماعي يصادفونه. دخلت غرفتي ونزعت ثيابي وقرأت قليلا ، وما هي الا دقائق حتى كنت أغط في سبات عميق .

كانت الساعة قد قاربت السابعة عندما استيقظت صبـــاح يوم الجمعة في ١١ حزيران . كان الطقس رائعا ، كما هو دائما في بيروت في مثل ذلك الوقت من السنة ، اي آخر الربيـــع وأوائل الصيف . كانت تهب من الغرب نسمة رطبة تحمـــل رائحة البحر ، تمثل لي رائحة بيروت في الصيف ، وهي خليط من رائحة أعشاب البحر والكعك بسمسم والملح الرطب . خرجت من البيت لا أعرف في اي اتجاه اسير . الزعيم ليس في بيته ، والجريدة مغلقة ، ومكتب الحزب لا بد مراقب . ودون ان أفكر، ركبت الترامواي ، ووقفت في المؤخرة . كل شيء يبدو عاديا في باب ادريس والمعرض . ترجلت امام الاوتوماتيـــك وقطعت الشارع نحو محل سليم نجار (والد فؤاد) بالقرب من بنايـــة البلدية . كان اخوه كمال يقرأ «النهار» . عندما دخلت وقـــع نظري على عناوين الصفحة الاولى : «احراق مطبعة «الجيـــل الجديد» ... اعتقالات واسعة في صفوف الحزب القومي فـــي

جميع المناطق اللبنانية ...» واعتراني خوف بارد ، احسست به في قعر معدتي الفارغة .. كيف الهرب ، أين أختفي وقوى الامن تلاحقني ؟ وفي تلك اللحظة دخل خليل خير الله وكأننا كنا على موعد . كان وقتئذ يدير مدرسة ثانوية في بحمدون انشأها بنفسه . لما ابصرني توقف مندهشا .

ــ ماذا تفعل هنا ؟ ألا تعرف ما حدث ؟

ــ عرفت الآن فقط ، قرأت الجريدة .

ــ يجب ان تختفي عن الانظار حالا .. فؤاد لا خوف عليه حتى لو اعتقل .. اما انت فمن المسؤولين في الحزب ، كل المسؤولين اعتقلوا .. انت ملاحق .. اسمك ظهر في الصحف .

ــ هل اعتقلوا الزعيم ؟

ــ يقولون انهم سيلقون القبض عليه في غضون ٢٤ ساعة .. كل الطرق الى خارج بيروت عليها حواجز تفتيش .

ــ ماذا يجب ان أفعل ؟

ــ ان تختفي عن الانظار حالا الآن .

ــ كيف ... اين ؟

وصمت خليل قليلا ثم قال :

ــ تصعد معي الى بحمدون . هناك آمن شيء .

فكرت لحظة .. لا يوجد مكان ألتجيء اليه .. كل اصدقائي معتقلين أو هاربين .

ــ هيا بنا .

أنقذني ذلك القرار من الاعتقال والسجن المؤكد . في خلال ٤٨ ساعة كان معظم القوميين الاجتماعيين في بيروت وكل من له علاقة بالحزب قد اعتقلوا وزجّ بهم في سجن القلعة أو سجن الرمل . كانت الصحف تنشر اسماء المعتقلين يوميا . الا ان الزعيم ما زال متواريا عن الانظار . كذلك جورج عبد المسيح وفؤاد شاوي (رئيس حرس الزعيم) .

اختبأت في بيت خليل في بحمدون (الضيعة) يومين لم

أخرج خلالهما من الغرفة . وفي اليوم الثالث ايقظني خليل قبل طلوع الشمس . قال ان قوة الدرك تتجه الى بحمدون ويجب مغادرة البيت حالا . ارتديت ثيابي بسرعة وتناولت كتابي الذي جلبته من بيروت كان (الاخوة كارامازوف) وقطعة الخبز والجبنة التي اعطاني اياهما خليل وتبعت اخاه الاصغر حافظ . كان الفجر ينبثق وراء الجبل ، والهواء باردا . سرنا في أزقة الضيعة وصعدنا في طريق الجبل حوالي ساعة ، الى ان وصلنا الى اعلى الجبل . هناك جلست تحت شجرة بلوط وحيدة ، القيت ظهري الى جذعها ، ألهث من التعب ، بينما جلس حافظ الى جانبي بصمت . كانت الشمس قد ارتفعت فوق رؤوس الجبال والثلوج ما زالت تغطي الرؤوس العالية . قال حافظ :

ــ سأعود الى الضيعة الآن . سأحضر لك الغداء عند الظهر مع آخر الاخبار .

ــ لا تنس «الحياة» و «النهار» .

انا طريد العدالة .. هارب في البراري .. ما الذي أفعله على رأس هذا الجبل ؟ أصحيح ما يحدث لي ؟ ام هل انا في حلم؟

فجأة أسمع أزيز محركات ، فأنتفض مذعورا . ارى طائرة عالية في الجو ، متجهة غربا .. تخنقني غصة .. يا ليتني في شيكاغو .. وأفكر بكارول ، وكنت قد اجبرت نفسي على عدم التفكير بها .. يغمرني حزن بالغ وشفقة تستولي على نفسي . تكاد الدموع تسيل من عيني .. ثم اقول لنفسي :

ــ اخجل من نفسك ..

وأتمالك أعصابي ، وآكل قطعة من الخبز والجبن فترتفع معنوياتي قليلا . وأتناول كتاب دوستويوفسكي وأجبر نفسي على القراءة (لا يزال هذا الكتاب في حوزتي حتى الساعة) .

عند الظهيرة رأيت حافظ آتيا من بعيد . كان رأسه يظهر ويختفي وراء الصخور ، وفي يده صرّة . عندما وصل فتحها

وكان فيها كُبة مشوية وبندورة وخيار وزيتون وخبز مرقوق وكرز أحمر وجريدة «الحياة» . جلس يراقبني وأنا ألتهم الطعام وأقرأ «الحياة» بصمت . الاعتقالات مستمرة في المناطق .. مكاتب الحزب والجريدة ختمت بالشمع الاحمر .. مذكرة توقيف جديدة صدرت بحق انطون سعادة (ما زال مختفيا عن الانظار) .. الحكومة تتهم الحزب بالتآمر ضد الدولة والاعداد لمحاولة انقلاب .

وضعت «الحياة» جانبا وسألت حافظ عن الوضع في الضيعة .

ــ كبسة كبيرة . فتشوا كل البيوت وما لاقوا شي . ظنوا ان مسؤولين كبارا في الحزب التجأوا الى الضيعة .

ــ الدرك بقي في الضيعة ؟

ــ قال الضابط انهم سينسحبون بعد الظهر .

وعندما عاد حافظ عند المغيب أخبرني ان قوة الدرك قد انسحبت ، وانه بامكاني العودة الى البيت . عدنا على الطريق نفسها . كان الظلام يخيم في الساحة ، وقد آوى السكان الى بيوتهم ما عدا بضعة اشخاص كانوا يلعبون الورق في مقهى صغير . واستقبلنا خليل في البيت وهو يضحك باطمئنان .

ــ من الآن وصاعدا ما في داع للخوف . بامكانك البقاء في البيت بكل راحة بال .. العسكر لا يكبسون نفس المكان مرتين ..

لكن في تلك الليلة قررت عدم البقاء في الضيعة . شعرت اني في سجن من نوع آخر . اهل القرية يحسون بالغريب حتى ولو لم يروه . وللحزب اعداء كثيرون في هذه الضيعة ، ولا بد من وشاية اخرى ان تجلب الدرك مرة اخرى . لم أستطع ان انام . كنت في حالة من القلق الشديد .

في صباح اليوم التالي ، بعد فطور مبكر ، اخبرت خليل بعزمي على العودة الى بيروت . حاول اقناعي بالبقاء لكنني

اصررت ، فقال :

– يجب ان نتدبر امر دخولك لبيروت .

واتفقنا ان افضل طريقة هي ان أستقل سيارة ركاب عمومية من المحطة بدلا من ان أستأجر سيارة خاصة . ورافقني خليل الى المحطة ، فوجدنا سيارة سرفيس على وشك المسير .

أوقفنا الدرك في الطريق مرتين ، الاولى عند مفترق عاليه، والثانية عند مدخل بيروت في فرن الشباك ، وفي كل مرة كنت أبرز بطاقة هويتي الطلابية من جامعة شيكاغو ، فينظر الشرطي الى وجهي البريء ويعيدها الي دون سؤال . ووصلنا ساحة البرج بسلام . وهناك ركبت الترامواي الى رأس بيروت . رأتني والدتي من بعيد اسير باتجاه البيت فأخذت تشير بيدها في حركة عصبية ، فهمت منها انها تحذرني من التقدم الى البيت. فاستدرت بهدوء وسرت نحو المسبح العسكري باتجاه البحر وجلست على احد المقاعد الحجرية التي اقامتها البلدية على طول الكورنيش (وسرق معظمها فيما بعد) ما يقارب الساعة ، ثم عدت الى البيت .. ولما لم ار ما يثير الشبهات ، صعدت الدرج وقرعت الباب . فتحت الباب والدتي ، وعندما رأتني قالت بصوت متهدج :

– ليش رجعت ؟ ما بتعرف انهم عم يعتقلوا كل الناس ، في الحزب وغير الحزب ؟

جلست في مقعد بالقرب من الباب دون ان أتفوه بكلمة . تناولت كوبا من الليمونادة قدمته لي خالتي وهي تقول :

– روق دمك يا حبيبي .

قالت والدتي :

– مش ممكن تبقى هون .. او في غرفتك .

قالتها وهي تحاول ان تتمالك نفسها لكن يديها كانتا ترتجفان . شعرت بالندم لمغادرة بحمدون .

ـ شو بتريديني أعمل اذن ؟

في هذه الاثناء كانت جدتي تقرأ سورة الكرسي فوق رأسي. يداها ايضا ترتجفان وهي تمسح شعري وتكبس على جبيني وكتفي . قلت في نفسي ، لو كنت اكبر بطل لأصابني الهلع في هذا الجو ، اهرب يا ولد قبل أن تفقد ما تبقى من شجاعتك . وفي هذه اللحظة صرخت والدتي صرخة جعلتني أقفز من مقعدي مرتعدا .

ـ مرت الباشا .. سنأخذك عند مرت الباشا ..

بالفعل كانت فكرة رائعة . لن يخطر لاحد أن يفتش عني عند مرت الباشا . استحممت بسرعة ووضعت بعض الملابس والكتب في حقيبة صغيرة ، واستقللت انا ووالدتي سيارة تاكسي الى بيت مرت الباشا ، وكانت تسكن في شارع فقير في حي المصيطبة . سارت بنا السيارة في طريق معوجة حسب ارشادات والدتي ، الى ان وصلنا الى بناية قديمة اشارت اليها قائلة :

ـ عندك . هذا هو البيت .

نزلنا من التاكسي ودفعت للسائق ٧٥ قرشا وصعدنا درجا قذرا الى الطابق الثالث . دقت والدتي الباب ، فلم يرد احد . ثم دقت مرة ثانية بعنف ، وقد بدأ القلق يستولي عليها. فسمعنا صوت أقدام تقترب من الباب .

ـ مين ؟

ـ خانم ، انا فطمة .. دخيلك افتحي أوام ..

وفتحت الباب سيدة في الستينات من عمرها تدخن سيجارة تدلت من شفتيها . عندما رات والدتي اخذتها في أحضانها وهي تقول :

ـ اهلا اهلا بحبيبتي فطمة .

تغيرت مرت الباشا كثيرا ... اضمرتها السنون .. انها أقصر مما اذكر ، وأصغر حجما .. ترتدي فستانا قديما ، اطول

من الخلف منه في الامام .. شعرها الكستنائي اصبح شائبا . دخلنا غرفة الجلوس الخالية من الاثاث ، ما عدا مائدة صغيرة وثلاث كراسي . جلست هي ووالدتي تتحدثان ووقفت امام النافذة . عادت بي الذاكرة الى المرة الاولى التي رأيت فيها مرت الباشا . كان ذلك في يافا ، وكنت دون الثامنة من عمري (كنا ما زلنا نسكن في المنشية قبل انتقالنا الى حي النزهة) . كانت ليلة عاصفة ، وقد أويت انا وأخي خالد الى فراشنا . سمعت الباب يدق بشدة ثم اضيئت الاضواء وهرعت الخادمة الى الباب . سمعتها تقول :

ـ مين ؟

ثم صوت والدتي من قاعة الجلوس تسأل الخادمة والخادمة تجيبها بصوت متهدج .

ـ مرت الباشا على الباب ..

وسمعت والدتي تنهض مسرعة وصوتها وهي تؤهل بالضيفة الكبيرة . وتسللت من فراشي وبقي خالد يغط في النوم . كان باب الصالون مفتوحا على مصراعيه . رأيتها جالسة في صدر القاعة تضع رجلا فوق رجل ، تدخن سيجارة بكبرياء لا تصنع فيه . ربما كانت في الاربعينات ، ملابسها انيقة ، عيناها خضراوان ، ساقاها طويلتان . كانت رائعة الجمال بنظري .. نادتني والدتي .

ـ الخانم لا تمانع ان تبقى عندها كم يوم .

وقالت مرت الباشا :

ـ بيقدر يبقى قدر ما يريد .. اهلا وسهلا بهشام .

تبين لي ان مرت الباشا لم يكن عندها علم بما يجري من أحداث . ولا اظن انها فهمت سبب التجائي اليها .. لاحظت انها استغربت ان أطلب الاقامة في بيتها بضعة ايام ، ولكنها لم تعط الامر اهمية . طيلة حياتها كانت لا تعطي اهمية لشيء .

فقدت ثروتها دون ان تدري كيف حصل ذلك ، وعندما اصبحت فقيرة مدقعة ، لم يتغير موقفها من اي شيء .

بعد مغادرة والدتي ، جلست في غرفة الطعام اقرأ «الحياة» و«النهار» والصحف الاخرى التي جلبتها معي. كان اليوم الثلاثاء في ١٣ حزيران . ثلاثة ايام مضت منذ بدء الاحداث .. جورج عبد المسيح ما يزال ملاحقا . اما الزعيم فتقول بعض الشائعات انه في دمشق ، ويقول بعضهم الآخر انه مختبىء في جبال الشوف . المهم انه ما زال حرا . ورد في «الحياة» ان الحكومة اتخذت قرارا بحل الحزب والغاء ترخيصه القانوني ومحاكمة المسؤولين فيه .

عند الغروب ، دخلت عليّ مرت الباشا وسألتني اذا كنت جائعا . فقلت انني لا أشعر بجوع وليس لدي اية قابلية للطعام. فلم تقل شيئا ، وغادرت الغرفة . كانت تسير في أرجاء بيتها الصغير كالحالمة ، تدخن السيجارة تلو السيجارة . في الليل ، عندما آويت الى الفراش في غرفة ملاصقة لغرفة الطعام، سمعتها تسير ذهابا وايابا حتى مطلع الفجر . وفي الصباح استيقظت على رائحة القهوة التي كانت تصنعها على موقد كهربائي صغير . اعطتني فنجانا ، ولم تسألني اذا كنت اريد فطورا . لم تتناول هي شيئا ، بل راحت تدخن سجائرها وتسير في أرجاء البيت .

في منتصف النهار اتت امي ومعها ساندويش لبنة وكرز (فاكهتي المفضلة) وجريدة «الحياة» . اخبرتني ان والدي قد حضر من عمان وانه سيصدر جواز سفر اردنيا باسمي. وصنعت لي فنجانا من الشاي ، شربته وأنا امضغ ساندويش اللبنة ، وأطالع «الحياة» : اعتقالات القوميين الاجتماعيين تمتد وتتوسع فتصل الدوائر الحكومية وقوى الدرك والجيش .. المدعي العام شربل يكيل الاتهامات للحزب مدعيا ان الحزب خطط للقيام بانقلاب في لبنان وانه متواطيء مع اسرائيل .

قلت لوالدتي :

ــ لم اعد اقدر على البقاء هنا . يجب ان نجد طريقة للخروج من لبنان .

فكرت قليلا ثم قالت :

ــ سأبحث الموضوع مع والدك اليوم .. وسأعود بعد الظهر واخبرك بما يجدّ .

وجلست على احد المقاعد الثلاثة في الغرفة وجعلت اراقب سير الشمس على الحائط . شعرت بوحشة كبيرة تبتلعني .. ورحت أذكر ايام شيكاغو .. وكيف كنت احلم بالعودة الى بيروت .. ها انا في بيروت . الان اتوق للعودة الى شيكاغو .

قبل الغروب جاءت والدتي واخبرتني ان والدي قد حصل على جواز سفر باسمي ، وان صديقا له من عائلة لبنانية عريقة سيقودني في سيارته غدا الى دمشق ، وسترافقني مع والدي لاختراق الحدود ..

ـ ٩ ـ

وصلنا الحدود اللبنانية ــ السورية عند المغيب يوم الخميس في ١٥ حزيران . كان والدي جالسا في الامام بجانب صديقه صاحب السيارة ، وجلست انا مع والدتي في الخلف . مررنا ببحمدون ، ثم صوفر ، ثم ظهر البيدر .. سهل البقاع يمتد امامنا بحقوله الخضراء الخصبة . ومن ورائه تعلو سلسلة الجبال الوردية القاحلة .. حيث الحرية والامان . انظر الى السماء الزرقاء التي هي بلون البحر في تشرين ، ويبدأ قلبي بالخفقان .. ربما اسمي على لائحة شرطة الحدود .. ربما لديهم صورتي .. بعد دقائق سأتأكد من الامر . ارى الشرطي

يقترب من السيارة . «اتفضل» .. امي تصرخ «دخيلكم .. حرام .. لا تأخذوا ابني ..» لا يأبهون لها .. السلاسل حول معصمي ..

وتتوقف السيارة فجأة ، نحن في المصنع ، مخفر الحدود اللبناني . والدي يفتح باب السيارة ويخرج . جوازات السفر الاربعة بيده . ارى جنودا عن بعد يتحادثون ويدخنون ويبصقون على الارض .

تمر الدقائق ببطء . ادير وجهي فأرى فجأة امامي ضابطا ينحني وينظر الي .. انظر امامي حابسا نفسي ، دون حراك ..

ـ اسمك .

ويقول والدي :

ـ هذا جوازه .. مختوم للخروج .

ويعطيه جوازي الاردني . ينظر الضابط فيه ، ويقلبه بين يديه ، ثم يعيده لوالدي .

ـ طيب . مع السلامة .

وتسير بنا السيارة .. انا في مقعدي لا ازال مجمدا بلا حراك . ما هي الا ثوان ونعبر الارض السورية .. لا اصدق انني نجوت . تضحك والدتي وتقبلني .. ويلتفت والدي مداعبا .. ويزول الكابوس عن صدري دفعة واحدة ، وأحس بفرح جامح يغمرني . انظر الى ما حولي .. الى الارض الجرداء والصخور والسماء والنجوم التي بدت تطلع في الغسق وأبلع الغصة في حلقي ، واملأ صدري بالهواء البارد الجاف .. آه ما اجمل الحرية ..

نصل دمشق حوالي الثامنة .. انها الجنة .. نتوقف عند مدخل سوق الحميدية ونتناول العشاء في مطعم صغير . ونبقى انا ووالدي في دمشق لنسافر في اليوم التالي الى عمان وتعود والدتي الى بيروت برفقة صديق العائلة .

اول من يخطر على بالي في دمشق يحيي حمصي . بيته يقع

في حي قديم بالقرب من سوق ساروجة . وجدناه بسهولة ونمنا الليل عنده ، في غرفة عالية السقف مقفلة النوافذ . في الصباح الباكر نستقل سيارة الى عمان ونصلها ظهرا .

- ١٠ -

انا في عمان للمرة الاولى في حياتي . انها مدينة صغيرة ، بل قرية كبيرة ، تعج بالبشر . كلهم لاجئـون فلسطينيون .. المخيمات في شرقي البلد ، على جبل مرتفع ، وفوق تلالها في الشمال والغرب .. الحياة في عمان فوضى ، الناس تهيم في الشوارع دون عمل او هدف .. صورة الهزيمة مرتسمة على كل وجه .. وعلى المدينة كلها . الناس كالاشباح ، نظراتهم الحائرة تقول : «هذا حلم سنستفيق منه قريبا» .

نزلنا انا ووالدي في بيت عمي شكيب . كان الاصغر بين أعمامي، يقيم في عمان منذ عدة سنوات، لاستثمار ارض زراعية شحيحة بالقرب من عمان تملكها العائلة من زمان . كان بيته قديما ، لا ماء جارية فيه ولا كهرباء ، والمرحاض حفرة في الارض خارج البيت .

في اليوم التالي حجز لي والدي غرفة في فندق صغير في منتصف المدينة يملكه شخص نابلسي يعرفه .. على الاقل هناك ماء وكهرباء . اغتسلت وغيرت ثيابي ونزلت الى الشارع بحثا عن انسان اعرفه . لست أذكر كيف التقيت ذلك اليوم باسحق جاد الله ، صديقي من يافا وزميلي في مدرسة الفرندز .. اظن التقيته مصادفة في الشارع .. تمسكت به كالغريق . في اليوم التالي ذهبت انا واسحق الى السفارة الامريكية . قررت العودة الى شيكاغو اذا استطعت ذلك .

قال موظف الجوازات ان تأشيرات السفر لا تعطى في عمان بل في السفارة الامريكية في دمشق ، فقلت له :

ـ اريد موعدا مع السفير .

فحولني الى مكتب السفير . وأخبرتني السكرتيرة ان السفير لا يستقبل احدا بشأن تأشيرات السفر . وقالت :

ـ لكن اذا كنت تريد بحث موضوع آخر معه فبامكانك المجيء غدا في الساعة الحادية عشرة صباحا .

قلت لها :

ـ نعم اريد بحث موضوع آخر معه ، الرجاء تحديد موعد .

عدت في اليوم التالي وبرفقتي اسحق . استقبلني السفير بعد انتظار قصير . ولم اكن قد حضرت في ذهني ما سأقوله له . ظننت انه بمجرد ان يعرف اني خريج جامعة شيكاغو واني اود العودة اليها لانهاء دراستي ، سيمد يده مصافحا ، ويأمر المسؤول ان يعطيني التأشيرة حالا .

سألني حال جلوسي على كرسي صغير امام مكتبه الضخم :

ـ هل بامكاني مساعدتك ؟

فأخبرته بلطف زائد اني تخرجت من جامعة شيكاغو في مطلع السنة بشهادة استاذ علوم واني اريد الان العودة لانهاء دراستي للدكتوراه .

ولم ينهض من مقعده مصافحا ، كما توقعت . ولم يدق الجرس داعيا المسؤول لمنحي تأشيرة السفر . بل راح ينظر اليّ بصمت . وما لبث ان انفجر قائلا :

ـ اخذت موعدا معي بادعاء كاذب . انك تريد تأشيرة سفر ، وقد اخبرتك السكرتيرة ان لا دخل لي بتأشيرات السفر . هذه بعثة دبلوماسية وليست قنصلية . ومع ذلك جئت تطلب مني تأشيرة سفر ..

كان على وشك ان يطردني من مكتبه .. لم أنبس بكلمة .

وجعل ينظر من النافذة بصمت . ثم التفت اليّ وقال بصوت اكثر هدوءا :

ـ عليك الذهاب الى سفارتنا في دمشق . هناك يعطونك فيزا ..

وبدلا من ان اشكره وانسحب بسلام ، سألته :

ـ وما هي الوثائق التي أحتاجها للحصول على تأشيرة السفر ؟

فحملق بي كأنه لم يفهم ما أعني . فأعدت عليه السؤال .

فأجاب وهو يحاول كبت حنقه من جديد :

ـ ارجوك ان تطرح هذا السؤال على المسؤول عن قسم الجوازات . انا هنا سفير . مكتب المسؤول على يسارك عند الخروج .. تفضل .

وأشار بيده الى الباب . فخرجت دون ان اجيبه بشيء . وأخبرت اسحق بما جرى ، ثم ذهبنا الى مكتب المسؤول عن الجوازات ، وسألته عن الوثائق اللازمة للحصول على تأشيرة من دمشق . وأمضيت بقية الاسبوع في جمعها . ويوم السبت في ٢٥ حزيران سافرت الى دمشق .

- ١١ -

عند وصولي الى دمشق لم اكن اعرف ان الزعيم قد عبر الحدود الى سوريا ، وانه يقيم عند احد القوميين الاجتماعيين بالقرب من اوتيل الشرق . كانت الاخبار عن الحزب قد بدات تنحسر وتفقد اهميتها في الصحف . وظننت ان فترة سبات جديدة قد بدأت في حياة الحزب ، كما حصل بعد حملات الاعتقال سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٠ ، وان القوميين الاجتماعيين الفارين سيعمدون على الاختفاء عن الانظار برهة من الزمن حتى

تهدأ الامور ويصبح بالامكان تنظيم الحزب من جديد . حال وصولي الى ساحة المرجة توجهت الى مقهى البرازيل حيث يجلس يحيى كل يوم بعد الظهر . لم اجده في مكانه المعهود ، وقال لي الجرسون :

ـ هلأيام صار الاستاذ يحيى يفضل مقهى الاوازيس . يمكن يكون هناك .

كان مقهى الاوازيس (الواحة) مقابل مقهى البرازيل ، ويرتاده المثقفون والكتاب .

وجدت يحيى جالسا يتحدث الى شاب لا اعرفه . وكان الشاب يستمع اليه وينفخ دخان سيجارته بين الحين والآخر ببطء ، كالغارق في التفكير . وكان يلذ ليحيى ان يجد مستمعين من هذا النوع ، يستمعون اليه دون مقاطعة او جدال .

لما رآني علت وجهه الدهشة . ثم ابتسم ابتسامة حارة وقام يعانقني . وكان وداعنا في الاسبوع السابق وداع من توقع فراقا طويلا . ما احلى اللقاءات المفاجئة غير المتوقعة ..

اخبرت يحيى بما حصل ، وانه يجب ان احصل على تأشيرة السفر الامريكية بأقرب وقت ممكن ، في اليوم ذاته اذا امكن . فقام في الحال واتصل بالسفارة الامريكية . لكنها كانت مغلقة ، ولا تفتح ابوابها حتى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي .

في تمام الساعة الثامنة من اليوم التالي كنت انا ويحيى امام باب القنصلية التابعة للسفارة . كان في غرفة الانتظار ثلاثة اشخاص . فانتظرنا ما يقارب الساعة حتى جاء دوري . ودخلت مكتب القنصل وفي يدي جواز سفري وكافة الوثائق والمستندات اللازمة .

تناول القنصل جواز سفري وأخذ يقلبه ويطالع الوثائق والمستندات . وبعد برهة رفع رأسه قائلا :

ــ آسف . لا أستطيع اعطاءك تأشيرة سفر . عليك الذهاب الى القنصلية الامريكية في قبرص .. فاجأتني كلماته . لم أعرف اذا كان الوضع يستدعي الضحك ام الغضب . قلت :

ــ السفير في عمان أكد لي انك ستعطيني تأشيرة اذا جهزت الوثائق اللازمة . هذه هي الوثائق اللازمة بكاملها . لا أفهم ما تعني بالذهاب الى قبرص ..

ــ السفير في عمان لم يكن يعلم انك حصلت على تأشيرة سفرك الاولى سنة ١٩٤٧ من القدس . اننا نحتاج الى الملف الخاص بك والموجود الان في القنصلية الامريكية في قبرص ..

ــ لكن ما الذي تريده من ملفي الماضي . امامك كل الوثائق التي احتاجها للحصول على تأشيرة . أليس كذلك ؟

فصمت قليلا ثم قال :

ــ دعني أتفحص هذه الاوراق .

كانت الوثائق كاملة . حتى شهادة الميلاد التي لم يمكنني الحصول عليها ، استعضت عنها برسالة جيرها ابي واثنان من معارفه وختمها كاتبالعدل ووضع عليها ما يقارب العشرين طابعا اميريا بأحجام مختلفة .

وأخذ القنصل يقرأ الترجمة الانكليزية لهذه الرسالة وينظر الى التواقيع والاختام في نصها الاصلي ، ثم وضعها جانبا وقال:

ــ ينقصك وثيقة واحدة .

ــ غير ممكن . هذه كل الوثائق التي ذكرها السفير .

ــ ينقصك شهادة طبية .

كان على حق . لم أتذكر ذلك . فهرعت مع يحيى الى عيادة الطبيب الذي اعطتنا السكرتيرة عنوانه . ففحصني وأعطاني الشهادة المطلوبة ، وعدنا الى القنصلية قبل ان تغلق ابوابها .

قدمت الشهادة للقنصل ، فوضعها في ملفي مع الوثائق الاخرى ، وقال :

ــ احتاج الى ست صور شمسية .

لم انس الصور . كان في جيبي ٣٦ صورة شمسية اخذتها في عمان . اعطيته ستا منها .

ــ ارجع غدا وستكون التأشيرة جاهزة في الساعة العاشرة.

خرجنا من القنصلية منشرحي الصدر . واقترح يحيى ان نتناول الغداء في الاوازيس . وبدل ان نركب الباص سرنا على الأقدام بالرغم من حرارة الطقس . عند باب المقهى التقيت وجها بوجه بسمير خوري ، وكان عضوا في الحزب يعمل منذ تخرجنا من الجامعة مهندسا في دمشق .

وكانت مفاجأة سارة مثيرة .

جلس سمير معنا في زاوية من المقهى ، وطلبنا الطعام . سألني عن سبب وجودي في دمشق ، فأخبرته بكل ما جرى معي . وقام يحيى ليسلم على احد معارفه ، فاغتنم سمير الفرصة وهمس في أذني قائلا :

ــ هل تعرف من هو موجود في دمشق ؟

ــ عرفت حالا .

ــ اين هو ؟

ــ سآخذك اليه بعد الغداء .

ولا اعرف كيف ازدردت طعامي وقلت ليحيى ان مهمة مستعجلة تتطلب ذهابي مع سمير ، واتفقنا ان ألتقي به في المساء .

- ١٢ -

سرت بجانب سمير بصمت. كانت الساعة قد قاربت الثالثة والحر شديد .. الشوارع تقريبا خالية من الناس .. اكثر الدكاكين مغلقة . واخيرا وصلنا الى بناية ذات ثلاثة طوابق واشار اليها سمير قائلا :

ـ في الطابق الثاني .

صعدنا الدرج ودق سمير الجرس . سمعنا خطوات ثقيلة تسير نحو الباب وصوت خشن يقول :

ـ مين ؟

ـ سمير .

فتح الباب رجل لا اعرفه ، وقادنا الى غرفة الجلوس . جلست في مقعد ووقف هو وسمير يتهامسان . ثم جلس سمير بجانبي وهمس قائلا :

ـ الزعيم غير موجود .. لكنه متوقع في اية لحظة .

وما هي الا دقائق حتى قرع الجرس . ودخل الزعيم وخلفه علي وبضعة اشخاص آخرين . عندما رآني توقف عن السير ورفع يديه في الهواء والدهشة والسرور على وجهه .

ـ انت هون ؟ اخبروني انك اعتقلت .

عانقني بحرارة .

ـ اخبرني عن كل شيء جرى معك .

وأخبرته بالتفصيل عما جرى معي منذ تلك الليلة المشؤومة. ولكني لم أذكر له سبب وجودي في دمشق او عزمي على العودة الى شيكاغو .

وحدثني عن الوضع العام . وكان متفائلا ممتلئا نشاطا وقوة . ثقته تسري كالعدوى .

ـ هناك مهمة اريدك ان تقوم بها . هل بامكانك الذهاب الى عمان غدا ؟

ـ من كل بد .. غدا صباحا .

ـ كثير عال . سأكتب رسالة لتسلمها لفريد .

حتى ذلك الحين لم أعرف ما كان يجري داخل الحزب . فترة الجمود التي ظننتها قد ابتدأت كانت بالعكس فترة عمل وتحضير . كان الحزب يعدّ للقيام بثورة مسلحة في لبنان ...

وفتح باب احدى الغرف المحيطة بقاعة الجلوس ودخل رجل في مطلع الثلاثينات ، وسيم الوجه ، ذو مظهر عسكري ، قال له الزعيم :

ـ الرفيق هشام هنا .. اريدك ان تتعرف عليه .

وأشار الى الرجل العسكري قائلا :

ـ الرفيق عساف كرم ، من ضباطنا المتفوقين .

احسست وأنا أصافحه بأن احد اصابع اليد اليمنى مبتور. كان في ابتسامته شيء من القسوة ، كأنه يشكو من ألم مضن . وعرفت انه التحق بالحزب في أواخر الثلاثينات وعمل ضابطا في الجيش الفرنسي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، واشترك في معارك الجبهة المصرية . ولسبب ما اثناء غياب الزعيم ، طرد من الحزب . وأقام بعد الحرب في حلب مع زوجته وأولاده ، وكان دون عمل عندما اعاد اليه الزعيم حقوق العضوية . وسرعان ما تبين لي ان لعساف كرم مكانة خاصة عند الزعيم وله تأثير كبير عليه . اتساءل الان ، دون ان اجد جوابا شافيا عن الدور الذي لعبه عساف كرم في القرار الذي اتخذه الزعيم بعد التجائه الى دمشق للقيام بالثورة المسلحة في لبنان . لا شك ان المسؤولية الاخيرة كانت على عاتق الزعيم فهو الذي قرر خوض المعركة ، لكن أعتقد ان مجيء عساف كرم الى دمشق في تلك اللحظة كان عنصرا هاما في اتخاذ الزعيم قراره .

كانت تلك الجلسة الاخيرة التي أستمع فيها للزعيم . كان قد وصل الى قناعة تامة بأن الحزب سائر الى الخراب ان لم يقم بالثورة .

ـ الافضل ان يقضي علينا ونحن نحارب على ان نحافظ على وجود لا حياة ولا كرامة فيه .

قال ان التحالف الاقطاعي الحاكم في لبنان قرر القضاء على الحزب بكافة الوسائل ، ولم يعد هناك مجال للتسوية او التعايش مع النظام القائم .

ـ هم او نحن .. التعايش بيننا لم يكن ممكنا .. نحن حركة تقول بفصل الدين عن الدولة وبالقضاء على الطائفية والاقطاعية، وهم يقولون بالطائفية والاقطاعية والعصبية الدينية . وجودنا ينفي وجودهم ووجودهم ينفي وجودنا.. كان يعتمد على حسني الزعيم ، الذي وعد بتقديم الدعم المادي للثورة .. وعلى الدنادشة في البقاع الذين اعلنوا عن استعدادهم للاشتراك بالثورة ، وعلى الاردن الذي وعد بتقديم السلاح والمعدات والذخيرة . ولم يفِ احد منهم بوعده .. رغم ان سعادة كان يتكلم عن الثورة كأن نجاحها بات مضمونا ، فانه في البيان الذي اصدره غداة اعلان الثورة اشار بأنها «الثورة القومية الاجتماعية الاولى» . هل كان يتوقع ان تفشل هذه الثورة وتتبعها ثورة ثانية في المستقبل ؟ هل كان يدرك في داخليته ان الثورة كانت مغامرة يائسة وان امكانية نجاحها كانت محدودة للغاية ؟ اظنه كان يدرك كل ذلك . ومع ذلك لم يظهر اي قلق .. كان يتحدث بثقة عظيمة ويضحك ملء قلبه ، كأن لا هم عنده في الدنيا . اراه الآن جالسا يتحدث الى عساف كرم ، يدرس الخرائط والارقام . يستفسر عن دقائق الامور ، وعساف كرم يجيبه بدقة واقتضاب . كان هذان الرجلان يخططان مصير جيل بكامله .. الايام القليلة المقبلة ستقرر اذا كانت القضية القومية الاجتماعية ستنتصر ام انها ستفشل ونعود الى حياة الفوضى والذل ..

كان للثورة ان تنفجر في آن واحد في مناطق مختلفة في لبنان . فتقوم جماعات صغيرة من القوميين بمهاجمة مخافر الدرك في بيروت والشوف والمتن وتستولي على اكبر كمية من السلاح . وبعد ذلك تعلن الثورة في الهرمل ، وتهاجم قوة عساف كرم ، وهي قوة الثورة الرئيسية ، راشيا ومشغرة وتحتل البقاع الاوسط .

كانت ساعة الصفر منتصف ليلة السبت ٢ تموز . في الموعد المحدد هاجمت جماعة من القوميين الاجتماعيين مخفر الغبيري في ضواحي بيروت ، وجماعة اخرى مخفر المتين في الجبل . في الحادثتين جرح بعض أفراد الدرك واستولى القوميون الاجتماعيون على كمية ضئيلة من السلاح . وفي الشوف والهرمل لم يحدث شيء . اما قوة عساف كرم فدخلت الاراضي اللبنانية في باصين في موعدها المحدد ورافقها سعادة حتى الحدود السورية ــ اللبنانية، حيث القى كلمة في القوميين الاجتماعيين ثم عاد الى دمشق . وانقسمت القوة الى فريقين ، اتجه الفريق الاول بقيادة عساف كرم نحو مشغرة ، والفريق الثاني الى راشيا .

كما تبين فيما بعد ، كانت السلطات اللبنانية على علم بمخطط الحزب بكافة حذافيره . فما ان وصل القوميون الى مشغرة حتى وجدوا انفسهم محاصَرين من جميع الجهات . لكن عساف كرم ابى الاستسلام واستمر في القتال حتى ظهر اليوم التالي الى ان قتل فاستسلم من تبقى على قيد الحياة من القوميين الاجتماعيين . اما الفريق الثاني فقد حوصر ايضا في راشيا وقتل منه عدد واستسلم العدد الآخر .

ويوم الاثنين حوصرت الجماعة المقاتلة الاخيرة بقيادة جورج عبد المسيح في سرحمول في الشوف . ولم يدم القتال طويلا.. فاستسلم عدد من المقاتلين وتمكن الباقون من الافلات ومن بينهم جورج عبد المسيح .

- ١٣ -

كان سعادة قد طلب مقابلة حسني الزعيم قبل فشل الثورة،

وحدد له موعد . وتبين له الآن ان حسني الزعيم قد نكث بوعده . فكان امامه اختياران ، اما المضي في مقابلة حسني الزعيم او الهرب والالتجاء الى الاردن .

ركب سيارة صبحي فرحات برفقة سمير خوري وأمر صبحي ان يسير بالسيارة جنوبا . أخبرني سمير بتفاصيل الرحلة . قال ان الزعيم لم ينبس بكلمة الى ان وصلت السيارة الى مشارف درعا فقال لصبحي :

ــ عد الى دمشق .

قرر ان هربه لن يفيد . قرر ان يغامر للمرة الاخيرة . عندما وصلت السيارة الى مشارف دمشق ، طلب من صبحي ان يتوجه الى قصر الرئاسة وطلب الى سمير ، قبل ان تصل السيارة الى القصر ، ان يترجل ، وودعه بلطف .

ما ان دخلت السيارة باحة القصر الخارجية حتى احاطت بها ثلة من الجنود ، واعتقلت سعادة (وألقي القبض على صبحي فرحات وأرسل الى سجن المزة) ووضعته في سيارة جيش أقلته الى الحدود السورية ــ اللبنانية حيث كان بانتظاره فريد شهاب مدير الامن العام اللبناني وزعيم الدرك نور الدين الرفاعي ، فاقتاداه الى بيروت مصفد اليدين .

ــ ١٤ ــ

عند الساعة السادسة سلمني الزعيم الرسالة التي سأحملها الى عمان .

ــ أكد لفريد ان عنصر الوقت مهم جدا . اي تأخير سيضر بنا ضررا كبيرا .

ــ ما الذي عليّ ان افعله بعد تسليم الرسالة ؟

ــ ارجع الى دمشق .. أحتاجك هنا .

ثم ابتسم ووضع يده على كتفي قائلا :

ـ انت لا تعرف كيف تحارب .. لكن بامكانك ان تساعد في اشياء كثيرة .. اريدك هنا بجانبي .

وفي الساعة السادسة والنصف ودعته . كنت واثقا اني سأراه بعد ايام قليلة . وكنت واثقا ان الثورة ستنتصر .

سرت في الشارع أصفر بمرح وأتفرج على المارة والحوانيت. كان قلبي يطفح بالفرح . بادرني يحيى عندما لاقيته :

ـ خير انشاء الله . بيظهر مبسوط .. ما جد معك ؟

فقلت له اني التقيت بصديق عزيز ، وأخبرته اني سأسافر الى عمان في صباح اليوم التالي . فاقترح ان نذهب الى السينما ، فوافقت بحماس وشاهدنا فيلما امريكيا ثم شربنا قدحا من البيرة في الاوازيس ، ولم نرجع الى البيت حتى الساعة الواحدة . ونمت نوما عميقا مليئا بالاحلام الجميلة ، ولكن عندما استيقظت نسيتها كلها .

- ١٥ -

وصلت الى عمان عند الظهيرة . واتصلت بفريد وسلمته الرسالة ونقلت اليه ما قاله الزعيم عن اهمية الاستعجال . وأخبرته اني سأعود الى دمشق في اليوم التالي ، فطلب الي تأجيل موعد سفري الى اليوم الذي يليه ، اي يوم السبت . فوافقت بلا تردد .

امضيت يوم الجمعة وحيدا أتنقل في شوارع عمان . اسحق كان مشغولا ذلك اليوم فقد بدأ عمله بالسفارة الامريكية. عند الظهر وجدت نفسي بالقرب من المسجد القديم في وادي عمان . وامتلأ الشارع بالناس عندما قارب موعد الصلاة .

وفجأة رايت دراجات نارية وسيارات الشرطة تتقدم نحو المسجد وخلفها سيارة الملك عبد الله تتبعها سيارات جيب ملأى بالجنود. توقفت سيارات الشرطة امام المسجد وقفز منها عشرات من رجال الشرطة وفي ايديهم قضبان قصب طويلة اخذوا يضربون بها الناس الواقفين امام المدخل وهم يصيحون ، «افتح طريق. افتح طريق» . وسمعت بالقرب مني قضيبا يمزق الهواء ويهوي على راس رجل يقف بجانبي . رأيت الرجل وكان يلبس كوفية وعقالا ، يرفع يده الى وجهه ثم رأيت الدم يسيل من راسه . وصرخ به الشرطي :

ــ امشي يا كلب .

وهو يضرب بالقضيب يمينا وشمالا ، والناس تتراكض امامه كالفيران . ورأيت المشايخ والاعيان يهرعون لاستقبال الملك وينحنون امامه ويقبلون يده . وكان يرتدي عباءة بيضاء وعلى راسه ما يشبه العمامة . خلت انني في حلم وفي زمان ومكان آخرين ..

في اليوم التالي عدت الى دمشق . ومنذ لحظة دخولنا المدينة احسست بأن في الجو شيئا غير اعتيادي . نزلت من السيارة وسرت باتجاه بيت يحيى ، وقبل ان أدخل سوق ساروجة رأيت جورج سلامة شقيق جوزيف ، فأخبرني بأنه تمكن من الهرب من بيروت ، وكان في حالة قلق شديد . وقال:

ــ يجب ان ترجع حالا الى عمان . الجميع اصبح ملاحقا في سوريا .

فسألته عن الزعيم ، فقال انه توارى عن الانظار ولا احد يعرف اين هو .

مرة اخرى غامرني ذلك الخوف الكاسح الذي اختبرته في بيروت واحسست بالدم يسري باردا في عروقي . اصبحنا ملاحقين في سوريا كما كنا ولا نزال في لبنان .. وهكذا ،

وبلمحة بصر ، تحولت دمشق من مكان صديق آمن الى مكان خطر رهيب مثل بيروت ..

هرعت الى بيت يحيى ، فلم اجده . فذهبت الى مقهى الاوازيس ورأيته جالسا بمفرده يقرأ الجريدة . وما ان رآني حتى بادرني بقوله :

ـ ماذا تفعل هنا .. لماذا رجعت من عمان .. ألم تسمع الاخبار ؟

وأخبرني عن الشائعات التي كانت قد بدأت تنتشر في دمشق بأن اديب الشيشكلي قد أقيل او نقل من مركزه ، وان حسني الزعيم سلم سعادة الى الحكومة اللبنانية وان سجن المزة مليء بالمعتقلين . وجلست على كرسي وقد شعرت بتعب عظيم وبجوع شديد . ثم قمت انا ويحيى الى مطعم صغير مقابل مطعم سقراط ، وأكلنا «فتة مقادم» فارتفعت معنوياتي قليلا . وقال يحيى ونحن نحتسي القهوة :

ـ المهم ان نرتب امر عودتك الى عمان . اول شيء لازم نحصل عليه هو تأشيرة خروج من الامن العام .

ـ لا اظن لديهم لوائح بأسماء القوميين القادمين من لبنان .

ـ الا اذا حصلوا عليها بواسطة الامن العام اللبناني . على كل حال سأذهب معك الى الامن العام ، فاذا حصل شيء على الاقل يكون عندنا علم .

لم انم تلك الليلة حتى الفجر ، فغفوت ما يقارب الساعة . كان اليوم الاحد في ٣ تموز . غادرنا البيت انا ويحيى في الساعة السابعة ، وتناولنا فنجانا من الشاي في مقهى صغير مقابل الامن العام بانتظار ان تفتح المكاتب ابوابها . في الساعة السابعة والنصف دخلنا بناية الامن العام . كنت قد سلمت نفسي للاقدار ، شعرت بنوع من الاطمئنان . كان هناك بضعة اشخاص ينتظرون في احدى زوايا مكتب التأشيرات ، فيما كان الموظفون يحتسون القهوة ويقرأون الصحف . تقدمت الى

الشباك الذي تعلوه يافطة «تأشيرات الخروج» ووضعت جواز سفري امام الموظف ، وكان يقرأ صحيفة ، فلم ينتبه اليّ ، فقلت :

ـ صباح الخير .. اذا بتعمل معروف ..

ودفعت بالجواز نحوه . ونظر اليّ بشيء من الامتعاض ، ووضع الصحيفة جانبا وأخذ يقلب الجواز . ثم فتح ملفا وأخذ ينقل بصره بين الملف والجواز كأنه يقارن اسمي بأسماء اخرى. ورأيته يأخذ قلما ويدون في الملف . وقبل ان ادرك ما حدث دفع الجواز نحوي وقد ختم بتأشيرة الخروج ، وعاد يقرأ صحيفته .

خرجت مسرعا الى حيث كان يحيى ينتظرني امام المدخل . انفرجت اساريره لما رآني .

ـ نستطيع ان نلحق بسيارة الساعة الثامنة اذا استعجلنا .

كان موقف سيارات عمان لا يبعد كثيرا عن بناية الامن العام، فوصلناه في خلال بضعة دقائق . ووجدت مقعدا خاليا في سيارة كانت على وشك المسير . ووقف يحيى الى جانب السيارة، وكان لا يزال قلقا يريد السيارة ان تغادر . وعندما ادار السائق المحرك مد يحيى يده مصافحا :

ـ لا اريد رؤيتك لمدة طويلة ..

ثم وضع يده على مؤخرة رأسي بحنو . كانت تلك آخر مرة رأيته فيها .

تأخرنا على الحدود بسبب التفتيش ، فلم نصل الى عمان الا عند العصر . وذهبت مباشرة الى الفندق واستحممت بالماء البارد ، ثم نمت نوما متقطعا حتى صباح اليوم التالي . وفي الصباح نزلت الى الشارع واشتريت الصحف . فطالعتني أخبار الانكسار ومقتل عساف كرم واستسلام القوميين الاجتماعيين في البقاع .

امسكت بباب الباص وصعدت الى داخله وجلست في اول

مقعد خال . فتحت الصحيفة . صورة سعادة امام المحكمة العسكرية في بيروت تتصدر الصفحة الاولى . انه يرتدي بذلته البيج الصيفية التي جلبها معه من الارجنتين . يحتاج الى حلاقة ذقن .. يبدو متعبا بالرغم من نظرة التحدي على وجهه.. يحيط به الجنود ، لكنه لا يبدو اسيرا .. هذه هي نهاية الشوط .. انه يدرك ذلك .. اعرف ما يدور برأسه : يريد ان يقول كلمته ويخرج مرفوع الراس .. انها وقفة العز الاخيرة..

تتوارد في ذهني كلماته .. «يجب ان انسى جراح نفسي النازفة لكي اساعد على تضميد جراح امتي البالغة» . كان شابا في مطلع العشرين من عمره في البرازيل عندما خط هذه الكلمات في دفتر مذكراته .

واسمع صوته في الاحتفال الاخير بأول آذار .. «كل ما فينا هو من الامة وكل ما فينا هو للامة ، الدماء التي تجري في عروقنا فانها ليست ملكنا . هي وديعة الامة فينا ومتى طلبتها وجدتها » .

كلماته عبر السنين : «اننا نقتل العيش لنقيم الحياة .. مارسوا البطولة ولا تخافوا الحرب بل خافوا الفشل ... سنغير وجه التاريخ ... الحياة وقفة عز فقط ...» .

الفصل الخامس

- ١ -

تفاصيل المأساة تنشر كلها في اليوم التالي (السبت ٩ تموز ١٩٤٩) .

سلّم سعادة بواسطة الامن العام السوري الى السلطات اللبنانية يوم الثلاثاء في ٥ حزيران ، واقتيد تحت الحراسة الى الشياح حيث حجز في غرفة قائد الدرك حتى ساعة مبكرة من صباح الاربعاء في ٦ تموز ، ثم نقل الى المحكمة العسكرية .

تألفت المحكمة من المقدم انور كرم رئيسا والنقيبان سمراني واحدب والملازم عرب والاستاذ غبريال باسيلا اعضاء . كان المدعي العام يوسف شربل . ورفضت المحكمة طلب محامي الدفاع بتمديد مدة المحاكمة الى ٢٤ ساعة كي يتاح له دراسة القضية وتحضير الدفاع ، فاستقال ، وعينت مكانه ضابطا من الجيش . وتكلم سعادة دفاعا عن نفسه ولم يسمح للصحفيين

حضور المحاكمة ولم ينشر دفاعه .

في الساعة السابعة والنصف مساء اصدرت المحكمة قرارها بالاعدام رميا بالرصاص . واستصدر مجلس الوزراء برئاسة رئيس الوزراء رياض الصلح مرسوما بتصديق الحكم ووقعه بشارة الخوري رئيس الجمهورية فورا .

في الساعة الثامنة والنصف نقل الزعيم من المحكمة العسكرية الى سجن الرمل حيث أودع في زنزانة على انفراد .

واوردت «النهار» ★ ما حدث في الساعات الاخيرة على لسان مراسلها الذي تمكن من دخول السجن والاجتماع بالزعيم .

«... لم يكن سعادة على علم بتصديق الحكم . فما ان دخل الزنزانة حتى خلع سترته وفك ربطة عنقه ، واستلقى على الفراش ونام للمرة الاولى منذ اكثر من ٢٤ ساعة ...

«استيقظ وجلس على سريره وأشاح ببصره فيما حوله ، ففهم ولم يلفظ ولا كلمة .

«فتقدم المدعي العام وأبلغه ان لجنة العفو صدقت الاحكام ، وكذلك فخامة رئيس الجمهورية . ولما باشر تلاوة مرسوم التصديق ، قال له سعادة :

ـ يكفي ، يكفي .

«وسئل عما اذا كان يريد طعاما او قهوة . فقال انه يكتفي بفنجان قهوة ، وقدمت له سيكارة فاعتذر وقال انه لا يدخن كثيرا .

«وفيما هو يتناول القهوة بهدوء ، نظر الى القضاة وسألهم ، وكانت لهجته رصينة ، وكان يتكلم كعادته ، بالفصحى :

ـ اي قانون في اي بلد من بلاد العالم ، يجيز تنفيذ الاعدام

★ النهار ، ٩ تموز ١٩٤٩ .

قبل مرور ٤٨ ساعة على صدوره على اقل تعديل ؟

«فلم يجبه احد .

«ثم سأل اذا ما سيسمح له بأن يرى زوجته وبناته الثلاث، فقيل له ان لا . وعندئذ ظهرت دمعة في عينه وبدا عليه التأثر ، ولكن سرعان ما حرك راسه وابتسم ابتسامة لم تخف مرارتها.

«وعندما طلب منه المدعي العام ان يكتب وصيته ، فقال انه يوصي بتقسيم ملكه في ضهور الشوير على امرأته وبناته بالتساوي ، فيعود لكل منهن ربع الملك . وأوصى بالمال الذي معه ويبلغ ٤٠٠ ليرة الى زوجته كما اوصى لها بأثاث البيت . ثم سأل ما اذا كان القانون يجيز له ان يقيّم زوجته وصية على الاولاد ، فقيل له ان المسألة من اختصاص المحكمة الشرعية ، وله على كل حال ان يسجل رغبته في الوصية ففعل .

«وبعدئذ طلب ان يسمح له بالادلاء بتصريح سياسي ، فقيل له ان ليس من صحفيين ولا فائدة من التصريح على كل حال . فأجاب انه يرغب في تسجيله للتاريخ ، ولو في محضر تنفيذ الحكم ، فأذن له ، فقال :

«انني أعتبر ان الحكومة اللبنانية قامت بمؤامرة واسعة ضدي وضد حزبي ، ولكني أنظر الى الذين تآمروا عليّ ، والى الذين حكموا عليّ بالاعدام ، والى الذين سيعدمونني ، نظرة ازدراء » .

ونفذ حكم الاعدام في ساعات الفجر الاولى بالقرب من شاطىء البحر في ساحة التمرين على الرماية في بئر حسن . ونقلت الجثة الى كنيسة مار الياس بطينا المجاورة ، حيث صلى عليها الكاهن بحضور بعض الجند الذين رموه بالرصاص ، ثم وريت الجثة التراب في مدفن الكنيسة .

- ٢ -

الطائرة تعلو رويدا رويدا فوق عمان ، متجهـــــة جنوبا . البيوت تصغر حتى تبدو بحجم لعب الاطفال . ثم تختفـــي ولا يبقى الا الارض الخالية والتلال الجرداء . انظر اليها من خـلال دموع لا استطيع منع انسيابها .

لقد نبذتني يا وطني .. لن ارجع اليك .. لن ارجع ابدا ..

الفهرس

« نادرا ما قرأت نتاجا عربيا حديثا هزّني ، فتمنيت لو انني كنت صاحبه . هذه الامنية استبدت بي حين قرأت مخطوطة هذا الكتاب .

.. انه كتاب آسر » .

ادونيس

هشام شرابي ، استاذ التاريخ في جامعة جورجتاون في واشنطن ، ورئيس تحرير مجلة الدراسات الفلسطينية الصادرة باللغة الانكليزية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية وجامعة الكويت ، ولد في يافا سنة ١٩٢٧ ودرس الفلسفة في الجامعة الاميركية في بيروت وتخرج منها سنة ١٩٤٧ ، ودرس التاريخ الحضاري في جامعة شيكاغو ونال شهادة الدكتوراه فيها سنة ١٩٥٣ . له مؤلفات عدة في اللغتين الانكليزية والعربية ، اهمها « السياسة والحكومات في الشرق الاوسط » ، « المثقفون العرب والغرب » ، « مقدمات لدراسة المجتمع العربي » و « الدبلوماسية والاستراتيجية في الصراع العربي الاسرائيلي » .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ١١٠٠ ل.ل.
أو ما يعادلها